الهجاء والهجاؤون

في صدر الإسلام

تأليف

الدكتور م. محمد حسين

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو القسم الثانى من تاريخ فن الهجاء. وهو يؤرخ هذا الفن فى العصر الإسلامى. وأقصد بالعصر الإسلامى عصر النفوذ العربى الذى انتهى بغلبة النفوذ الفارسى، وتقويض هذه الدولة العربية، التى كان من أبرز صفاتها التعصب للعروبة فى شتى مظاهرها الأخلاقية والاجتماعية والأدبية.

والعصر الأدبى الذى نؤرخ هذا الفن فيه، لا يساير التقسيم التاريخى، ولا يجرى على ما جرى عليه جمهور مؤرخى الآداب، من تقسيمها تبعاً للتقسيم التاريخى. فهو يبدأ منذ وفاة النبي، وينتهى بانتهاء القرن الأول الهجرى. والواقع أن المطابقة التامة بين تاريخ الأدب و بين التاريخ السياسى، تعرض الباحث لأخطاء كثيرة، وتورطه فى تعسف غير قليل. فدارس الأدب — وهو مرآة صادقة دقيقة لحضارة العصر ولمزاج أفراده — لا يلاحظ فرقا كبيرا بين لون هذا الأدب فى عصر الخلفاء، و بين لونه فى الصدر الأول من العصر الأموى. بيد أنه يلاحظ هذا الفرق واضحا إذا قارن بين الصدر الأول من العصر الأموى و بين الشطر الأخير من حياة هذه الدولة. فالأدب فى عصر الخلفاء، وفى الصدر الأول من العصر الأموى — وهو ما نسميه بالعصر الإسلامى — أدب عربى خالص، يجرى على ما جرى عليه الأدب العربى القديم، فى أسلوبه، وفى أغراضه وفى صوره، وفى أوزانه، مع بعض التطورات التى اقتضتها طبيعة الظروف. فهو أدب عربى خالص. أما الأدب فى القسم الثانى من ذلك العصر، فهو

متأثر بالحضارة الفارسية ، و بالترف والخلاعة ، الذين نشآ من شيوع الغناء والمجون، وكثرة الجوارى وغلبتهن على قلوب العرب .

ولسنا هنا فى مقام المقارنة بين العصرين ، وتفصيل الفوارق بينهما . ولكننا أحببنا أن نوضح السبب الذى جعلنا نعدل عن التقسيم المألوف ، فنخلط بين عصر الخلفاء و بين قسم من العصر الأموى من جهة ، ونفصل بين شطر هذا العصر الأول وشطره الثانى من جهة أخرى .

وليس يفهم من هذا أننا ننكر الصلة القائمة بين التاريخ السياسى و بين تاريخ الأدب . فهذه الصلة قائمة بينهما ، قيامها بين الأدب و بين ألوان المعارف الإنسانية . ولكن الذى ننكره هو وضع العصور الأدبية فى حدود التواريخ التى تعين قيام الدول وسقوطها . فليست العبرة فى ذلك بقيام دولة وسقوط أخرى . ولكن العبرة فى شكل الحضارة السائدة ، وألوان الثقافة الغالبة ، وحالة المجتمع القائمة . وليس هناك ما يمنع أن تتقارب هذه العناصر جميعا وتتشابه فى دولتين ، هما عصران مختلفان عند المؤرخ ، بينما تتباين أشد التباين فى دولة واحدة ، هى فى عرفه عصر واحد . م ؟

رمل الاسكندرية ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٨

نشأة الأحزاب السياسية

رأينا فيما سبق أن الاسلام لم يستطع أن يقضى على العصبية القبلية بين العرب ، أو يخفف من حدتها ، وكل الذى حدث أن شخصية النبي القوية ، قد استطاعت أن تدبرها ، وتتفادى شرورها ، وتوجهها توجيهاً نافعاً لصالح الدعوة. لم تستطع العقلية الجاهلية أن تسيغ هذا النظام الذى جاء به الاسلام ، وأن تنسى وطنها الأول الصغير ، لتتفانى فى هذا الوطن الكبير ، والاتحاد الجديد ، الذى نشأ من ضم هذه الأوطان الصغيرة ، تحت سلطة مركزية واحدة . لم يكن العربى يحمل لهذا الوطن الجديد شيئاً من الحب أو التقديس ، وكل الذى فهمه أن قريشا قد فرضت سيادتها على بقية القبائل العربية . وكان أثقل شىء على نفسه ، هذه الأموال التى فرضها عليهم الاسلام ، وسماها « زكاة » . ولم تكن الزكاة فى حقيقة الأمر ، إلا نوعاً من الضرائب ، التى يدفعها الأفراد للدولة الآن ، مقابل حمايتهم وتدبير شئونهم ، بما يكفل لهم حياة مطمئنة ، قريبة غاية الجهد من تحقيق السعادة لسائر الأفراد . ولكن العربى لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئاً عن الدولة ، ولم يستطيع شعوره البدائى أن يفهم الحكمة فى وجودها ، أو الفوائد التى تحققها . فهو يختص القبيلة بكل حبه وعواطفه ، ويرى قوتها كفيلة بتحقيق غاياته ، ويرى أن فناءها فى هذا المجموع الكبير ، تضحية لا مبرر لها . فالزكاة فى نظره ، ليست إلا أتاوة تدفع لقريش ، وتوضع تحت تصرفها ، لتنفقها حيث تشاء . لذلك لم يكد النبي يموت ، حتى انبعثت هذه العصبيات قوية جارفة ، تريد أن تتحلل من كل قيد ، وأن تعود إلى حياتها الأولى الحرة الطليقة . منكرة حق قريش فى الزكاة ، ممتنعة عن أدائها لهذا الأمير القرشى الجديد . الذى يسمى نفسه خليفة . وخير ما يصور هذا التفكير البدوى ، الذى ينفر من النظام ، ويأبى الاعتراف

بالسلطان ، ولا يرضى إلا حياة الخلاف والتناحر ، أبيات الحطيئة التى قالها فى الردة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجبا ما بالُ دِينِ أبى بَكْر
أيورثها بَكراً إذا مات بعده ؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !

ورأت القبائل أن قريشاً لم تفضلهم وترجح عليهم إلا بالنبوة . فليكن فيهم إذن أنبياء . ففى ربيعة نبى من حنيفة هو مسيلمة . وفى مضر نبى ونبية . أما النبي فمن أسد وهو طليحة من خويلد ، وأما النبية فمن تميم وهى سجاح . وفى اليمن نبى هو الأسود العنسى .

وينهض رجل الإسلام الكبير للجهاد فى سبيل إعادة بناء الدولة الإسلامية ، بعزيمة لا تعرف وهنا ولا فتوراً ، وإيمان صادق عنيف ، ينتهى آخر الأمر بالظفر على هذه الفتنة . وإعادة القبائل المنشقة إلى الطاعة والخضوع للدولة . والقارى لشعر القبائل فى حركة الردة لا يجد فيه معارضة لمبادى الأسلام . فالحركة ليست ثورة على الدين الجديد . ولكنها محاولة لاسترداد سلطة القبيلة المسلوبة . فالشعر منصب كله على القبائل والأفراد . والمسألة فى حقيقتها عصبية خالصة .

يقول الخطيل بن أوس أخو الحطيئة [(١)] :

فِدًى لبنى ذُبيان رَحلى وناقتى عشيةَ يحُدى بالرماح أبو بكر
ولكن يُدَ هْدَى بالرِّجال فِهبْنَه إلى قَدرٍ ما إن تُقيمُ ولا تَسْرى [(٢)]
ولله أَجْنادٌ تُذاقُ مَهانَةً لتُحسَبَ فيما عُدَّ من عَجَبِ الدَّهرِ [(٣)]

---

(١) الطبرى ٤٧٧١٢

(٢) دهديت الحجر فتدهدى دحرجته ، هبنة كذلك هى بالنص لعلها من أهاب بالابل والخيل اذا زجرها قائلا هاب هاب ، فيكون المقصود ان هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم الى قدرهم وحينهم

(٣) يسخر بهم فيما يزعمون من أنهم جنود الله ؛ يقول هل رأيتم أعجب من هذا ؟ جنود الله تذوق الذل والهوان !

ويقول أبو شجرة بن عبد العزى وهو ابن الخنساء(١) :

صحا القلبُ عن مَىٍّ هواه وأقصرا … وطاوع فيها العاذلين فأبصروا
وأصبح أدنى رائدِ الجهل والصِبا … كما وُدُّها عنا كذاك تغيرا
ألا أيها المُدْلِى بكثيرة قَومه … وحظُّك منهم أن تُضام وتُقْهرا
سَل الناسَ عنا كلَّ يوم كريهةٍ … إذا ما التقينا دارِعِين وحُسَّرا
ألسنا نُعَاطِى ذا الطِّماح لجامَه … ونطعن فى الهيجا إذا الموتُ أقْفَرا
وعارَضَةُ شهباء تخطِرُ بالقنا … ترى البُلْق فى حافاتها والسنَوَّرا(٢)
فروَّيتُ رُمحى من كتيبةِ خالد … وإنى لأرجو بعدها أن أُعَمَّرا

ومما يصور أن العصبية روح هذه الحركة والدافع إليها ، مايروى الطبرى من خروج الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس إلى أبى بكر ، وقولهم له (اجعل لنا خراج البحرين ، ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد) . وقد رضى أبو بكر بهذا الشرط وكاد ينفذه . لولا أن عمر اعترض ومزق الصحيفة غاضباً(٣) .

ويمضى أبو بكر بعد سنتين من خلافته ، ويخلفه عمر ، فيحكم الجزيرة بحزمه الصارم . مندفعا فى الفتوح كالسيل الجارف . لا يقف فى سبيله شىء . ثم ينتهى حكمه بهذه المأساة المروعة ، التى ذهب الخليفة الكبير ضحيتها ، فتنتهى الخلافة إلى بيت من قريش ، عريق النسب فى الجاهلية ، كانت المنافسة قائمة بينه وبين بنى هاشم . وقد امتدت الدولة العربية ، واتسعت رقعتها ، حتى أصبحت أمبراطورية كبيرة ، قد ابتلعت دولتين عريقتين . هما الفرس والروم . ولم تعد النظم العربية الساذجة ، التى تركز السلطة فى يد الخليفة ،

---

(١) الطبرى ٢ : ٤٩٣
(٢) عارضة قابلة بمثل ما أتى . شهباء كتيبة شهباء . السنور كل سلاح جديد .
(٣) الطبرى ٢ : ٥٠٠

والتى تقوم على الزهد المطلق ، وتنفر من ادخار المال ، وتتحرج من إنشاء خزينة للدولة . لم تعد هذه النظم كافية لضبط ذلك الملك العريض . ولم يعد الأمر كما كان ، مقصوراً على إقامة حدود الدين ، وحمل الناس عليه بالاقناع أو التهديد . والتمسك بقانونه الأخلاقى القويم . فالعرب الذين كانوا يعيشون منذ سنوات قلائل على النظام القبلى . قد أصبحوا أمام مشاكل جديدة خطيرة ،هى سياسةهذه الأمبراطورية المترامية الأطراف ، وتدبير أمورها . وضبط شئونها . فهم أمام مشاكل مالية واجتماعية وسياسية ، لا عهد لهم بمثلها فى عزلتهم القديمة .

وتضطرب الأمور وتتعقد فى يد عثمان بن عفان ، ويفلت زمام الأمر من يده ، وقد غلت الأمصار بالفتنة . ويندفع الدهماء فى طوفان مدمر ، يجوف فى طريقه هذا الخليفة الطيب القلب ، الذى ذهب ضحية الانتقال المفاجىء ، من العزلة العربية القديمة إلى الملك الواسع العريض . وكان قتله وقتل عمر من قبله ثم قتل على بعد ذلك ، برهاناً قاطعاً على أن نظام الحكم القديم لم يعد صالحاً للبقاء . فلم يعد العرب فى حاجة إلى رجل دين وتقوى . ولكنهم أصبحوا فى حاجة إلى رجل حزم وسياسة قبل كل شىء . بل هم فى حاجة إلى عبقرية سياسية . تستطيع أن تنشىء قواعد للحكم إنشاء . وتخلق من العدم نظما وقوانين ، تستطيع أن تساير التوسع الجديد . وقد وجد العرب ضالتهم آخر الأمر ، فى عاهل العرب الأول ، ومنشىء الأمبراطورية الإسلامية معاوية بن أبى سفيان .

وكان بين قتل عثمان وبين مايسميه المؤرخون عام الجماعة الأول ، الذى انتهى فيه الأمر إلى معاوية ، ست سنوات ، اضطربت فيها الجزيرة بالفتن ، واجتاحتها موجة من الحروب المدمرة فى كل مكان ، كانت كلها قتالا حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وقد ظهر فى هذه الحروب لون جديد من العصبية

هو العصبية الأقليمية ، فقد أصبح الشام حزب معاوية ، وأصبح العراق حزب على ، وأصبح الحجاز موطناً للمعارضة ، يقودها زعماء قريش الطامعون فى الخلافة الذين لا يقرون عليها على بن أبى طالب ، فهم طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين . وفى هذه الحروب ، وضع أساس الأحزاب الثلاثة التى كان لها أعمق الأثر فيما يلى من الناحيتين التاريخية والأدبية ، وهى حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأمويين .

لم يكن على رجل الساعة ، فقد كانت عقليته السياسية من هذا الطراز القديم ، الذى تقوم شهرته على التقوى والورع ، والفقه بأمور الدين ، والنزاهة المطلقة ، والصراحة السافرة التى لا تعرف مكراً أو مخاتلة . وهذه صفات خلقية سامية ، قد ترفع صاحبها إلى مرتبة القديسين المطهرين ، ولكنها لا تجعل منه حاكما أو زعيما . فقد كان مع هذه الصفات السمحة ، بعيداً عن المرونة التى تنبغى لرجل السياسة . وكان بعيداً عن الأدراك الصحيح لروح الجماعات ، والفهم الدقيق لدوافعها العقلية والنفسية — وهى تختلف عن دوافع الأفراد اختلافا كبيراً — خسر كثيراً من الزعماء ، وكان يستطيع أن يكسبهم ، كالزبير وطلحة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة . ونهى أهل العراق عن نهب أموال أهل الشام ، لأنهم مسلمون لا يحل منهم سبي أو غنم . فمل الناس القتال ، وسئموا هذه الحروب التى لا مطمع فيها . ونهى عن شتم معاوية وشيعته ، ضاربا صفحاً عن آثار ذلك فى الدعوة السياسية . ولم يقبل نصيحة المغيرة فى إقرار معاوية وعمال عثمان على أعمالهم ، حتى تأتى بيعتهم . وكان شديد التزمت فى أمور الدين ، مدققاً فى تحرى العدالة ، وفى توزيع الأموال والصدقات ، قليل الاهتمام بالشعر وإغراء الشعراء بالمال ، حتى لقد جلد شاعره النجاشى ، حين رفع إليه وقد أفطر فى رمضان مع صاحب له ، وشربا حتى علا صوتهما ، فجلده سبعة وثمانين سوطاً — وحد

الشارب ثمانين — فقال النجاشى : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ فقال : هذا لجرأتك على الله فى شهر رمضان . فهجا النجاشى أهل الكوفة قائلا [١] :

إذا سقى الله أرضاً صَوْبَ غادِيةٍ   فلا سقى الله أرضَ الكوفةِ المطرا
التاركين على طُهْرٍ نساءَهم   والناكحين بشَطَّىْ دِجلةَ البَقَرا
والسارقين إذا ما جَنَّ ليلُهُمُ   والتالِيِينَ إذا ما أصبحوا السُّوَرا

أما معاوية . فقد مرن على السياسة فى هذه الحقبة الطويلة التى ولى فيها أمر الشام ، وأعانه على ذلك أنهم أهل طاعة ، قديمو العهد بالنظام والملك . وقد استطاع بحلمه وسعة صدره ونعومة مكره ، أن يكسب حبهم وإعجابهم . وكان مع هذا داهية عارفا بالرجال ، يحسن اختيار بطانته ، ويعرف أين يضع ثقته . وكان بعد هذا مرنا ، لا يأخذ جانب الدين كله ، ولا يميل عنه دفعة ، ولكنه يتوسط بين الدين والدنيا ، يأخذ بأحسنهما ، ويكمل أحدهما بالآخر. وقد علم منذ اللحظة الأولى ، أن هذه الدولة الناشئة ، لا تصلح إلا بالملك ، الذى يكفل لها الاستقرار والثبات ، ويكفيها شر هذه المحن والثورات ، التى تتعرض لها فيما يقع بين الناس من خلاف عند موت كل خليفة . فبايع لابنه يزيد ، وعنى بوضع أركان حزب سياسى ، قوامه الشعراء. يغدق عليهم العطاء ، وتألف قلوب أعدائه من أصحاب النفوذ . ولم يتورع عن لعن على من فوق المنابر ، إقراراً لبغضه فى قلوب الناس . وأحسن اختيار ولاته من أصحاب الحزم ، ثم أطلق يدهم فى أقاليمهم ، إلا فيما يمس السياسة العامة . ثم أوجد نظام البريد ، ليسهل الاتصال بينه وبين عماله . وأوجد ديوان الخاتم ، ليكون سجلا لتوقيعات الخليفة التى يبعثها إلى الأقاليم . واتخذ الحجاب والحرس ، لأن من فى مثل مكانه ، لا يأمن أن يكون بين رعاياه موتور متهوس ، ينتهز

---

(١) خزانة الادب ٤ : ٥٧

منه غرة فيقتله. كل هذه السجايا. جعلت معاوية خليقاً بما وصفه به ابن عباس حين قال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك.

ولكن هذا الاستقرار لم يطل عهده بعد معاوية ، فقد كان من سوء حظ الناس : أن جاء بعد يزيد ابنه معاوية الثانى وكان ضعيفاً زاهداً ، فأبى أن يستخلف ، وترك أمر الناس فوضى ، فثارت الفتنة من جديد ، وكثر المطالبون بالملك والخارجون فى كل مكان ، من زبيرية وشيعة وخوارج.

وتفرقوا شِيَعاً فكلُّ مدينة   فيها أمير المؤمنين ومِنْبَرُ

واحتكم الناس إلى السيف من جديد وأصبح الملك للغالب ، كما يقول كعب بن جعيل التغلبي.

أصبحت الأمة فى أمر عجب   والمُلْكُ مجموعٌ غداً لمن غلب

فقلتُ قولاً صادقا غيرَ كذِبْ   إنّ غداً تَهلِك أعلامُ العرب

وأسرف الناس فى القتل وفى إراقة الدماء ، حتى ملوا الحرب ، ورأو أنهم إنما يقاتلون من أجل قريش ، كما تقول هذه المرأة الثكلى ، التى فقدت أولادها الثلاثة فى صفين(١).

أعينَيَّ جودا بدمعٍ سَرِبْ   على فتيةٍ من خيار العرب

وما ضرَّهم غيرُ جنْى النفوس   بأى امرىء من قريشٍ غَلَب

وكما يقول الشاعر الطائى :

وإن امرءًا يعطى الأسنَّة نحره   وراء قريشٍ لا أعُدُّ له عقلا

يذمون لى الدنيا وقد ذَهَبوا بها   فما تركوا فيها لمُلْتَمِسٍ ثُعْلا

ثم يقرر السيف للمرة الثانية ، أن بنى أمية هم أولى الناس بالملك ، فيستقر لهم الأمر على نظام ملكى ثابت الأركان ، وطيد الدعائم.

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠

كان لهاتين الثورتين الكبيرتين آثار خطيرة فى التفكير العربى ، لاتخلو من خير . فقد صحبتهما حركة فكريه عنيفة ، لا تضارعها إلا هذه الحركة التى صحبت ظهور الإسلام . وللمرة الأولى بدأ الناس يناقشون نظام الحكم ، وأتيح لهم أن يروا ألوانا مختلفة من البرامج السياسية ، يعرضها عليهم المرشحون للحكم ، كل منهم يحاول استمالتهم إلى جانبه . وبدأت العصبيات الجاهلية القديمة تتخذ صورة حزبية مهذبة ، تقوم على نظريات سياسية واضحة محددة . فأتباع بنى أمية فى الشام — ومعظمهم من اليمنية، الذين أصهر معاوية إلى قبيلة كبيرة منهم هى قبيله كلب — يقرون النظام الملكى الجديد ، الذى يقوم على التوريث ، وتأخذ فيه البيعة شكلا صورياً . وأتباع ابن الزبير فى الحجاز متمسكون بالنظام الجمهورى القديم ، الذى يقوم على الانتخاب ، ولكنهم يحصرون حق الخلافة فى قريش . والشيعة يرون فى الخلافة أو الإمامة كما يسمونها شيئا من القداسة التى لا تكتسب اكتسابا ، ولكنها تورث توريثا ، فهناك دم ملكى مقدس ، ورث هذه القداسة عن النبى ، وهم وحدهم أصحاب الحق فى الملك، وحقهم فى ذلك ثابت من عند الله ، ليس للناس فيه رأى أو خيار . والخوارج يمثلون التفكير الديمقراطى المتطرف ، فهم لا يرون الخلافة حقا لقريش أو لفرع معين منها ، بل لا يرونها حقا للعرب مقصوراً عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم . فالخلافة عندهم تصلح فى أفناء الناس كلهم ، من كان منهم قائما بالكتاب والسنة عالما بهما ، ثم هم بعد ذلك يخالفون بقية الأحزاب ، فى حق سحب الثقة من الإمام الجائر ، فالخلافة عندهم ليست بالحق الذى يوهب مدى الحياة ، وهناك فرقة من الخوارج هم النجدية ، يمثلون الفوضوية اللا حكومية ، فهم يرون أن الناس يستطيعون أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وأن ينظموا أمورهم ، من غير حاجة إلى إمام .

وقد كان للعصبيات الجاهلية أثر واضح فى نشأة الأحزاب الجديدة وتكوينها ، فحروب العراق والشام ليست إلا امتداد للنزاع القديم بين المناذرة

والغساسنة من ناحية ، وبين النزارية والقحطانية من ناحية أخرى . شاءت الظروف أن يكون جند معاوية يمنيين ، لأنهم معظم أهل الشام ، فلم يكن لأهل العراق بد — ومعظمهم نزارية — من أن يكونوا جند المعارضة . وانساق اليمنيون منهم مع جمهور الناس متأثرين بعصبية الأقليم ؛ ولكنهم ظلوا متمسكين بعصبيتهم اليمنية لا ينسونها . فالأشعث بن قيس لا يرشح فى التحكيم بين على ومعاوية إلا أباموسى الأشعرى : فإذا اعترض علىّ عليه ورشح ابن عباس ، قال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضرى[١]. ثم هو يثبط الناس عن على ، حين طلب إليهم أن يمضوا لقتال معاوية فى الشام ، بعد أن هزموا الخوارج ، قائلا : قد كلت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن منها[٢]. والعداء بين الأمويين وبين الأنصار — مع أنهم يمنية — ليس إلا أثراً من آثار العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة ، التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت أبو سفيان بن حرب .

ولم تنته هذه العصبيات بانتهاء الفتن واستقرار الأمور ، فقد ظل الأمويون على كرههم للقيسية وأهل العراق . دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان فقال : زبيرى ! والله لا يحبك قلبى أبداً . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب النساء . ولكن عدل وإنصاف[٣] ودخل مسكين الدارمى على معاوية ، وسأله أن يفرض له ، فأبى — وكان لا يفرض إلا لليمن[٤]. فاليمنية لم يقاتلوا مع معاوية ، ثم مع مروان ، إلا بعد أن اشترطوا عليهما شروطاً . يقول المسعودى : واشترط حسان بن مالك — وكان رئيس قحطان وسيدها فى الشام — على مروان ، ماكان لهم من الشروط على معاوية وابنه

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٨

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨

(٣) العقد الفريد ٤ : ١١٤

(٤) خزانة الأدب ٢ : ٢٥٥

يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها أن يفرض لهم لألفى رجل ألفين ألفين ، وإن مات قام ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم والنهى وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد ، فعن رأى منهم ومشورة . فرضى مروان بذلك وانقاد إليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكرى : إنه ليست لك فى أعناقنا بيعة . وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى ، فوالله ماقريش عندنا إلا سواء[1]. وظل الأمويون على بغضهم للأنصار ، ولكنهم كانوا يصانعونهم ويدارونهم . لسابق صنيعهم فى الإسلام ، ولوصية رسول الله . دخل قيس بن سعد بن عبادة على معاوية بعد وفاة على ووقوع الصلح ، فى جماعة من الأنصار . فقال لهم : يامعشر الأنصار . بم تطلبون ماقبلى ، فو الله لقد كنتم قليلا معى كثيراً على ، ولقد فللتم حدى يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تتلظى فى أسنتكم ، وهجوتمونى فى أسلافى بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ماحاولتم ميله قلتم : ارع وصية رسول الله ! هيهات ، يأبى الحقير الغدرة[2]. وحضرت الوفود بباب معاوية ، فاستأذن لهم حاجبه وقال : الأنصار بالباب ، وكان عمرو بن العاص حاضراً فغاظه هذا اللقب ، فقال لمعاوية ماهذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم إلى أنسابهم . وخرج الحاجب فقال : من كان هنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فلم يدخل الأنصار ، ثم خرج فقال : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير ، وهو يقول :

يا سعدُ لا تُجِب الدُّعاء فما لنا   نَسَبٌ نُجِيبُ به سوى الأنصار
نسبٌ تخَيَّرَهُ الإلهُ لقومِنا   أَثْقِلْ به نَسَبًا على الكفار
إن الذين ثَوَوا ببدرٍ منكم   يومَ القَلِيبِ هُمُ وقودُ النار

---

(١) مروج الذهب ٢ : ١٠٦

(٢) مروج الذهب ٢ : ٦٣

فنظر معاوية لعمرو قائلا : إن كنا لأغنياء عن هذا [١] .

هذه العصبيات القديمه التى انتهت إلى الصورة الحزبية الناضجة التى قدمناها ، قد أوجدت فى العصر الأموى معارضه قوية فعالة ، تخشى الحكومة بأسها ، فتأخذها باللين تارة ، حريصة على إرضائها ، وتأخذها بالعنف أخرى حين لا يكون بد من العنف . وكان موطن هذه المعارضة فى الغالب هو العراق ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ، منها بعده عن مركز السلطان ، فالخارج على الحكومة ، يستطيع أن يجد له مهرباً إلى الشرق أو إلى الصحراء إذا انهزم ، فهو فى مكانه هذا أبعد عن يد السلطان . وآمن على سلامته . لذلك اضطرب العراق بالثورات والحروب طوال العصر الأموى . ولم يعرف الاستقرار . إلا بعد إنتقال عاصمة الملك إليه ، بقيام الدولة العباسية . وقد أعان على هذا الاضطراب تباين البيئات فيه ، واختلاف المذاهب والآراء ، من زبيرية وخوارج وشيعة . فهو مثابة الثائرين ، ومعقل الخارجين . وملجأ الهاربين . هذا والنازحون إلى العراق من البدو كثير . والجفاء وحب الخلاف غالب على خلقهم . فهم ينفرون من قيود القانون ، ولا يحتكمون إلا إلى السيف ، لأن اقتصاص السلطان لا يشفى صدورهم . فهو عندهم من مظاهر العجز . وخير ما يصور ضيق هؤلاء البدو بالقانون والنظام ، قول شبيب بن عوانة الطائى :

قضى بيننا مروانُ أمِس قضيةً ... فما زادنا مروانُ إلا تنائيا

فلو كنتُ بالأرْض الفضاءِ لعِفتُها ... ولكن أَتَتْ أبوابُه من ورائيا

والبدوى لا يعتقد أن للسلطان حقاً فيما يستمتع به من سلطات . ولا يراه

---

(١) الأغانى ١٤ : ١٢٥

إلا مغتصباً قد أكل أموال الناس . وراح يتصرف فيها على حسب ميله وهواه . يقول عتبة الأسدى [١] :

معاوِىَ إننـا بَشَرٌ فأَسْجِـحْ　　فلسنا بالجِبـال ولا الحديد [٢]
أكلتُم أرضنا وجَذَذْتُمونا　　فهل من قائِم أو من حَصِيد
فهَبْنا أمةً هلكَتْ ضَيَاعاً　　يزيدُ أميرُها وأبو يزيد
أتطمعُ بالخلود إذا هلكنا　　وليس لنا ولا لك من خُلُود
ذَرُوا خَوَلَ الخلافة واستقيموا　　وتأمينَ الأراذِلِ والعبيد [٣]

(١) العقد الفريد ٦ : ١٦٨
(٢) السجح بضمتين والسجيج اللين السهل .
(٣) الخول محركة ما أنعم الله على الرجل من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، يستعمل للواحد وللجمع وللمذكر والمؤنث .

الهجـــــاء السياسى

كان الهجاء السياسى من أظهر فنون الشعر فى العصر الأموى : فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر فى نفوس الناس ، فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء . ولم يجدوا حرجا من أن يتألفوا قلوب أصحاب النفوذ والجاه بالمال والعطاء ، وكان لهم فى رسول الله أسوة حسنة بما فعل من تشجيع الشعر ، وتألف الناس بالمال ، فى سبيل نشر الدعوة وإقرارها . ولازم هذه الحركات العنيفة والحروب المضطربة شعر كثير مضطرب عنيف يؤيد الطامعين فى الحكم والمحاربين فى سبيله ، ويهاجم خصومهم وأعداءهم . وبذلك عاد الشعراء مرة ثانية للظهور ، بعد أن اختفى أثرهم وخفت صوتهم منذ وفاة النبى . عادوا يحتلون من الحياة السياسية مكاناً ممتازاً ، ويشرفون على توجيه الرأى العام ، بما يذيعون من شعر ، فى تأييد أحزابهم ومعارضة أعدائهم ومنافسيهم . وحرص القادة والزعماء والمطالبون بالملك عليهم . فاصبح الشعر — كما كان فى الجاهلية — نظير الرمح وقرينة . وشطر عدة المحارب وروح دعوته . وصحبوهم فى حربهم ، كما فعل عبد الرحمن ابن الأشعث ، حين خرج من سجستان مقبلا إلى العراق، وبين يديه أعشى همدان ، قد تقدم الجيش على فرسه يرتجز : (١)

شطت نوى مَن دارُهُ بالإِيوان ... إيوانِ كسرى ذى القرى والرَّيْحان

فالبَنْدُنيجَينِ إلى طَرْدَاسْتَان ... فالجِسْرِ فالكوفةِ فالغَرِيّان

مِن عاشقٍ أضحى بزابُلِسْتان ... إنّ ثقيفاً منهم الكذابان

كذابُها الماضى وكذابٌ ثان ... أمكنَ ربى من ثَقِيفٍ هَمْدان (٢)

---

(١) الطبرى ٥ : ٤٧ وديوانه ٣٤١

(٢) الكذاب الأول هو المختار بن عبيد الثقفى ويقصد بالكذاب الثانى الحجاج بن يوسف الثقفى .

إنا سَمَونا للكَفُور الفتَّان يوماً إلى الليل يُسَلِّ ما كان

بالسيد الغِطْرِيف عبدِ الرحمن حين طغَى فى الكُفْرِ بعد الإِيمان

ومن مَعْدٍ قد أتى ابنِ عدنان (١) سار بِجَمْعٍ كالدَّبَى من قحْطان

فقل لحجَّاجٍ ولىِّ الشيطان (٢) بجَحْفَلٍ جَمٍ شديدِ الإِرنان

والحىِّ من بكرٍ وقَيْسِ عيلان يثبُتُ لجمعِ مذحِجٍ وهَمْدان

ومُلْحِقُوه بقرى ابن مروان (٣) فإِنهم ساقوه كأس الذَّيْفان

واعتمد الزعماء على الشعراء فى إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع ، يمهدون لها بالشعر ليتحسسوا رأى الناس ، ومدى استعدادهم لقبولها ، قبل أن يفجئوهم بها ، كما فعل معاوية ، حين هم أن يباع لابنه يزيد ، مستحدثا بذلك سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمى أن يتكلم فى ذلك فقال : (٤)

ومروان أم ماذا يقول سَعِيد ألا ليتَ شِعْرى ما يقول ابنُ عامر

يبوِّئُها الرحمنُ حيثُ يريد بَنِى خلفاءِ الله مهلاً فإِنما

فإِن أميرَ المؤمنين يزيد إذا المِنْبَرُ الغربِىُّ خَلاَّهُ ربُّه

وحرضوهم على هجاء معارضيهم : عاملين على إذاعة هجائهم فى المجامع والمحافل ، كما فعل عبدالملك بن مروان بأبى العباس الأعمى ، حين حج فطاب إليه أن ينشده هجاء ابن الزبير على ملأ من الناس ، يقصد بذلك إلى التأثير فيهم ، وهو يعلم أن الحجاز معقل صحبه وأتباعه ، ومنشأ المعارضة القويه للحكم

(١) الدبى أصغر الجراد والنمل ، يريد كثرة هذا الجيش ، كما نقول نحن اليوم فى تشبيهنا العامى عددهم كثير كالنمل .

(٢) الأرنان الصياح والماضى رن وأرن صاح .

(٣) الذيفان السم القاتل . ملحقوه بقرى ابن مروان يعنى الشام حيث يقيم الخليفة عبدالملك بن مروان.

(٤) الأغانى ١٨ : ٧١

الأموى . قال صاحب الأغانى : حج عبدالملك بن مروان ، فجلس للناس بمكة فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس الأعمى ، فلما رآه عبدالملك قال ، مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرنى بخبر الملحد المحل . حيث كسا أشاعه ولم يكسك ، وأنشدنى ما قلت فى ذلك . فأخبره بخبر ابن الزبير ، وأنه كسا بنى أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات : (١)

بنى أسد لا تذكروا الفخرَ بينكم ... متى تذكروه تكذِبوا وتُحَمَّقوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم ... وشركم يغدو عليه ويَطرُق (٢)
متى تُسْأَلوا فضلاً تضِنُّوا وتبخلوا ... ونيرانكم بالشر فيها تَحَرَّق
إذا استَبَقَتْ يوماً قريش وُجِدْتُم ... بنى أسد سُكْتاً وذو المجد يسبق (٣)
تجيئون خَلفَ القوم سُوداً وجوهكم ... إذا ماقُريشٌ للأضامِيم أصفَقُوا (٤)
وما ذاك إلا أن للُّؤْم طابعاً ... يَلُوح عليكم وَسْمُه ليس يَخلُقُ

فقال عبد الملك ، أقسم على كل من حضر من بنى أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائى وشيعتى على دعوتهم ، إلا كسا أبا العباس .

وبذلك أصبحت السياسة والحزبية حرفة يتكسب منها الشعراء . وهذا هو أعشى همدان ، يذكر ابن الأشعث ببلائه وصبره معه فى الشدة ، ويطالبه بثمن شعره وولائه . فى قصيدة طويلة منها : (٥)

---

(١) الأغانى ٥ : ٦٢

(٢) الطرق والطروق الاتيان بالليل ، والغدو ضد الرواح ، والغدوة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، بعيدات بين خيركم كذلك هى بالأصل ولعله محرف .

(٣) سكت جمع سكيت يوزن كميت وقد تشدد الكاف وهو آخر خيل الحلبة .

(٤) الضمة الحلبة فى الرهان والجمع أضاميم وهى جماعات الخيل . أصفقوا اجتمعوا . وأصفق القوم على الشىء أطبقوا عليه .

(٥) ديوان أعشى قيس والأعشون الآخرون ص ٣٢٤ .

كم قد أسدى لك من مدحة   تُروَى مع الصادِرِ والوارد
وكم أجبنا لك من دعوة   فاعرِفْ فما العارِفُ كالجامِدِ
مالك لا تُعطى وأنت امرؤ   مُثْرٍ من الطارف والتالد
تَجْبِي سِجِسْتانَ وما حولها   مُتَّكِئاً فى عيشك الراغد
لا ترهبُ الدهرَ وأيامها   وتَجْرُدُ الأرضَ مع الجارد
إن يكُ مكروهٌ تَهِجْنا له   وأنت فى المعروف كالراقد
ثم ترى أنا سنرض بذا   كلا وربِّ الراكع الساجد
وحُرْمةِ البيتِ وأستاره   ومَن به من ناسك عابد
ما أنا إن هاجك مِن بعدها   كهَيْجٌ بآتيك ولا كابد
ولا إذا ناطوك فى حلقة   بحامِلٍ عنكَ ولا ناقد
فأعط ما أعطيتَه طيِّباً   لا خير فى المَنْكود والناكد (١)
وأنجِزِ الوعد إذا قلتَه   ليس الذى يُنجِزُ كالواعد

وقد أعان التشجيع من جانب الخلفاء والزعماء ، والطمع من جانب الشعراء ، على استحفال الهجاء السياسى ، فاستطار شره بين الناس ، حتى أصبحوا يجتمعون لذلك فيُنشدون أهاجيهم ، ولا يفترقون إلا بعد قتال ، كما كان يفعل سديف (١) مولى بنى هاشم وشبيب مولى بنى أمية . قال أبو الفرج فى أخبار سديف : شاعر مقل من شعراء الحجاز . ومن مخضرمى الدولتين . وكان شديد التعصب لبنى هاشم ، مظهراً لذلك أيام بنى أمية . وكان يخرج إلى صحار صغار فى ظاهر مكة ، يقال لها صفار الشراب (٢) ويخرج مولى لبنى

(١) نكد فلان فلانا منعه ما سأله أو لم يعطه لا أقلة .
(٢) الأغانى ٤ : ٦٢
(٣) كذا بالنص . وفى الأغانى ٩ : ٧٥ ط . دار الكتب صفا السباب وهو أصح .

أمية معه يقال له سباب [١] . فيتشاتمان ويذكران المثالب والمعايب . ويخرج معهما من سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا. فلا يبرحون حتى يكون الجراح والشجاج ، ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ويعاقب الجناة . فلم تزل العصبية بهم . حتى شاعت فى العامة والسفلة . وكانو صنفين ، يقال لهم السديفية والسبابية [٢] . وقال فى موضع آخر [٣]، فى قول الشاعر :

سكنوا الجزع جِزْعَ بيت أبى مو — سى إلى النخل من صفى السباب

(وصفى السباب بفتح الفاء وكسرها جميعاً . وهو شعب من شعاب مكة ، فيها صفاً أى صخر مطروح ، وكانت قريش تخرج فتقف على ذلك الموضع ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ، وذلك فى الجاهلية ، فلا يفترقون إلا عن قتال . ثم صار ذلك فى صدر من الأسلام أيضاً ، حتى نشأ سديف ، مولى عتبة بن أبى سديف ، وشبيب مولى بنى أمية ، فكان هذا يخرج فى موالى بنى هاشم ، وهذا فى موالى بنى أمية ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجادلون بالسيوف . وكان يقال لهم السديفية والشبيبية . وكان أهل مكة مقتسمين بينهما فى العصبية).

بل لقد غرى الناس بالهجاء . حتى أصبح بدعا فى ذلك الوقت . وصاروا يتهاجون لغير خصومة ، كلفا باللجاج والمراء . جاء البردخت إلى جرير ، فقال: تهاجينى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال أنا البردخت . قال : وما البردخت ؟ قال : الفارغ بالفارسية . قال : ما كنت لأشغل نفسى بفراغك [٤] . ورحل قوم إلى عدى بن الرقاع ليهاجوه ، فتقدمت إليهم بنته فقالت :

تجمَّعْتم من كل أوبٍ ومنزل — على واحدٍ لازلتُم قِرْنَ واحد

---

(١) كذا بالنص . وهو شبيب . الأغانى ٩ : ٧٦ ط . دار الكتب

(٢) كذا بالنص والصواب الشبيبية .

(٣) الأغانى ٩ : ١٧٥

(٤) الشعر والشعراء ٢٧٣

فانصرفوا عنه ولم يهاجوه [١] . وكان المغيرة بن حبناء يهاجى أخاه صخر ابن حبناء ، ولهما قصائد يتناقضانها كثيرة . [٢] وكان ابن ميادة متعرضاً للشر، طالباً لمهاجاه الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول:

اعرنزمى ميَّادُ للقوافى   واستمعين ولا تخافى
ستجدين ابنك ذا قذاف [٣]

ولا نكاد نعرف فى هذا العصر شاعراً مشهوراً ، إلا قد أخذ من الهجاء بنصيب . يقول ابن قتيبة فى أخبار ذى الرمة : وإنما وضعه عندهم ، أنه كان لا يجيد المدح ولا الهجاء [٤] .

واحتل المربد فى العراق — موطن الفتن والاضطرابات والهجاء فى العصر الأموى — مكان عكاظ من الحجاز فى الجاهلية ، فصار مجمع الناس فى خصوماتهم الخاصة ، وفى محافلهم السياسية العامة . يقول ابن عبد ربه قدم طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة ، فتلقاهم الناس بأعلى المربد ، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان . فتكلم طلحة ، وتكلمت عائشة ، وكثر اللغط . فجعل طلحة يقول : أيها الناس أنصتوا . وجعلوا يرهجون ولا ينصتون . فقال — أف ! أف ! فراش نار وذباب طمع ! [٥] وفى المربد كانت تنشد نقائض جرير والفرزدق . وكان لكل منهما حلقة معروفة ومكان معين يجتمع فيه بأصحابه . قال أبوفرج : وكان لراعى الأبل والفرزدق وجلسائهما حلقة معروفة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها . ثم أصبح (جرير) ، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم

---

(١) الشعر والشعراء ٢٣٧
(٢) الأغانى ١١ : ١٦٢
(٣) الأغانى ٢ : ٢٦٣ ، الشعر والشعراء ٢٩٨
(٤) الشعر والشعراء ٢١٠
(٥) العقد الفريد ٥ : ٧١

بالمربد — وكان جرير يعرف مجلس الراعى ومجلس الفرزدق — فدعا بدهن فادهن وأصلح وجهه ،حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلم ، ثم قال: ياغلام قل لعبيد الراعى أبعثك نسوتك تكسبهم المال بالعراق ؟ والذى نفس جرير بيده لتؤوبن إليهن بمير يسوؤهن ولا يسرهن . ثم اندفع فى القصيدة (وهى التى يقول فيها بيته المشهور : فغض الطرف إنك من نمير) فنكس الفرزدق رأسه ، وأطرق الراعى (١) . وفى المربد تهاجى النابغة الجعدى وأوس بن مغراء ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ، وكلهم شارك فى المهاجاه يعين صاحبه بشعره . (٢) وكثيراً ما كانت تنتهى المهاجاه بالقتال كما يروى صاحب الأغانى فى خبر جرير والفرزدق. يقول : ولما تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء ، اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع ، فأمدت بنو العم بنى مجاشع، وجاؤوهم فى أيديهم الخشب ، فطردوا بنى يربوع ، فقال جرير: من هؤلاء ؟ قالوا : بنوالعم . فقال جرير :

ما للفرزدق من عز يلوذ به ... إلا بنى العم فى أيديهم الخشب (٣)

وربما أنشد فيه الشعراء شعرهم فى غير الهجاء ، وقد خرجوا على الناس فى أحسن لباسهم وأبهى زينتهم ،كما يروى أبو الفرج فى وقوف ذى الرمة بالمربد ، وقد اجتمع عليه الناس ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو ينشد ودموعة تجرى على لحيتهُ :

ما بالُ عينِك منها الماء ينسكب ... كأنه من كُلَىً مفريَّةٍ سَرِبُ (٤)

وقد اختلفت صور الهجاء السياسى فى ذلك العصر وتعددت مذاهبه ، فمضى بعضه على الأسلوب الجاهلى الذى يقوم على العصبية القبلية . واتجه

(١) الأغانى ٢٠ : ١٦٩
(٣) الأغانى ٥ : ١٢
(٣) الأغانى ٣ : ٢٥٧
(٤) الأغانى ١٦ : ١٢٣

بعضه إلى مهاجمة أصحاب الدعوة والمحاربين فى سبيل الملك ، وإنكار حقهم فى ذلك ، وتتبع سقطاتهم ، والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم . وانصب بعضه الآخر على الولاة ، مهاجما سياستهم البعيدة عن العدل والانصاف ، والمخالفة لما ألف الناس من عادات . وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء القرشيين ، الذين امتلأت نفوسهم بالطمع ، فجروا على الناس هذه الويلات ، التى لا تعود عليهم بغير الشر والفناء .

أما شعر العصبية فهو جاهلى فى روحه وخصائصه ، لم يتأثر بالمثل الإسلامية الجديدة فى قليل أو كثير ، فهو امتداد لشعر الحروب التى كانت تقع بين القبائل فى الجاهلية . فالقيسى لا يحس أنه يقاتل من أجل ابن الزبير ، وليس الذى يدفعه للقتال عداوة للأمويين ، ولكنه يحارب هذه القبائل اليمنية ، التى عادت للظهور بعد أن أخملها الإسلام ، وقضى على مجدها الجاهلى القديم . واليمنية — ومعظمهم من الشام — يقاتلون فى سبيل الظهور إلى الحياة ، واستعادة سلطانهم السياسى ، وإقرار الملك فى الشام بعد أن أزاله الإسلام ونقله إلى الحجاز ، والأمويون عندهم مطية لتحقيق أغراضهم ، وسبب لما يحاولون من السيادة والملك . والدارس لهذا اللون من ألوان الهجاء السياسى ، يرى أن القيسى عميق الشعور بمضريته ، واليمنى عميق الشعور بيمنيته . فالقيسى لا يحس أنه تابع لابن الزبير ، ولكنه قيسى قبل كل شىء وبعد كل شىء . واليمنى لا يحس أنه من جند معاوية أو مروان ، ولكنه يمنى أولا وآخرا . فالفريقان كلاهما لم يكونا مدفوعين إلى القتال بفكرة سياسية حول نظام الملك أى أنواعه أصلح ، وأيها أدنى لتحقيق العدالة وإقامة الإسلام ، ولكنهما كانا مدفوعين إليه بالعصبيات الجاهلية والثارات القديمة ، ولم تكن هذه الفتنة الإسلامية الجديدة إلا منفذاً أو ثغرة لهذه الحزازات ، التى تلمست طريقها إلى الوجود عن طريق هؤلاء الزعماء الذين يتقاتلون على الحكم .

يقول زفر بن الحارث الكلابى فى مرج راهط [١] :

أرينى سلاحى لا أبالك إننى أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه مُقِيدٌ دمى أو قاطعٌ من لسانيا
ففى العِيس مَنجاةٌ وفى الأرض مَهْرَبٌ إذا نحن رفَّعْنا لهن المَثَانِيَا [٢]
فلا تحسبونى إن تغَيَّبْتُ غافلا ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبُتُ المَرعى على دِمَن الثرى وتَبقَى حزازاتُ النفوس كما هيا [٣]
أتذهب كلْبٌ لم تنلْهَا رماحنا وتُترَكُ قتلى راهطٍ هى ما هيا [٤]
لعَمْرى لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ لحسَّانَ صَدعاً بيِّنـا متنائيا
أمن بَعْدِ عمروٍ وابن معنٍ تتابعا ومَقْتَل همَّامٍ أُمَنِّى الأمانيا [٥]
فلم تُرَ منِّى نبوةٌ قبل هذه فرارى وتركى صاحِبَىَّ ورائيا
عشية أعدُو بالقران فلا أرى من الناس إلا مَنْ عَلَىَّ ولاليا
أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأتُه بصالح أيامِى وحُسْنِ بَلائيا

(١) الطبرى ٤ : ٤١٨ ، ابن الأثير ٣ : ٣٢٩

(٢) المثانى معاطف الوادى ، وركبتا الدابة ومرفقاها والمعنى يصلح بكليهما .

(٣) الدمن أرواث البهائم المتلبدة والأبعار . يقول إن الحقد الدفين يظل كامنا فى النفس وإن سترته مظاهر البشاشة كما أن المراعى الخضر الزاهية تنبت فوق الدمن فتخفيها عن الأعين ولـكنها باقية كما هى .

(٤) كلب قبيلة يمينة تسكن بادية الشام أصهر إليهم معاوية ، منهم أم ولده يزيد . وقد كانوا منذ ذلك الوقت عصبية أموية . قتلى راهط يقصد وقعة مرج راهط وهى من المواقع العظيمة الحاسمة كانت بين الزبيرية بقيادة الضحاك بن قيس و بين الأمويين يقودهم مروان بن الحكم . وقد كان جند مروان فى هذه الموقعة من اليمنية (كلب وغسان والكاسك والسكون) وكان جند الضحاك من قيس عيلان . وقد قتل من القيسية فى هذه الموقعة عدد ضخم .

(٥) هؤلاء قيسية قتلوا فى مرج راهط .

فلا صُلْحَ حتى تنْحِطَ الخيلُ بالقنا … وتثأر من نسوان كلْبٍ نسائيا
ألا ليت شعرى هل تُصيبنَّ غارتى … تَنُوخاً وحيى طىء من شفائيا (١)

فيجيبه جواس بن قعطل :

لعمرى لقد أبقتْ وقيعة راهطٍ … على زُفرٍ داءً من الداءِ باقيا
مقيماً ثوى بين الضلوع محلُّه … وبين الحشا أعيى الطبيب المداويا
تُبَكِّي على قتلى سُلَيمٍ وعامرٍ … وذبيان معذورا وتُبكى البواكيا (٢)
دَعَى بسلاح ثم أحجم إذ رأى … سيوف جَنابٍ والطوال المَذاكيا
عليها كأُسْد الغاب فتيانُ نجدةٍ … إذا شرعوا نحو الطِّعان العواليا

ويجيبه عمرو بن مخلاة الكلبي :

بكى زفرُ القيسيُّ من هُلْك قومه … بعَبْرة عين ما يجفُّ سُجُومها
يُبَكِّي على قَتْلَى أُصيبتْ براهط … تُجاوِبُه هام القِفار وبُومُها
أبحنا حِمَى للحيِّ قيس براهط … وولَّتْ شِلالاً واستُبيحَ حريمُها
يُبَكِّيهِمُ حرَّانَ تجرى دموعُه … يُرجِّي نزارا أن تثُوبَ حلومُها
فمُتْ كمداً أو عِشْ ذليلاً مُهضَّماً … بحسرة نفسٍ لا تنامُ همومُها
إذا خطَرَتْ حولى قضاعةُ بالقنا … تخَبَّطُ فعلَ المُصعَبات قرومُها
خبَطْتُ بهم من كادَنى من قبيلةٍ … فمن ذا إذا عزَّ الخُطوبُ يرومُها

ويعز على زفر أن يقتل ابن الزبير وهو قرشي مضري ، بينما بحدل وابن بحدل — أخوال يزيد بن معاوية ينعمان بالحياة — وهما يمنيان فيقول :

---

(١) كلب وتنوخ وطىء قبائل يمنية اشتركت مع الأمويين فى مرج راهط .
(٢) سليم وعامر وذبيان قبائل من قيس عيلان .

أفى اللهِ أمّا بَحْدَلٌ وابن بَحْدَلٍ فيَحْيَا وأما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ
كذبتم وبَيْتِ الله لا تقتلُونَه ولمّا يكُنْ يومٌ أغَرٌّ مُحَجَّلُ
ولما يكُنْ للمَشرفيَّةِ فوقكم شُعاعٌ كَقرْن الشمس حين ترَجَّلُ

فيجيبه عبد الرحمن بن الحكم (أخو مروان) :

أتذهَبُ كلبٌ قد حَمَتْها رماحُنا وتُتْرَكُ قتلى راهطٍ ما أُجِنَّت
لحا اللهُ قيساً قيسَ عيْلانَ إنها أضاعَتْ ثغورَ المسلمين وولَّت
فباءِ بقيسٍ فى الرخاءِ ولا تَكُن أخاها إذا ما المَشْرَفيَّةِ سُلَّتِ

ومما يناسب هذا النوع شعر ابن بقيلة ، الذى قاله فى فتح خالد للعراق يتحسر على ما كان لليمنية من مجد فى الجاهلية ، وما صاروا إليه من دفع الجزية للخلفاء والحكام من مضر [١] .

أبعد المنذرَيْن أرى سَوَاماً ترَوَّحُ بالخورنق والسَّدِير [٢]
وبعد فوارس النُّعمان أرْعى قَلوصاً بين مُرّة والحفير
فصْرنَا بعد هُلْكِ أبى قُبَيْس كجُربِ المعْز فى اليوم المطير [٣]
تَقَسَّمُنا القبائلُ من مَعَدٍّ علانية كأَيْسَار الجزُور [٤]

---

(١) الطبرى ٢ : ٥٦٦

(٢) المنذان ملوك الحيرة هما المنذر بن النعمان الذى بنى الخورنق والمنذر بن ماء السماء . وماء السماء أمه كانت مشهورة بحسنها وجمالها وأبوه الأسود بن النعمان بن المنذر . الخورنق والسدير قصران مشهوران لملوك الحيرة .

(٣) أبو قبيس يقصد أبا قابوس النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى .

(٤) هو معد بن عدنان الجد الأكبر لعرب الشمال من ربيعة ومضر . ويقابله قحطان الجد الاكبر لعرب الجنوب من كهلان وحمير . وملوك الحيرة والشام من عرب الجنوب يقول الشاعر . بعد أن كان عرب الجنوب من القحطانية ملوك الناس أصبح عرب الشمال يملكون عليهم ويتقسمونهم بينهم كما يتقسم لاعبو الميسر الجزور . والجزور من الابل الناقة أو الجمل يطلق على الذكر والأنثى .

وكُنّا لا يُرامُ لنا حَرِيمٌ ... فنحن كغُرَّةِ الضَّرْعِ الفَخُورِ

نُؤَدِّى الخرجَ بعد خراج كِسْرى ... وخَرجٍ من قُرَيظَةَ والنَّضِيرِ

كذاك الدهرُ دولتُه سِجَالٌ ... فيومٌ من مَسَاءَةَ أو سُرُورِ

ومنه شعر النجاشى ، فى معارضة سياسة معاوية إزاء اليمنيين فى الحروب ، إذ كان يغزيهم فى البحر ويغزى تميما فى البر [١] :

ألا أيُّها الناسُ الذين تجمَّعوا ... بعَكّا أُناسٌ أنتم أم أباعِرُ

أُتترَكُ قيسٌ آمنين بدِارِهِم ... ونركبُ ظهرَ البَحْرِ والبحرُ زاخر ؟

فوالله ما أدرى و إنى لسائلٌ ... أهَمْدَانُ تَحْمِي ضَيْمَها أم يُحَامِرُ ؟

أم الشرف الأعلى من أولاد حِمْيَرَ ... بنو مالك أم تستمِرُّ المَرائِرُ [٢]

أأوصَى أبُوهُمْ بينهم أن تَوَاصَلُوا ... وأوصى أبوكم بينكم أن تَدَابَرُوا ؟

وهناك نوع جديد من هذا الهجاء العصبى لم يعرفه الجاهلون ، هو هجاء الإقليم . وهو يصور تعلق الناس بأوطانهم التى نزحوا إليها ، وشعورهم برابطة جديدة تجمعهم على اختلاف قبائلهم ، هى الإقليم . فالعربى الذى لم يعرف الاستقرار فى الجاهلية ، ولم تكن تحركه إلا العصبية للأفراد من قبيلته ، قد بدأ يحس بشىء من العطف نحو الأرض التى سكنها واستقر فيها وتعلق بها . ومن أمثلة هذا النوع ، هجاء أعشى همدان لأهل العراق ، فى تلونهم وإرصادهم الفتنة ونكوصهم فى الحروب :

أبَى اللهُ إلا أن يُتَمِّمَ نورَه ... ويُطفِئ نور الفاسقين فيُخْمَدا

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٢٥٥

(٢) همدان قبيلة يمنية . وحمير أحد فروع قحطان من عرب الجنوب ومالك هو مالك ابن حمير وهو جد لعدة قبائل منها كلب وعذرة ونهد وجرم وغيرهم . المرة بكسر الميم وتشديد الراء القوة . وأمر الحبل على البنـاء للمجهول شد فتله . استمر مريره واستمرت مريرته استحكم .

ويُظهرَ أهلَ الحقِّ فى كلِّ موطنٍ ... ويَعدِلَ وقعُ السيفِ من كان أصْيَدا (١)
ويُنزِلَ ذلاًّ بالعراق وأهلِه ... لما نقضوا العَهْدَ الوثيقَ المؤكَّدا
وما أحدَثُوا من بِدعةٍ وعظيمةٍ ... من القول لم تَصْعد إلى الله مَصْعَدا
وما نكثوا من بَيْعة بعد بَيْعَةٍ ... إذا ضَمِنُوها اليومَ خَاسُوا بها غَدا
وجُبْنًا حشاه ربُّهم فى قُلُوبِهم ... فما يَقْرَبُون الناسَ إلا تَهدُّدوا
فلا صدقَ فى قولٍ ولاصبرَ عندهم ... ولكنَّ فَخْراً فيهم وتَزَيُّدا
فكيف رأيتَ الله فرَّقَ جَمْعَهم ... ومَزَّقهم عَرْضَ البلادِ وشَرَّدا
فقَتْلَاهُمُ قتلى ضلالٍ وفتنةٍ ... وحيُّهُمُ أمسى ذليلاً مُطَرَّدا

ومنه هجاؤه لأهل البصرة مفتخراً عليهم بيوم الجمل :

أكسع البَصْرِىَّ إن لاقَيْتَه ... إنما يُكْسَعُ من قَلَّ وذَلّْ (٢)
واجعل الكوفىَّ فى الخَيْل ولا ... تجعل البَصْرِىَّ إلا فى النَفَلْ (٣)
أفخَرْتُم أن قَتَلْتُم أعبُداً ... وهَزَمتُم مرةً آل عَزَلْ
نحنُ سُقْناهُمْ إليكم عَنْوَةً ... وجمعنا أمركُمْ بعدَ فَشَلْ
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكُمْ يوم الجَمَلْ
بين شيخٍ خاضبٍ عُثْنُونَه ... وفتى أبيض وضَّاحٍ رَفِلْ (٤)

---

(١) الصيد محركة بفتح الصاد داء بالعنق لايستطيع أن يلتفت معه . والمقصود به هنا الكبر .

(٢) كسعه مثل منعه ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) النفل محركة بالفتح الغنيمة وجمعها أنفال . يقول إن الكوفى يصلح للقتال أما البصرى فهو لايصلح إلا لاقتسام الغنائم .

(٤) العثنون بضم العين اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين . وإنما يخضب الرجل لحيته إذا شاب ليغطى بالخضاب شيبه . رفل مختال يتبختر .

جاءنا يَهْدِجُ فى سابغةٍ فذبحناه ضُحًى ذَبْحَ الجمل(١)
وعفونا فنسيتم عَفْوَنا وكفرتم نعمةَ الله الأَجَلّ
وقتلتم خَشَبيِّين بهم بَدَلاً من قَوْمِكُم شَرَّ بَدَل

ومنه هجاؤه لمكران — والظاهر أنه قد سار إليها غازياً على كره منه — وشعره هنا يصور إلى جانب النزعة الأقليمية ضيقاً بالغزو ، وبما يلقى الجند من عنت ، يجره الإيغال فى الفتوح . يقول الأعشى بعد تشبيب طويل يبلغ ستة وثلاثين بيتاً :

وَأنت تسير إلى مُكْرَانْ فقد شَحَطَ الوِرْدُ والمَصْدَر
ولم تك من حاجتى مكران ولا الغزوُ فيها ولا المَتْجَرُ
وخُبِّرْتُ عنها ولم آتها فما زلت من ذكرها أُذعَر
بأن الكثيرَ بها جائعٌ وأن القليلَ بها مُقْتِرْ
وأن لِحَيَ الناس من حرِّها تطولُ فتُجلَمَ أو تُضْفَرْ
وَيَزْعُمُ من جاءها قبلنا بأنا سنُسْهَمُ أو نُنْحَر
أعوذ بربى من المُخْزِيات فيما أُسِرُّ وما أجهَر
وحُدِّثتُ أنْ مالنا رَجعةٌ سنينَ ومن بعدها أشهر
إلى ذاك ما شاب أبناؤُنا وباد الأخِلاَّء والمَعْشَر
وما كان بى من نشاط لها وإنى لذو عُدَّةٍ مُوسر
ولكن بُعِثْتُ لها كارهاً وقيل انطلق للذى يُؤْمَر

(١) الهدجان والهداج بضم الهاء مشية الشيخ المرتعشة . سابغة درع سابغة تغطى سائر الجسم .

فكان النَّجاءُ ولم ألتفت إليهم وشرُّهُم منكَرٌ
هو السيفُ جُرِّد من غِمْده فليس عن السيف مُستأخَر
وكم من أخ لى مستأنِسٍ يظل به الدمع يَستعْبر
يُودِّعُنى وانتَحتْ عَبْرة له كالجداول أو أغزر
فلست بلاقيه من بعدها يَدَ الدهر ما هَبَّت الصَّرْصَر
وقد قيل إنَّكُمُ عابِرو ن بحراً لها لم يكن يُعْبَر
إلى السِّنْد والهِند من أرضهم هم الجنّ لكنهم أنْكَرُ
وما رام غزوا لها قبلنا أكابر عادٍ ولا حِمْيَرُ
ولا رام سابُورُ عزواً لها ولا الشيخُ كسرى ولا قَيْصَر
ومن دونها مَعْبَرٌ واسع وأجرٌ عظيمٌ لمن يُؤْجَرُ!

ومن الهجاء الذى تظهر فيه عصبية الإقليم، قول عدى بن زيد بن عدى ابن الرقاع العاملى، فى حرب مصعب بالعراق (١):

لعمرى لقد أصْحَرَتْ خيلُنا بأكناف دجلةَ للمُصْعَبِ (٢)
إذا ما مُنافقُ أهلِ العرا قِ عُوتب ثُمتَ لم يُعْتَب (٣)
دَلفْنا إليه بذِى تُدْرَءٍ قليلِ التَفَقُّد للغُيَّب (٤)
يَهُزون كلَّ طويل القنا ةِ ملتئِم النَّصْل والثَّعْلب (٥)

(١) الطبرى ٥ : ٢
(٢) أصحرت خرجت للصحراء .
(٣) أعتبه سره بعد ما ساءه . والاسم منه العتبى .
(٤) دلف الشيخ والمقيد دليفاً ودلوفا وهو فوق الدبيب . درأ العدو دفعه وذو تدرء قوى على دفع أعدائه .
(٥) الثعلب رأس الرمح .

كأن دُعَاهُم إذا ما غدَوا ضجيجُ قَطَابلدٍ مُخْصِب
فقدَّمنا واضحٌ وجهه كريمُ الضَّرائبِ والمَنْعِب
أُعِينَ بنا ونُصِرْنا به ومن يَنْصُر الله لم يُغْلب

ومنه شعر نعيم بن هبيرة الشيبانى ، الذى كتب به إلى أخيه مصقلة بن هبيرة ، وقد انتقل إلى الشام ، وانضم إلى جند معاوية ، ثم أرسل إلى أخيه يطمعه فى ترك على ، والانضمام لمعاوية (١) :

قد كنتَ فى مَنْظر عن ذا ومُسْتَمَع تحمى العراقَ وتُدعى خيرَ شيبانا
حتى تقحَّمْتَ أمراً كنتَ تكْرَهُهُ للراكبين له سِرًّا وإعلانا
لو كنتَ أدَّيْتَ ما للقوم مصطبِرا للحقِّ أحيَيْتَ أحيانا وموتانا
لكن لحقت بأهل الشام مُلْتمِسا فضلَ ابن هندٍ وذاك الرأى أَشْجانا

ومنه قول النجاشى فى هجاء أهل الكوفة (٢) :

إذا سقى اللهُ أرضاً صَوْبَ غاديةٍ فلا سقى الله أهل الكوفة المطرا
التاركين على طُهْرٍ نساءهُمُ والناكحين بشطَّىْ دجلة البقرا
والسارقين إذا ما جَنَّ ليلُهُم والتاليين إذا ما أصبحوا السُّوَرا

ومما تظهر فيه عصبية الشام وعصبية العراق ، شعر ابن جعيل يعارض عليا ، ويتهمه بإيواء قتلة عثمان والإغضاء عنهم (٣) :

أرى الشامَ تَكرهُ مُلْك العراق وأهلُ العراق لها كارهونا

---

(١) الطبرى ٤ : ١٠١
(٢) الشعر والشعراء ١١٥
(٣) وقعة صفين ٦٣

وكلٌّ لصاحبه مُبْغِضٌ يَرَى كلَّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمَوْنا ورميناهم ودِنَّاهم مثلَ ما يُقْرضونا
وقالوا عليٌّ أمامٌ لنا فقلنا لهم لا نرى أن ندِينا
ومنْ دون ذلك خرطُ القتاد وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونا
وكلٌّ يُسَرُّ بما عنده يرى غثَّ ما فى يديه سمينا
وما فى عليٍّ لمستعتِبٍ مقالٌ سوى ضمِّه المُحْدِثينا[1]
وإيثاره اليومَ أهلَ الذُّنوب ورفع القِصاص عن القاتلينا
إذا سيلَ عنه حدا شُبْهَةً وعَمّى الجواب على السائلينا[2]
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا فى النُّهاةِ ولا الآمرينا
ولا هو سَاءَ ولا سَرَّهُ ولابد من بعض ذا أن يكونا

وإذا تجاوزنا هذا اللون المتغلب الرجعى من الهجاء السياسى ، وجدنا شعراً قد تخطى هذه النزعات القبلية ، ليصور حياة أرقى وتفكيراً أسمى من الناحية الاجتماعية ، ونظرة أوسع وأفعماً أشمل من الناحية الوطنية . فهو يترفع عن الفكرة القبلية الضيقة ، ويناقش نظام الحكم فى هذا الوطن الجديد الواسع ، مهاجماً هذا أو ذاك من الطامعين فى الملك ، معارضاً حقهم فيه . وهذا الشعر يتميز بإدراكه للحياة الجديدة ، وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن . فالشعراء هنا لا يستمدون فخرهم وهجاءهم من قديمهم الجاهلى ، ولكنهم يستمدونه من حياتهم الإسلامية ، وما لهم فيها من سابقة وفضل ، ويزنون الأمور بالمعايير الإسلامية الجديدة . ومما يصور هذا اللون ، شعر

(١) يقصد بالمحدثين قتلة عثمان . يتهم عليا بإيوائهم .
(٢) إذا سيل يقصد إذا سئل عن القصاص من قتلة عثمان . حدا شبهة ساقها .

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، فى قتل مصعب لزوجة المختار بن عبيد الثقفى ، وهى بنت النعمان بن بشير[1] :

أتى راكبٌ بالأمر ذى النبأ العَجَبْ ... بقتل ابنة النعمان ذى الدِّين والحسب

بقتل فتاة ذاتِ دلٍّ وسيرة ... مهذبةٍ الأخلاق والخِيم والنسب

مُطهَّرةٍ من نسل قوم أكارمٍ ... من المؤثرين الخيرَ فى سالف الحِقب

خليل النبيِّ المصطفى ونصيرهِ ... وصاحبه فى الحرب والنكب والكُرَب

أتانى بأن المُلْحِدين توافقوا ... على قتلها لا جُنِّبوا القتْلَ والسلب

فلا هنأت آل الزبير معيشةٌ ... وذاقوا لباس الذُّل والخوف والحَرَبْ

كأنهم إذ أبرزوها وقُطِّعتْ ... بأسيافهم فازوا بمملكة العَربْ

ألم تعجب الأقوامُ من قتل حُرَّةٍ ... من المحصنات الدينِ محمودةِ الأدب

من الغافلاتِ المؤمناتِ بريئةٍ ... من الذم والبُهتان والشَّكِ والكذب

علينا كتابُ القتل والبأسِ واجبٌ ... وهن العِفَافُ فى الحِجال وفى الحُجُب

على دين أجدادٍ لها وأبوةٍ ... كرامٍ مضت لم تُخز أهلا ولم تُرب

من الخفرات لاخَروجٌ بذِيَّةٌ ... مُلايمَةٌ تبغى على جارها الجُنُب

ولا الجار ذى القربى ولم تدْرِ ما الخنا ... ولم تَزْدلف يوما بسوءٍ ولم تُحِب

عجبتُ لها إذ كفِّنتْ وهى حية ... ألا إن هذا الخطبَ من أعجب العَجَب

فهو هنا لا يعير مصعباً ضعفه أو خمول أجداده ، مستعيناً على ذلك بتاريخهم ومن أذلهم من القبائل وغلبهم ، ولكنه يعيره خروجه على الدين الذى يدعو باسمه ، محتجاً عليه بأنه قد أباح دم مسلمة لا يحل له قتلها ، مستنداً

(١) الطبرى ٤ : ٥٧٤ .

إلى صنيع قومها فى الإسلام ، وسابقتهم فى نصر النبي . وهذا الشعر واضح التأثر بالقرآن فى ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية ، فى مثل قوله (وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب) ، وقوله (علينا كتاب القتل والبأس واجب) وقوله (على جارها الجنب) ؛ ثم (ولا الجار ذى القربى) .

وبعض هذا الهجاء منصب على نظام الحكم ؛ مثل شعر عبد الله بن هشام السلولى فى مبايعة معاوية لابنه يزيد ، وهو يهاجم نظام الوراثة الذى ابتدعه معاوية ، قائلا إنه كسروية ليس من الإسلام فى شيء (١) :

فإنْ تأتوا بَرْمَلَة أو بِهِنْدٍ نبايعْها أميرة مُؤْمنينا(٢)
إذا ما مات كسرى قام كسرى نعُدُّ ثلاثةً مُتَناسِقِينا
فيا لهفا لو أنَّ لنا ألوفاً ولكن لا تعود كما عنينا
إذاً لضُرِبْتُمُو حتى تعودوا بمكَّةَ تلعَقُون بها السَّخينا(٣)
حُشِينا الغيْظَ حتى لو شربنا دماءَ بنى أميـة ماروينا
لقـد ضاعت رعيَّتُكم وأنتم تصيدون الأرانبَ غافلينا

وبعضه منصب على أشخاص الحكام ، ونقد سياستهم ، واتهامهم بمجافاة الدين والخروج على الشرع فيما يفعلون ، مثل شعر جارية بن قدامة السعدى ، يندد بمـا فعل طلحة والزبير ، من إخراج عائشة أم المؤمنين للقتال ؛ وقد أمرها الله أن تقر فى بيتها (٤) :

(١) مروج الذهب ٢ : ٧٠

(٢) رملة بنت معاوية وهند أمه . يسخر به ويقول كنا مستعدين لأن نبايع بالخلافة لامرأة ما دمت تريد ذلك وتفرضه على الناس .

(٣) السخينة كسفينة طعام رقيق يتخذ من دقيق . وهو لقب لقريش كانت تعير به لاتخاذها إياه .

(٤) الطبرى ٣ : ٤٨٢

صُنتم حلائلكم وقُدتم أمكَّم هذا لعمرك قلّةُ الإنصاف
أُمرت بجَرٍّ ذيولها فى بيتها فهَوَتْ تشقُّ البيدَ بالإيجافِ
غرَضاً يُقاتل دونها أبناؤُها بالنَّبْل والخطىِّ والأسياف
هُتِكتْ بطلحة والزبير ستُورُها هذا المُخبَّرُ عنهم والكافى

وقول عمرة بن بحرة ، يلومها على خروجها للقتال ، وتحريضها على سفك الدماء [١] :

يا أُمَّنا أعَقّ أمٍّ نعلم والأمُّ تغذُو ولداً وترحم
ألا ترين كم شجاعٍ يُكْلم وتُختَلى منه يدٌ ومِعْصم !

وقول ابن أم الكلاب لها ، يتهمها بتهييج الناس على عثمان ، إذ تقول (اقتلوا نعثلا فانه قد كفر) حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة على ، قامت تطالبه بدم عثمان [٢] :

منكِ البداء ومنكِ الغِيَرْ ومنكِ الرياحُ ومنكِ المَطرْ
وأنتِ أمرتِ بقتل الامام وقلتِ لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناكِ فى قتله وقاتلُه عندنا مَنْ أمَرْ
ولم يسقُط السقفُ من فوقنا ولم ينكسفْ شمسُنا والقمر
وقد بايع الناسُ ذا تدْرإٍ يُزيلُ الشَّبا ويُقيم الصعَر [٣]
ويلْبس للحرب أثوابها وما مَنْ وَفَى مثل مَنْ قد غدر

(١) الطبرى ٣ : ٢٥٦

(٢) الطبرى ٣ : ٤٧٧

(٣) الدرء الدفع وذو تدرإ قوى على مدافعة العدو . الشبا جمع شباة وهى العقرب ساعة تولد وإبرتها وحد كل شىء . والشبا كذلك الطحلب وهو أقرب للمقصود هنا أى يزيل الشوائب . الصعر الميل فى الخد خاصة وهو وصف المتكبر .

هذا شعر يناقش المسائل على ضوء الدين ، مرويا فيها متفكرا . وهو يذهب فى هذا التفكير إلى أبعد حدوده ، فلا يتحرج من أن ينقد شخصاً له حرمة وقداسة كأم المؤمنين ، وأن يهاجمها فى قسوة وعنف :

ومن هذا النوع شعر أبى حرة — مولى ابن الزبير — فى هجائه ، بعد أن انصرف عنه لبخله . وقد كان ابن الزبير لا يزال يقول للناس : إنما بطنى شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت [١] :

ما زال فى سُورة الأعراف يقرؤُها ... حتى فؤَادىَ مثلُ الخزِّ فى اللِّينِ
لو كان بطنُك شِبراً قد شبعتَ وقد ... أفضلْتَ فضلاً كثيراً للمساكين
إن أمرءاً كنتُ مولاه فضيَّعنى ... يرجُو الفلاحَ لعمْرِى حقٌ مغبون

وكذلك شعر الضحاك بن فيروز الديلمى فيه :

تُخبِّرُنا أن سوف تكفيك قبْضةٌ ... وبطنُك شِبرٌ أو أقلُّ من الشِّبْر
وأنت إذا ما نلتَ شيئا قصمتَه ... كما قَصَمَت نارُ الغضَى حطَبَ السِّدْر
فلو كنتَ تجزِى أو تُثيبُ بنعمةٍ ... قريباً لرَّدتْك العطُوفُ على عمْرو [٢]

وشعر أبى الطفيل عامر بن واثلة ، يؤيد ابنى عباس فى دعوتهما للعلويين ويهجو ابن الزبير لتضييقه عليهما ، ومنع الناس من لقائهما والجلوس إليهما [٣] :

لادَرَّ دَرُّ الليالى كيف تُضحكنا ... منها خطوبٌ أعاجيبٌ وتُبكينا

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٩٩

(٢) عمرو بن الزبير أخوه وقد كان خارجا عليه يحاربه مع جند الشام . خرج فى جيش لحربه فى أيام يزيد فانهزم ، وظفر به أخوه عبد الله بن الزبير ، فأقامه بباب المسجد الحرام مجردا ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

(٣) خزانة الأدب ٤ : ٣٠

كنا نجىء ابنَ عباس فيقْبسُنا فضلاً ويُكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيدُ الله مترعةً جِفانُه مطعِماً ضيفا ومسكينا
فالبِرُّ والدينُ والدنيا بدارهما ننالُ منها الذى نَبْغى إذا شيئا
إن النبىَّ هو النورُ الذى كُشِفَت به عَمَاياتُ باقينا وماضينا
ورهطُه عِصمةٌ فى ديننا ولهم فضلٌ علينا وحقٌ واجبٌ فينا
ولستَ — فاعلمه — أَوْلَانَا بهم رَحِماً يا ابن الزبير ولا أولى به دينَا
ففِيمَ تَمنَعُهم منا وتمنعنا منهم وتؤذيهم فينا وتؤذينا
لن يُؤْتِىَ اللهُ مَن أخزى ببغضهم فى الدين عزاً ولا فى الأرض تمكينا

وكذلك شعر أنس بن أبى إياس فيه، حين تزوج عائشة بنت طلحة، ودفع صداقها ألف ألف دينار (١) :

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالة من ناصح لك لايريد خداعا
بُضْعُ الفتاة بألفِ ألفِ درهمٍ وتَبيتُ ساداتُ الجنودِ جياعا (٢)
لو لأبى حَفْصٍ أقولُ مقَالتى وأقُصُّ شأن حَديثكم لارتاعا (٣)

وكذلك شعر كثير فيه، وقد سجن الحسن بن محمد بن الحنيفة، ومعه خمسة عشر رجلا من بنى هاشم (٤) :

تُخبِّرُ من لاقيتَ أنك عائِذٌ بل العائذُ المظلومُ فى سِجنِ عارم (٥)

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤
(٢) البضع بالفتح القطع والشوق والتزوج وبالضم مهر النكاح .
(٣) أبو حفص كنية عمر بن الخطاب .
(٤) الكامل للمبرد ٢ : ١٦٥
(٥) سجن عارم حبس مشهور كان موحشا مظلما . حبس فيه ابن الزبير الحسن بن=

ومن يَلْقَ هذا الشيخَ بالخيفِ من منىً ... من الناس يَعْلَمْ أنه غيرُ ظالم
سَمِيُّ النبى المصطفى وابنُ عمه ... وفكَّاكُ أغلال وقاضى مَغَارم

ومن هذا النوع شعر عتبة الأسدى فى هجاء معاوية ، يتهمه بالشره فى جمع المال ، وإفساد أمر الناس ، بتأمين الأراذل والعبيد [(١)] :

معاوِىَ إننا بَشَرٌ فأَسْجِحْ ... فلسنا بالجبال ولا الحديد [(٢)]
أكلتم أرضَنا وجَذَذْتُمونا ... فهل مِن قائم أو من حصيد
فهَبْنا أُمةً هلكتْ ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيد
أتطمعُ بالخلود إذا هَلَكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود
ذَرُوا خَوَلَ الخلافةِ واستقيموا ... وتأمينَ الأراذل والعبيد

وشعر رجل من الأنصار ، يتهمه بأنه يتخذ دم عثمان ستاراً ، يخفى وراءه طمعه فى الملك [(٣)] :

معاوى إنَّ الحق أبلجُ واضحٌ ... وليس بما رَبَّصْت أنتَ ولا عَمْرُو
نصَبْتَ ابنَ عفانٍ لنا اليومَ خُدْعةً ... كما نصَبَ الشيخان إذ زُخرِفَ الأمر [(٤)]
فهذا كهذاك البلا حَذْوَ نَعْلِه ... سواءٌ كرَقْراقٍ يُغَرُّ به السَّفْر
رميتُم عليًّا بالذى لا يَضُرّه ... وإن عظمت فيه المكيدة والمكر

= محمد بن الحنفية وأراد قتله . فأعمل الحيلة حتى تخلص منه ، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية .

(١) العقد الفريد ٦ : ١٦٨

(٢) سجح الخد كفرح سجحا وسجاحة سهل ولان وطال فى اعتدال وقلة لحم . والسجح بضمتين اللين السهل . والأسجح الحسن المعتدل .

(٣) وقعة صفين ٧١

(٤) الشيخان يقصد بهما طلحة والزبير .

وما ذنبُه أن نال عثمانَ معشرٌ أتوه من الأحْياءِ يَجمعُهم مِصْرُ
فثار إليه المسلمون ببيته علانِيةً ما كان فيها لهم قسر
فبايعه الشيخان ثم تحمّلا إلى العُمرة العظمى وباطنُها الغدر
فكان الذى قد كان مما اقتِصاصُه رَجيعٌ فيالله ما أحدثَ الدَّهْرُ
فما أنتما والنصر منا وأنتُما بَعيثَا حُروبٍ ما يبوخُ لها الجمْرُ
وما أنتما لله دَرُّ أبيكمُا وذِكرَكُما الشُورى وقد فَلَجَ الفَجْرْ

وبعض هذا الهجاء السياسى ، يصور ضيقاً شديداً بزعماء هذه الأمة ، الذين قادوها إلى ما صارت إليه من التطاحن وسفك الدماء . فقد أيقظت هذه الأحداث المتتابعة عقول الناس ، وفتحت عيونهم على ما حولهم ، وأخرجتهم من سذاجتهم ، فلم يعودوا يحسنون الظن بقائد من قوادهم ، أو زعيم من زعمائهم ، فكلهم متهالك على حطام الدنيا ، لا يدفعه إلا الجشع والغرور ، يقولون غيرما يعملون ، ويضللون الناس بما يظهرون من النسك والورع ، والحرص على إقامة الدين وإعلاء شأنه ، واتهام خصومهم بالمروق والتهاون فى الأخذ بسننه . مل الناس هذا الرياء ، ولم يعد من السهل خداعهم بالخطب والوعود ، بعد أن أسرعت هذه المعارك بالتفكير إلى النضج ، ونبهت ملكة النقد ، ففتحت بذلك باب الهجاء الاجتماعى ، الذى نضج فى القرن الثانى الهجرى ، ثم بلغ الذروة على يد المتنبي والمعرى :

فمن الشعر الذى يصور ضيق الناس بما آل إليه أمرهم من اضطراب وخلاف ، قول الصلتان العبدى (١) :

أرى أُمَّةً شهَرَتْ سيفَها وقد زِيدَ فى سوطها الأصْبَحى (٢)

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١١٨
(٢) الأصبحى السوط نسبة إلى ذى أصبح من ملوك اليمن .

بنَجْـدِيَّةٍ وحَرُورِيَّةٍ وأَزْرَقَ يدعُو إلى أزرقِ[1]
فمِلَّتُنـا أننـا المسلمون على دين صِدِّيقنا والنبى

ومنــه :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرُّ الغـداة ومرُّ العشى
إذا ليـلةٌ هرَّمَتْ يومها أتى بعـد ذلك يومٌ فَتى
نروحُ ونغـدُو لحاجاتنا وحاجةُ من عاش لا تنقضى
تموتُ مع المـرءِ حاجاتُه وتبقَى له حَاجَةٌ ما بقى

ومنه شعر على بن الغدير الغنوى . وهو يرى أن الناس لا يتماتلون إلا من أجل قريش ، فهم فى الحقيقة أصل الشر وأس البلاء ، ومن الخير للناس أن يدعوهم وشأنهم ، ولا يهلكوا أنفسهم فى سبيلهم[2] :

من مبلغٌ قيسَ بن عيلانَ كلَّها بما أحتازَ منها أرضَ نجدٍ وشامَها
فلا تهلكنكم فتنـةٌ كلُّ أهلها كحيران فى طخياء داج ظلامها
فشأنَ قريشٍ والخصومةَ بينها إذا اختصمت حتى يقومَ إمامها
همُ اخذُوها بين حتفٍ معجَّلٍ وخطـةِ خسفٍ لا تزال تسامها
فضموا جناحيكم إلى مُرْجَحِنَّةٍ معاً حربها إن حاربتْ أو سلامَها
وشيموا سيوفَ الهند حتى تَبَيَّنُوا على أىِّ أعداء يُسَلُّ حسامها[3]

(١) النجدية والأزارقة فرقتان من الخوارج والحرورية اسم للخوارج سموا بذلك لانحيازهم إلى حروراء بعد صفين .

(٢) نقائض جرير والأخطل ٢٣

(٣) شام من الأضداد فى اللغة تقول شام سيفه أستله وشامه غمده أيضا والمقصود هنا المعنى الأخير . ضموا جناحيكم إلى مرجحنة أى كتيبة مرجحنة أو خطة مرجحنة من الرجحان .

وخلوا قريشاً تقتتلْ إن ملكها ... لها وعليها بِرُّها وأثامها
فإن وسعتْ أحلامها وسعتْ لها ... وإن عجزتْ لم يَدْمَ إلا كِلامها
فإن قريشاً مهلكٌ من أطاعها ... تنافسُ دنيا قد أحم أنصرامها

ومنه شعر حنظلة الكاتب فى فتنة عثمان (١) :

عجبتُ لما يَخوضُ عنهم ... يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ... ولاقوا بَعدَها ذُلاًّ ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى ... سواء كلُّهم ضلوا السبيلا

وقد غلب الحزن والرثاء على هجاء الشيعة ، لكثرة من قتل منهم ، ولشدة ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد ، مثل شعر هند ابنة مخزمة الأنصارية ، فى مقتل حجر بن عدى (٢) :

تَرَفعْ أيها القمرُ المنيرُ ... تبصَّرْ هل ترى حُجراً يسير
يسيرُ إلى معاويةَ بنِ حَرْبٍ ... ليقتله كما زعم الأمير
تَجبَّرَت الجبابرُ بعد حُجر ... وطاب لها الخوَرْنقُ والسديرُ
وأصبحَت البلادُ لها مُحُولاَ ... كأن لم يحيها مزْنٌ مَطير
ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بنى عَدِىٍّ ... تلقتك السلامةُ والسرور
أخافُ عليك ما أردَى عَدِيًّا ... وشيخاً من دِمَشقَ له زئير
يرى قتلَ الخيارِ عليه حقًّا ... له من شرِّ أمته وزيرُ
ألا ياليتَ حُجراً مات موتاً ... ولم ينحَرْ كما نحِرِ البعير
فإن يهلكْ فكلُّ زعيم قومٍ ... من الدنيا إلى هُلك يصير

(١) الطبرى ٣ : ٤١٧
(٢) الطبرى ٤ : ٢٠٩

ومما يصور هذا الهجاء الحزين ، شعر امرأة من بنى عبد المطلب ، فى قتل الحسين[١] :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم
بعترتى وبأهلى بعدَ مفتقدى ... منهم أسارى وقتلى ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحتُ لكم ... أن تَخلُفُونى بسوءٍ فى ذوى رَحِمى

وتمثلت الفدائية والإخلاص المبدأ إلى حد الموت والفناء فى شعر الخوارج فكان هجاؤهم السياسى مختلطاً بالحماسة ، فى الوقت الذى نرى فيه هجاء الشيعة مختلطاً بالرثاء . وكان شعرهم صورة صادقة لجرأتهم النادرة ، وتطرفهم الشديد فى فهم الدين ، وأيمانهم العميق بهذه الآراء المتطرفة .

يقول قطرى بن الفجاءة ، مخاطبا أبا خالد القنانى ـ وهو من قعد الخوارج[٢] :

أبا خالد يا أنفرْ فلستَ بخالدِ ... وَماجعل الرحمنُ عذراً لقاعد
أتزعمُ أنّ الخارجىَّ على الهدى ... وأنتَ مقيمٌ بين لصٍ وجاحد

ويقول عيسى بن فاتك (من بنى تيم اللات بن ثعلبة) ، فى وقعة آسك ، متهكما بجيوش بنى أمية[٣] :

فلما أصبحوا صلّوا وقاموا ... إلى الجُرْدِ العِتاق مُسَوَّمينا[٤]
فلما استجمعوا حَملوا عليهم ... فظلَّ ذوو الجعائل يُقْتَلونا[٥]

---

(١) الطبرى ٤ : ٢٩٤

(٢) الكامل ٣ : ١٠٧

(٣) الكامل ٢ : ١٥٧

(٤) مسومين معلمين . والسومة العلامة يتخذها الفارس فى الحرب ليعرف بها من بين الناس .

(٥) الجعائل جمع جعالة كسحابة وهو ما تجعل للمحارب من أجر . يصف جنود بنى أمية بأنهم مأجورون لايحاربون عن عقيدة .

بقيّـــةَ يومهم حتى أتاهم   سوادُ الليلِ فيه يُراوِغونا
يقول بصيرُهم لمـــا أتاهم   بأنّ القومَ ولّوا هاربينا
أألفا مؤمنٍ فيما زعمتم   ويَقْتُلُهم بآسك أربعـــونا
كذبتم ليس ذاك زعمتم   ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هم الفئةُ القليلةُ غير شكٍّ   على الفئةِ الكثيرةِ يُنصَرونا

وقال معاذ بن جوين ، يحض الناس على الثورة . وكان الخوارج قد اجتمعوا إلى المستورد بن علفة ، عازمين على الخروج سنة ٤٣ هـ ، بعد أن اجتمع الأمر لمعاوية ، ثم بلغهم أن المغيرة بن شعبة يكيد لهم ، وأنه قد أخذ العهد على كل قبيلة أن تنفى من كان بينهم من الخوارج[١] :

ألا أيُّها الشارون قد حان لامرئٍ   شَرَى نفسَه لله أن يترحَّلا
أقمتُمْ بدارِ الخاطئين جَهالةً   وكلُّ امرئ منكم يُصادُ ليُقتَلا
فشُدُّوا على القوم العُداةِ فإنما   إقامتُكم للذَّبح رأياً مضَلَّلا
ألا فاقصدوا يا قومُ للغايةِ التى   إذا ذُكِرَتْ كانت أبرَّ وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابحٍ   شديدِ القُصيْرى دارعاً غيرَ أعزلا[٢]
ويا ليتنى فيكم أعادِى عدوَّكم   فيسقيَنى كأسَ المنيَّةِ أولا
يعز علىّ أن تخافوا وتُطرَدُوا   ولما أُجرِّدْ فى المُحلِّين مُنْصُلا
ولما يفرق جمعَهم كلُّ ماجد   إذا قالتُ قَدْ ولَّى وأدبرَ أقبلا

---

(١) الطبرى ٤ : ١٤٣

(٢) القصيرى أسفل الأضلاع أو آخر ضلع فى الجنب وأصل العنق . غير أعزلا لضرورة الشعر وحقه غير أعزل .

مُشيحاً بنصل السيف فى حَمَس الوغى ... يرى الصبرَ فى بعضِ المَوَاطن أمثلا
وعزَّ علىَّ أن تضاموا وتُنْقَصوا ... وأُصبح ذَا بَثٍّ أسيراً مكبّلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم ... أثَرْتُ إذاً بين الفريقين قَسْطلا
فيا رُبَّ جَمع قد فللتُ وغارةٍ ... شهدتُ وقِرْنٍ قد تركتُ مجدَّلا

ومما يصور إخلاصهم العميق لمبادئهم، وزهدهم فى الحياة وزخرفها، ما كتب به قطرى إلى سيرة بن الجعد الخارجى، وكان سمين الحجاج، ولم يكن يعرف أمره(١).

لشتانَ ما بينَ ابن جَعْدٍ وبيننا ... إذا نحن رحنا فى الحديد نُظَاهِر
نجاهد فرسان المهلَّب كلُّنا ... صبورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يجُرُّ الخزَّ عند أميره ... أميرٌ بتقوى ربه غيرُ آمر
أبا الجعد أين العِلم والحِلمُ والنُّهى ... وميراثُ آباءٍ كرامِ العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل ... ولا بد من بعث الأولى فى المقابر
حفاةً عراةً والترابُ لديهم ... فمِن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلتَ يفنى وإنما ... حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجِع أبا جَعْدٍ ولاتك مُغْضِياً ... على ظُلَمٍ أعشَتْ جميعَ النواظر
وتُبْ توبةً تُهدِى إليك شهادة ... فإنك ذو ذَنْبٍ ولستَ بكافر(٢)
وسر نحونا تَلقَ الجهاد غنيمةً ... تُفِدْك ابْتياعاً رابحاً غيرَ خاسر(٣)

---

(١) مروج الذهب ٢ : ١٣٨

(٢) فى هذا البيت إشارة إلى ما يرى الخوارج من تكفير مرتكب الذنوب.

(٣) يقصد أن الذى يبيع حياته يشترى بها الجنة وذلك قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم).

هى الغايةُ القصوى الربيحُ ثوابُها   إذا نال فى الدنيا الغرىَّ كلُّ تاجر

ويقرأ سيرة الشعر فيبكى لشدة تأثره ، ويأخذ سلاحه لا حقا بقطرى . وفى ذلك يقول :

فمَنْ مبْلِغُ الحجّاجِ أن سميرَه   فَلاَ كلَّ دينٍ غيرَ دينِ الخوارج

رأى الناس إلا من رأى مثلَ رأيهِ   مَلاَعينَ ترَّا كين قَصْدَ المخارج

فأقبلتُ نحوَ اللهِ باللهِ واثقاً   وما كُرْبَتِى غيرَ الإِله بفارِجِ

إلى عصبةٍ أمّا النهارُ فإِنهم   هم الأُسْدُ أسدُ الغِيلِ عند النَّهايُج

وأما إذا ما الليلُ جَنَّ فإِنهم   قيامٌ بأنواحِ النساء النواشج

يُنادون للتحكيم بالله إنهم   رأوا حُكْمَ عمرو كالرِّياحِ الهوائج

وحكمَ ابن قيس مثل ذاك فأعصموا   بحَبْلٍ شديدِ المتنِ ليس بناهج (١)

ولدينا بعد هذا هجاء لا يتصل بأصول الحكم ، ولا يصور ميولا حزبية معينة ، ولكنه يتصل بالولاة فى الأقاليم ، يعارض سياستهم ، وينقد تصرفاتهم . وهذا اللون من الهجاء السياسى مختلط بالهجاء الاجتماعى وهو من أمتع ألوان الشعر السياسى ، وأكثرها دقة ووضوحا ، فى الكشف عن معايب هذا المجتمع الذى تعقدت فيه الحياة ، وتعارضت فيه الآراء والأهواء وهو لا يصور معارضة حزبية ، ولكنه يصور سخطا على النظم الاجتماعية القائمة . فقد تدفقت الأموال على الناس ، وبدأت الفوارق الاجتماعية تتسع بينهم شيئا فشيئا ، بعد أن كانوا قريباً من قريب ، فارتفع بعضهم من صفوف الشعب

---

(١) كان مما أنكر الخوارج على على قبوله التحكيم حين ندب أبا موسى الأشعرى وندب معاوية عمرو بن العاص . وقد قالوا له فيما جرى بينه وبينهم من نقاش (لم حكمت الحكمين ؟ فان كنت فى شك من خلافتك فغيرك أولى بالشك . وجملتهم المشهورة فى ذلك (لا حكم إلا لله) .

إلى طبقة الحكام ، وانغمس فى الترف والملاذ ، هذا يشرب ويطرب ، وذاك يسرق وينهب ، وآخر يتأنق فى طعامه ولباسه . واتخذوا الحجاب ، فصار العربى لا يصل إلى الحاكم إلا بعد استئذان ، وربما دفع عن حاجته فلم يبلغ إليه ؛ فكان ذلك من أثقل الأشياء على نفس العربى ، الذى لم يألف مظاهر الملك والسلطان ، والذى كان يدخل على الخليفة نفسه قبل ذلك حين يشاء ، ويكلمه فى غير كلفة . وتأثر الخلفاء والولاة بالعصبية . فولوا أعمال الدولة قوما ليسوا من أهل الكفاية . هذا يقود الجيوش وهو جبان لا يصلح لقتال ، وذاك يلى أمور الناس وهو منافق يصطنع الرياء ، يظهر عليهم فى ثياب النسك والورع ، فإذا خلا إلى نفسه كان أفسق خلق الله . وأحس الناس ثقل هذه النظم الإدارية الجديدة . التى جعلتهم طبقتين . تتميز إحداهما من الأخرى تميزا واضحا . طبقة الحكام وطبقة المحكومين . ولم يكن للحكام بد — بعد هذه الفتن الطويلة . التى فقد فيها الناس روح النظام واحترام القانون — من أن يأخذوا الناس بالعقوبات الرادعة . فاتسمت أفعالهم بالقسوة الخارجة على الدين وأحكامه فى كثير من الأحيان . واستحدثوا ألوانا من التعذيب والتنكيل والتشهير ، ليس للناس بها عهد . وراح بعضهم يغلو فى جباية الضرائب ، ويشتد فى ذلك ، متجاوزا حق الدولة ، حتى ضجت الأمصار ، وفسدت العلاقات بين الحاكم والمحكوم ، وبدأ الناس يمقتون هذا النظام الجديد ويضيقون به . وصب الشعراء هذا الضيق على الولاة والعمال ، الذين يمثلون هذا النظام ويشرفون على تنفيذه .

انظر إلى هذه الصورة التى يقدمها يحيى بن نوفل الحميرى يهجو أبان بن الوليد البجلى وأخاه بلالا . حين ولاهما خالد القسرى بعض الأعمال . كيف يصور ما ينغمس فيه العمال من ترف . وما يحيطون به أنفسهم من مظاهر الجاه . بعد عيش خشن . ورزق ضيق ضنين[1]

(١) الشعر والشعراء ٢٨٦

تقولُ هُشَيمةُ فيما تقول ... مَللتَ الحيــاةَ أبا مَعْمَر ؟
ومالِىَ أنْ لَا أملَّ الحيــاة ... وهـذا بلالٌ على المنــبر !
وهذا أخوه يقودُ الجيوش ... عظيم السُّرادق والعسكر!
وأما ابنُ سَلْمى فشِبْهُ النَّمَاة ... رءُوحٌ بَكورٌ على المِجْمَرَ[١]
دَبوبُ العشاءِ إذا أُطعِمَت ... حليلة كلِ فتى مُعْوِر
وأما ابنُ أشعَث ذو التُّرَّهات ... وذو الكَذْب والزور والمُنكَر
فلو قيل عَبْدٌ شرته التجار ... سَبِيٌّ من الروم لم يُنْكَر
وهذا ابنُ مَا هَان بعد الشقَّاء ... وبعـد الخياطةِ فى كَسْكَر
يروحُ يُسامِى ملوكَ العراق ... وقد عاش دهراً ولم يُذْكَر
وأما المكحَّلُ وهبُ الهَنَاة ... فلو قُيِّد الدهرَ لم يصبر
عن الزَّفْنِ والصنجِ والمُسمِعَات ... وقَرْعِ القوارير والمِزْهَر
ولا عن هَنَاتٍ له لو ظهَرْن ... فمـات عليهنَّ لم يُقْبَر
وهذا ابنُ زيدٍ له جُبَّةٌ ... تفوحُ من المِسك والعَنْبَر
وهذا أبانُ بَنِىُّ الوَليد ... خطيبٌ إذا قام لم يَحْصَر
أبَعْدَ الدواةِ وبعد الطُّرُوس ... وبعد الكِتَابِ على الدَّفْتَر !
ولو حَلَّ ضَيْفٌ به لم يزِده ... على الأبْيَضَيْن مع الصَّعْتَر![٢]

وانظر قوله فى بلال بن أبى بردة الأشعرى . ذاك الذى يدمن الشراب . فلا يصبر عنه ليلا ولا نهارا[٣]

---

(١) المجمر والمجمرة الذى يوضع فيه الجمر والبخور ، يقول لا هم له إلا التطيب بالبخور وهو شأن النساء .

(٢) الأبيضان الماء واللبن : والصعتر ضرب من النبات وهو الذى نسميه الآن (زعتر)

(٣) العقد الفريد ٨ : ٦٤

وأما بلالٌ فـــذاك الذى ... يميلُ الشرابُ به حيثُ مالا
يبيتُ يمُصُّ عتيقَ الشَّراب ... كمصِّ الوليدِ يخافُ الفِصَالا
ويُصبِحُ مضطربًا ناعسا ... تخالُ من السكْرِ فيه احوِلَالا
ويمشى ضعيفا كمشْىِ النّزِيف ... تخالُ به حين يمشى شِكالا(١)

وانظر إليه كيف يصور بلالا هذا فى نفاقه وريائه. يظهر النسك والورع ويخدع الناس بتلاوة القرآن، وبهذه العلامة التى اتخذها فى جبهته، كأنها من أثر السجود وإدمان الصلاة(٢)

أبلالُ إنِّى رابَنِى من شأنكمُ ... قولٌ تُزَيِّنه وفعلٌ منكَرَ
مالى أراكَ إذا أردتَ خيانةً ... جعل السجودُ بحرِّ وجهِكَ يَظْهر
متخشعاً طَبِنًا لكل عظيمةٍ ... تتلوا القرآنَ وأنت ذئبٌ أغبرُ

وفيه يقول متشفياً. وقد أصيب بالجذام.

فأما بلالٌ فإنَّ الجذا ... م جَلَّلَ ما جازَ منه الوَرِيدا
فأنقع فى السمنِ أوصاله ... كما أنقع الأدمون الثريدا
فأكسَدَ سمنَ تجارِ العرا ... ق فينا وأصبح فينا كسيدا

ثم انظر إلى ما يقول هذا الشاعر الكثير الهجاء، الذى لا يكاد يمدح أحدا، فى سعيد ابن رشد. ذلك المنين الخامل، الذى ارتقى للأمارة. فلبس الخز وركب البغال فى المواكب، واتخذ الحجاب.

بكى الخز من إبطَىْ سعيدِ بنِ راشد ... ومن إسته تبكى بِغالُ المواكب

---

(١) النزيف الذى سال دمه والمجنون والسكران. والشكال الحبل الذى تشد به قوائم الدابة إذا قيدت.

(٢) الشعر والشعراء ٢٨٧

فواعجبا حتى سعيدُ بنُ راشد   له حاجِبٌ فى الباب من دون حاجب !

ومن هذا اللون شعر أنس بن أبى إياس ، فى حارثة بن بدر الغدانى وقد طلب من عبيدالله بن زياد أن يوليه . فخيره فاختار (سُرَّق) ، لما وصف له من شرابها وكان مدمنا للخمر — فولاه إياها[١]

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَليتَ إمارةً   فكن جرذا فيها تَخُونُ وتسرق

وباه تميماً بالغِنى إن للغنى   لسأناً به المرءُ الهيُوبةُ ينطِق

فإنَّ جميعَ الناسِ إما مكذِّب   يقول بما يَهوَى وإمّا مُصدِّق

يقولون أقوالًا ولا يعرفونها   وإن قيل هاتوا حَقِّقوا لم يُحقِّقوا

فلا تحقِرَنْ ياحارِ شيئاً أصبتَه   فحظُّك من ملك العراقَين (سُرَّقُ)[٢]

ومنه شعر عبد الله بن همام السلولى . يهاجم النعمان بن بشير والى الكوفة . وكان معاوية قد أمر لأهلها بزيادة عشرة دنانير فى أعطياتهم . فحبسها النعمان عنهم ولم ينفذها . لسابق إخلاصهم لعلى[٣]

زيادتَنا نعمانُ لا تحرِمَنَّنا   خَفِ اللهَ فيناوالكتابَ الذى تتلو

فإنك قد حُمِّلْتَ فينا أمانةً   بماعجزَتْ عنه الصلاخِمةُ البُزْل[٤]

فإن يكُ بابُ الشعرِ تُحسِن فتحَه   فلا يكُ بابُ الخيرِ ليس له قُفْل

فقد نلتَ سلطاناً عظيما فلا يكن   لغيرك جمَّاتُ النَدَى ولك البخل[٥]

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤ ، العقد الفريد ٨ : ٥٧

(٢) سرق اسم الولاية التى وليها حارثة . (حار) ترخيم حارثة .

(٣) الأغانى ١٤ : ١٢٠

(٤) بعير صلخام بكسر الصاد وصلخم بفتح الصاد صلب شديد . البزل جمع بازل وهو البعير الذى بزل نابه أى ظهر وذلك فى السنة التاسعة

(٥) الجم الكثير من كل شىء . ومن الماء معظمه وكثرته .

وأنت امرؤٌ حلو اللسانِ بليغهُ   فما بالُه عنـد الزيادةِ لا يحلو
وقَبْلَكَ قد كانوا علينـا أئمةً   يهُمُّهم تقويمُنـا وهم عُصْلْ
إذا أنصتوا للقول قالوا فأحسنوا   ولـكنّ حُسْنَ القولِ خالفَه الفِعلْ
يذُمُّون دنيـاهم وهم يَرضَعونها   أفاويقَ حتى ما يدرُّ لها ثُعْـل[1]

ومن الشعر الذي يصور سخط الناس . لتأثر الولاة بالعصبية والقرابة في اختيار العمال . قول الحارث بن خالد المخزومي . يهجو عبد العزيز أخا خالد ابن عبد الله بن أسيد . وقد ولاه قتال الخوارج فانهزم[2]

فَرَّ عبدُ العزيز لمَّا رأى الأبـــطالَ بالسَّفْح نازلوا قَطَرِيّا[3]
عاهَدَ اللهَ إن نجا مِلْمَنَايَا   ليعودَنّ بعـدها حَرَمِيًّا[4]
يسكن الخلَّ والصِفاحَ فمَرّا   نَ وسلعاً وتارة نَجْدِيّا[5]
حيثُ لا يَشهدُ القتالَ ولا يسـ   ـمع يوما لِكرٍّ خيلٍ دويّا

ومما يصور سخط الناس لعدم توافر الكفايات في العمال . شعر رجل من بني عامر بن صعصعة . يهجو عبيد بن أبي ربيعة بن أبي الصلت الثقفي . رسول الحجاج إلى المهلب . يقول : تسمع هذا الرجل حين يخطب فلا ترى بأساً . فإذا رأيته في القتال . عجبت لما كان ينشدق به من حث الناس على القتال[6] .

---

(١) أفاريق جمع فيقة بكسر الفاء وهو اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين . والثعل بفتح الثاء وضمها زيادة في أطياء الناقة والبقرة والشاة .

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧

(٣) قطرى بن الفجاءة من زعماء الخوارج وشعرائهم المشهورين

(٤) ملمنايا أصلها من المنايا حذف النون لقرب مخرجها من اللام . حرميا نسبة إلى الحرم . أي يقيم هناك ولا يشهد حربا .

(٥) الخل موضع وأصله الطريق في الرمل . والصفاح ومران وسلع مواضع . نجديا نسبة إلى نجد ، يعني أنه يتنقل بين هذه الأماكن بعيداً عن خطر الخوارج خوفا منهم .

(٦) الكامل ٢ : ٢٤١

ما زلتَ ياثقفيُّ تخطُبُ بيننا وتغمُّنا بوصيَّةِ الحجَّاج
حتى إذا ما الموتُ أقبلَ زاخراً وسَمَا لنا رِصرْفاً بغير مِزاَج
ولَّيْتَ ياثقفيُّ غيرَ مناظِرٍ تَنْسابُ بين أحِزَّةٍ وفِجاَج
ليستْ مقارعةُ الكماةِ لَدَىالوغى شُربَ المدامةِ فى إناءِ زجاج

وقد كثرت شكوى شعراء العراق ، من ظلم العمال فى جباية الأموال . والذى يبدو أن هؤلاء العمال كانوا يختارون من الغلاظ الشداد ، الذين يأخذون الناس بالعنف الصارم ، لما عرف به أهل هذا الإقليم من الشقاق، والخروج عن طاعة السلطان . وكان بعض هؤلاء العمال يستغل بعده عن موطن الخلافة ، فيشتط على الناس ، ويطالبهم بأكثر مما توجب عليهم فروض الزكاة ، مدخراً لنفسه بعض ما يجمع . وهذا هو الراعى ، يشكو العصاة إلى عبد الملك ، فيقول إنهم يأخذون فوق ما يوجب القانون ، ويتعدون بذلك ما أمرهم الخليفة . فهم يأخذون العشار من كرام الإبل . بينما يكتبونها للأمير فصيلا ، ويغلون لأنفسهم الزيادة . ويشتطون على الناس فى هذه الأحكام الجائرة ، فلا يزالون يجلدون العريف بالسياط ، وقد أقاموه فى الأغلال ، حتى يقطعوا جلده . ثم يأتونه بصكهم وقد أخذ منه الرعب . فينصبونه إبله ويدعونه للضياع (يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجرُّبه الرياح ذيولا) فكأنه حمام كسر الرماة جناحه . فهو لا يزال ينوح على قارعة الطريق ، وقد وقع الربيع ، فتقارب خطوه ، وأخذه الفزع ، إذ رأى الذئب يقترب من نخله ، فى شراسة النهم الذى لا يبقى على شىء يصادفه . وهؤلاء هم قومه المسلمون الذين لا يمنعون الزكاة ، والذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، يهيمون فى الصحراء مطرودين ، كأنهم مجرمون أصابوا قتيلا . يحدون إبلا عجافاً ، قد تهدمت أسنمتها . فهم يتركونها فى خارم الجبال ، تتساقط ضعفاً وإعياء ، لأنها لا ترعى إلا الفاسد من النبات ، بين يابس ومُرٍّ وخم . وماذا يصنعون

وقد أتاهم (يحيى) الجابى . فأخذهم بشروطه الظالمة . وكلفهم ما لا يطيقون . فأفقر غنيهم . وأهزل فقيرهم ! ! (١)

أخليفةَ الرحمنِ إنّا معشرٌ حُنَفاء نسجدُ بكرةً وأصيلا (٢)
عربٌ نرى لله فى أموالنا حقَّ الزكاةِ مُنَزَّلا تنزيلا
إن السعاة عَصَوكَ يومَ أمرتَهم وأتوا دواهىَ لو علمتَ وغُولا
إن الذين أمرتَهم أن يَعْدِلوا لم يفعلوا مما أمرتَ فتيلا
أخذوا العِشَارَ من الكرام ظُلامةً مِنّا ويُكْتَبُ للأمير أفيلا (٣)
أخذُا العريف فقطَّعوا حَيْزُومَهُ بالأصبَحِيّة قائماً مغلولا (٤)
حتى إذا لم يترُكوا لعظامِهِ لحما ولا لفؤاده مَعْقُولا
جاءوا بصَكِّهِمُ وأحدَبَ أسأَرَتْ منه السياطُ يراعةً إجفيلا (٥)
نسِىَ الأمانةَ من مخافةِ لُقَّحٍ شُمْسٍ تركن بَضِيعَهُ مجدولا (٦)
أخذوا حُمُولَتَهُ فأصبح قاعدا لا يستطيع عن الديار حَوِيلا

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٥٦ ، خزانة الأدب ٢ : ٣٠٦

(٢) حنفاء مسلمون والحنيف المسلم .

(٣) العشار جمع عشراء مثل فقهاء ، وهى الناقة التى أتى عليها عشرة شهور لحملها . الأفيل ابن المخاض إذا كان صغيرا قبل أن يفصل من أمه .

(٤) العريف رئيس القوم . الحيزوم وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام . جمعها حيازيم : الأصبحية السياط واحدها أصبحى نسبة إلى ذى أصبح ملك من ملوك حمير لأنه هو الذى ابتدعها .

(٥) أحدب يقصد العريف نفسه وصفه بذلك لأن السياط قد آذته ونالت منه . أسأر الشارب فى الاناء سؤرا أى ترك فيه بقية . اليراعة القصبة الجوفاء شبه بها قلب العريف الفزع . إجفيلا خائفا مجفلا . يقول لم تترك منه السياط إلا رجلا فزعا مروعا .

(٦) شمس طوال وهو وصف للسياط . البضيع اللحم .

يدعو أميرَ المؤمنين ودونه خَرْقٌ تجرُّ به الرياحُ ذُيولا (١)
كهداهدٍ كسر الرماةُ جناحه يدعو بقارعةِ الطريقِ هديلا (٢)
وَقَعَ الرَّبيعُ وقد تقَاربَ خَطوُه ورأى بعِقوَته أزلَّ نَسولا (٣)
مُتوشّحَ الأقرابِ فيه نَهْمَةٌ نهشَ اليدين تخاله مَشْكُولا (٤)
أخليفة الرحمن إن عشيرتى أمسى سَوامُهم رِعزِينَ فُلُولا (٥)
قطعوا اليمامة يُطرَدُون كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا
يحدون حدْباً مائلا أشرافُها فى كل مَقْرَبَةٍ يدَعْنَ رعيلا (٦)
شهرَىْ ربيع ما تذرقُ لبُونُهم إلا حُمُوضاً وَخمةً وذَبيلا (٧)
وأتاهمُ (يحيى) فشدّ عليهم عَقْدًا يراه المسلمون ثقيلا
كُتُباً تركن غنيَّهم ذا عيلَةٍ بعد الغِنَى وفقيرَهم مهزولا
فتركتُ قومى يَقْسِمون أمورَهم أإليك أم يَتَربَّصُون قليلا

---

(١) الخرق بفتح الخاء الصحراء الواسعة التى تخترقها الرياح .
(٢) الهداهد الحمام الكثير الهدهدة . الهديل صوت الحمام .
(٣) العقوة ما حول الدار والمحلة . أزل قليل اللحم يعنى الذئب . نسول تساقط شعره لجوعه فهو شرس .
(٤) متوشح الأقراب . كل هذا وصف للذئب . الأقراب الخاصرة . نهش قليل اللحم ، يشبه عريف قومه فى خوفه من الجباة بحمام ضعيف رأى ذئبا شرسا هذه صفاته يقترب من محلته .
(٥) سوامهم إبلهم التى تستام الكلأ أى ترعاه . عزين جماعات . الفلول جمع فل بفتح الفاء وهو المهزوم المتفرق .
(٦) يحدون يسوقون . الحدب الابل المهزولة . أشرافها أسنمتها . وإنما تميل أسنمتها لضعفها وقلة شحمها . المقربة الطريق فى الجبل . الرعيل القطيع .
(٧) الحموض جمع حمض بفتح الحاء وهو ما ملح وأمر من النبات . الأرض الوخمة التى لا ينجع كلؤها . الذبيل اليابس من النبات .

أنت الخليفةُ عَدْلُه ونواله ... وإذا أردتَ لظالِمٍ تنكيلا
فارفع مظالم عيّلت أبناءنا ... عنّا وأنقِذْ شِلْوَنا المأكولا

وهذا هو الفرزدق، يشكو إلى سليمان بن عبدالملك من هذا الأمر نفسه، فيقول إن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة، وأن يصوموا لله، إن أنقذهم بولايتك الملك. وها هم أولاء يوفون نذرهم، بعد أن أهلكهم ظلم من قبلك فلم يبق منهم إلا ألسنا وعظاما. كانوا يحبسون الجند فى الثغور، ويؤخرونهم عن مواعيدهم فى البر والبحر بغير أعطية. وكان الجباة يحاسبون الناس على ما ذهب من مالهم، وما هلك من إبلهم، حتى أصبح أهل العراق يحسدون الميت، لنجاته من عذاب الظالمين. ويقول الفرزدق إن الناس قد أنقذوا من هذا الظلم بولاية سليمان للملك. مشيراً إلى السجون، التى كان الحجاج قد اتخذها لسجن نساء العصاة، ويعجب من أمره فى ظلم أرامل، ليس لهن جريرة، وقد حبس عنهن ما يستحققن من عطاء

كم فيك إن ملكت يداك لنا ... يوما نواصينا من النَّذْر
من حَجٍّ حافيةٍ وصائمةٍ ... سَنَتَيْن أمٍّ أفيرخٍ زُغْر
لم يَبْقَ منهم غيرُ ألسنةٍ ... وأعيظمٍ وحواصلٍ حُمْر[(١)]
ويُجَمَّرون بغير أعطِيَةٍ ... فى البَرِّ من بَعَثُوا وفى البحر[(٢)]
ويُكلِّفون أباعرا ذَهَبَتْ ... جيفًا بَلِينَ تقادُمَ العصر

---

(١) يقول كم فيك من نذر نذرناه إن ملكت يداك نواصينا فى يوم من الأيام. والناصية الرأس. من حج حافية. يعنى قد نذر النساء أن يحجوا سنتين حفاة صائمات. أم افيرخ أم أطفال ضعاف لم يبق منهم غير السنة تنطق وعظام برزت من الهزال. صور بؤس القوم فى حال أطفالهم الضعاف وحزن أمهاتهم عليهم.

(٢) التجمير حبس الجيوش فى المغازى وتأخيرها عن موعد تسريحها. الأعطية جمع عطاء وهو المرتب الذى يصرف من بيت المال.

حتى غبطنا كلَّ محتملٍ يمشى بأعظمه إلى القبر
وتمنت الأحياء أنهم تحت التراب وجىء بالحشر
والراقصات بكل مبتهل من فجٍّ كل عمايقٍ غبر[1]
ما قلتُ إلا الحقَّ تعرفه فى القول مرتجلا وفى الشعر
ما أصبحتْ أرضُ العراق بها ورقٌ لمختبطٍ ولا قشر[2]
أحييت أنفسنا وقد بلغتْ منا الفناء ونحن فى دَبْر[3]
فاقد عزَزْنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبى عن القَسْر
أحيت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهى الكسر
بل ما رأيتُ ولا سمعتُ به يوماً كيوم صواحب القصْر[4]
يوما سيؤمن كلُّ مندفنٍ أو لاحق بأئمة الكفر
فاذكرْ أرامل لاعطاء لها ومسجَّنين لموضع الأجر[5]
لو يبتلونَ بغير سجنهم صبروا ولو حبِسوا على الجمْر

ويصور الفرزدق ظلم الجباة فى موضع آخر من شعره ، يشكوهم فيه إلى الوليد بن عبد الملك ، فيقول إنهم يشقون على الناس ، ويجلدونهم بالسياط حتى يلجئوهم إلى الربا الذى يدخلهم جهنم إرضاء لجشعهم

---

(١) الراقصات الأبل التى ترقص فى سيرها . يحلف بالابل التى تحمل الحجاج من مختلف بقاع الأرض مبتهلين إلى الله .

(٢) الخبط ورق الشجر ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ، يخلط بدقيق أو غيره ويعجن بالماء فتطعمه الابل . وإنما يفعلون ذلك فى أوقات الجدب وانعدام الخضراء . والمختبط الذى يفعل ذلك بابله .

(٣) الدبر هنا الهلاك .

(٤) كان الحجاج يأخذ نساء العصاة فيحبسهن فى قصور ما بين البصرة إلى قصر أنس.

(٥) يصف النساء فى سجون الحجاج ويذكر الخليفة بهن .

أمير المؤمنين وأنت تشفى بعدلٍ يديك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا يكافئنا الدراهمَ فى البدُور[1]
وأنَّى بالدراهم وهى منـا كرافع راحتيه إلى العبور[2]
إذا سقنا الفرائض لم يردها وصدَّ عن الشويهة والبعير
إذا وضعَ السياطَ لنا نهاراً أخذنا بالرِّبا سرق الحرير[3]
فأدخلنا جهنم ما أخذنا من الأرباءِ من دون الظهور[4]
فلو سمع الخليفةُ صوت داع ينادى الله هل لى من مُجير
وأصواتَ النساء مقرَّنات وصبيانٍ لهن على الحجور[5]
إذاً لأجابهن لسانُ داع لدين الله مِغْضَابٍ نَصُور
أمينِ اللهِ يَصْدَع حين يقْضِى بدين محمـد وبه أمُورِ

---

(١) يكافئنا الدراهم فى البدور أى فى كل شهر .

(٢) يريد أن الدراهم عزيزة المنال . والعبور من مطالعة البروج . وهو أن يطلع نجمان معا أو متقاربين .

(٣) السرق جمع سرقة بفتح السين والراء وهى الشقة من الحرير .

(٤) يقول ندخل جهنم بسبب الربا . وإنما ألجأنا إلى ذلك خوفنا على ظهورنا من السياط .

(٥) مقرنات مقرون بعضهن إلى بعض فى الأصفاد .

الأخطـــــل

أول ما نعرف عن أيام غياث بن غوث الأولى، وعن أخبار طفولته، هذه القصة التي تصوره متيما مع زوج أبيه، فى حياة لا تخلو من ضيق وحرمان فهى تؤثر أبناءها بما لذ وطاب من طعام، وتبعث به خلف أعنزها يرعاها، وهو يحتال لنفسه فى الوصول إلى مايشتهى من ألوان الطعام، فيزعم لزوج أبيه أن بعض جيرانها مريض، ولا تكاد تمضى حتى يهوى إلى ما أخفت عنه من تمر وزبيب، فلا يبقى على شىء منه. ثم تعود وقد تنبهت إلى حيلته، وتهم بضربة، فيهرب ويقول فى ذلك.

ألم على عنبات العجوز وشكوتها من غياث لمم[1]
فظلت تنادى ألا ويلها وتلعنُ واللعنُ منها أممْ

وهو هنا صبي محروم، ولكنه متمرد، لا يرضى بما فرض عليه من هذا الحرمان، ولا يعدم الحيلة فى الوصول إلى ما يحب. وهو فى نفس الوقت حسن الاستعداد للشعر، وللهجائى منه بنوع خاص. وصورة أخرى لهذا التمرد والطموح، ولهذه الموهبة الهجائية، تحفظها لنا عنه كتب الأدب، فيما تروى من قصته مع كعب بن جعيل، وكان شاعر تغلب فى وقته، وكان لا يلم برهط منهم الا أكرموه وأعطوه. فنزل على رهط الأخطل فأكرموه، وجمعوا له غنما، وحظروا عليها حظيرة، فجاء الأخطل فأخرجها من الحظيرة وفرقها، فخرج كعب وشتمه، واستعان بقوم من تغلب فجمعوها له، وردوها الى الحظيرة. فارتقب الأخطل غفلته ففرقها ثانية، فغضب كعب وقال: كفوا عنى هذا الغلام وإلا هجوتكم. فقال له الأخطل: إن هجوتنا هجوناك

(١) الشكوة بفتح الشين وعاء من الجلد يتخذ للماء واللبن.

فقال كعب : ومن يهجونى ؟ قال : أنا . فقال له أبوه : أبغزمتك [1] تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ وضربه . والأخطل هنا غلام مبتدىء فى معالجة الشعر ولكنه يطمع أن تكون له فيه مكانة ، ويلتمس السبيل لذلك بهذه التصرفات النزقة . التى تلفت إليه الأنظار . وتجعل له بين الناس أهمية خاصة . فهو لا يرضى أن يكون غلاماً ككل الغلمان . مغموراً خامل الذكر . ولكنه يلتمس الشهرة بأن يفعل الفعلة الكبيرة . التى تغضب الناس وتؤلبهم عليه . ولا يلبث أن ينجح فى إثارة هذا الشاعر الكبير . فيقول له :

شاهدَ هذا الوجهُ غِربَّ الجمه

فيجيبه الأخطل :

فناك كَعبُ بنُ جعيلٍ أمه

ثم يقول فى كعب وأخيه :

هجانى المنتنان ابنا جُعيل وأى الناس يقتلهُ الهجاءُ

ولدتم بعد إخوتكم من استٍ فهلاَّ جئتُمُ من حيث جاؤا

ويقول :

سميتَ كعباً بشرِّ العظامْ وكان أبوك يسمى الُجعَل[2]

وإن محلّك من وائل محلُّ القراد من است الجمل[3]

ويلج الهجاء بعد ذلك بينه وبين كعب . فيقترن اسم هذا الغلام الناشىء بذلك الشاعر المشهور ويتحدث الناس بأمرهما . ويعرف غياث من ذلك الحين بلقب الأخطل . لبذاءته وسلاطة لسانه .

---

(١) فى القاموس المحيط الخذرمة اختلاط الكلام . قلت كأن الكلمة بما تجمع من حروف متنافرة تحكى هذا التنافر الذى يكون فى الكلام المختلط .

(٢) الجعل ضرب من الحشرات التى تقتات بالأقذار تشبه الخنفساء .

(٣) وائل هو الجد الأكبر الذى يجمع بكرا وتغلب (قبيلة كعب والأخطل) .

ولا يزال الأخطل يلتمس الشهرة من طريق الهجاء والإفحاش على الناس حتى يتاح له هجاء الأنصار مستنداً إلى حماية يزيد بن معاوية ، بعد أن عرض الأمر على كعب بن جعيل ، فتحرج منه ودله على الأخطل . ويوافق العرض من هذا الشاب الطموح المغامر هوى فيرحب به ، على ما فيه من خطورة التعرض لهذه الطائفة المعروفة بتاريخها القديم فى الإسلام ، وسابقتها فى تدعيمه وإقراره . فيها جمهم أعنف مهاجمة ، بأبياته المشهورة .

لعنَ الإله بنى اليهود عصابةً ‏ بالجزع بين جلاجل وصرارِ[1]

قومٌ إذا هدَرَ العصير رأيتهم ‏ حمراً عيونهم كجمر النار[2]

ذهَبتْ قريشٌ بالمكارم والعلَى ‏ واللؤم تحتَ عمائم الأنصار

فذروا المعالى لستمُ من أهلها ‏ وخذُوا مَساحِيكم بنى النجار[3]

إن الفوارس يعرفون ظهوركم ‏ أولادُ كل مقبَّح أكَّار[4]

وإذا نَسَبْت ابن الفريعةِ خلته ‏ كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ[5]

ويذيع هذا الشعر . فيحدث فى أوساط الأنصار ضجة هائلة . وتثور ثائرة زعيمهم النعمن بن بشير الأنصارى : فيقدم على معاوية غاضباً : مطالباً بتأديب هذا الغلام النصرانى ، لا يرضى فى ذلك إلا بقطع لسانه . ويغضب معاوية ويهم بالأخطل ، لولا تدخل يزيد فى الأمر ، يترضى أباه حتى يرضى .

---

(١) الجزع منعطف الوادى . جلاجل وصرار موضعان .

(٢) العصير عصير العنب أو ما يعتصر ليخمر . هدر العصير وذلك حين يختمر . أى أنهم يسرفون فى الشراب حتى تحمر عيونهم .

(٣) المساحى جمع مسحاة بكسر الميم اسم آلة يجرف بها الطين والقشر . سحا الطين يسحيه ويسحوه جرفه وقشره . وبنو النجار بيت من بيوت الأنصار وهم قوم حسان بن ثابت الشاعر .

(٤) أكار أجير حراث يحفر الارض .

(٥) ابن الفريعة حسان بن ثابت والفريعة أمه .

والراجح أن هذه الحادثة كانت فى أواخر أيام معاوية بعد سنة ٥٦ ﻫ . فالأخطل يصور يزيد فى قصيدته التى قالها فى هذه المناسبة ولياً للعهد حين يقول:

فأصبحت مولاها من الناس بعده وأحرى قريش أن يهاب ويُحمدا

وإنما بايع معاوية لابنه يزيد سنة ٥٦ ﻫ ، قبل وفاته بأربع سنوات . وقد صور الأخطل فى هذه القصيدة يد يزيد عنده ، وما تعرض له من شر . وهى رائعة ، بل هى فى غاية الروعة ، حين تصور ترضى يزيد لأبيه ، ذلك الملك الصارم وما لقى فيه من جهد .

وإنى غداةَ استعبرتْ أمُّ مالك لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد ابنُ الملوك وسيبه تجللت حِدباراً من الشر أنكدا[١]
وكم أنقذتنى من جَرُور حبالكُم وخرساء لو يُرْمَى بها الفيل بلّدا[٢]
ودافعَ عنى يومَ جِلق غمرة وهمًّا ينسينى السلافَ المهودا[٣]
وبات نجيًّا فى دمشق لحيةٍ اذا عضَّ لم ينم السليم وأقصدا[٤]
يخفِّته طوراً وطوراً إذا رأى من الوجه إقبالا ألح وأجهدا
أبا خالد دافعت عنى عظيمة وأدركتَ لحمى قبل أن يتبددا
وأطفأت عنى نار نعمان بعدما أغذَّ لأمر عاجز وتجردا[٥]

(١) الحدبار الناقة الذاهبة السنام العارية العظام يشبه نفسه فى حال ورطته براكب ناقة هذه حالها .

(٢) الجرور البئر البعيدة القعر . الخرساء الداهية التى تذهل وتخرس .

(٣) جلق غوطة دمشق أو موضع قريب منها . غمرة كربة . السلاف الخمر . المهود المسكن ، وأصل التهويد النوم .

(٤) يقصد بالحية معاوية . السليم الذى لدغته الحية . أقصدت الحية لدغت فقتلت .

(٥) نعمان هو النعمان بن بشير الأنصارى . الإغداذ سرعة السير .

وأشار إلى ذلك فى موضع آخر ، من قصيدة مدح فيها يزيد ، وكان لا يزال وليا للعهد .

فلولا يزيدُ ابنُ الأمام أصابنى قوارع يجنيها علىَّ لسانى
ولم يأتنى فى الصُحف إلا نذيركم ولو شئتم أرسلتمُ بأمانى
فأقسمت لا آتى نصيبين طائعاً ولا السجنَ حتى يمضى الحرمان

ومن ذلك الوقت بدأت صلة الأخطل بيزيد . وزاد فى توثقها توافق طبعيهما . فقد كان يزيد شاعراً وكانت خلائقه بدوية ، ينزع منزع فتيان العرب الذين يهجمون على اللذة ، ولا يحرمون أنفسهم منها ، فاستراح إلى هذا الشاعر البدوى ، الذى تلوح عليه مخايل النباهة ، واتخذه صديقاً ونديما . ولكن الأخطل فيما يبدو ، ظل مكروها من معاوية لم يصل إليه ، فنحن لا نجد فى ديوانه شعراً فى مدحه ، وكل ما نجد أربع قصائد فى مدح يزيد ، اثنتين منهما قبيل وفاة معاوية ، وهما اللتان قدمناهما ، وثنتين بعد وفاته وهما .

بانت سعاد ففى العينين تسهيد واستحقبتْ لبهُ فالقلبُ معمود
وحلَّت ضُبيرةُ أمواه العداةِ وقد كانت تحلُّ وأدنى دارها ثُكُدُ

وهو يشير فى القصيدة الأولى إلى شيبه حيث يقول .

إما ترينى حنَانى الشيبُ من كبرٍ كالنسرِ أرجفُ والإنسان مهدود
فقد يكونُ الصبى منى بمنزلةٍ يوماً ويقتادنى الهيف الرَّعاديد
يا قلَّ خيرُ الغوانى كيف رُغن به فشربُه وشلٌ فيهن تصريد(١)
أعرضْنَ من شمط فى الرأس لاح به فهنَّ منه إذا أبصرْنه حيدُ

---

(١) التصريد السقى دون الرى .

ويقول إن يزيد قد عطف عليه فى محنة ، حين أفرده أهله لجرم ارتكبه ، فأصبح طريداً مشرداً .

جزاك ربك عن مستفردٍ وَحدٍ ... نفاه عن أهله جُرْم وتشريد
مستشرفٌ قد رماه الناسُ كلُّهمُ ... كأنه من سَمُوم الصَّيفِ سفُّود(١)

ويشير إلى عطفه هذا فى القصيدة الأخرى بقوله .

أنتم تداركتمونى بعد ما ذَلقَت ... نعلى وأخرج عن أنيابه الأسدُ
ومن مودَّةٍ أخرى تداركنى ... مثل الرُّدَينى لا واهٍ ولا أودُ

والمرة الأولى ، نرى الأخطل فى هذه القصيدة شاعراً سياساً ، يتجاوز مدح يزيد إلى الدفاع عن الدولة ، ومهاجمة خصومها ، مؤيداً حق الأمويين فى الملك ، مقرراً أن حقهم فيه ثابت ، بولايتهم لدم عثمان .

ويوم صفين والأبصارُ خاشعةٌ ... أمدهم إذ دعوا من ربهم مدَدُ
على الأولى قتلوا عثمانَ مظلمةً ... لم ينههم نشَدٌ عنه وقد نشدوا
فثمَّ قرَّتْ عيون الثائرين به ... وأدركوا كلَّ تَبلٍ عنده قَوَد(٢)
فلم تزل فيلقٌ خضراء تحطمهم ... تنعى ابن عفّانَ حتى أفرخ الصيَدُ(٣)

ويقول ان نصرهم جاء من عند الله . فانتهاء أمر المسلمين إليهم ، دليل على تفضيل الله لهم . وهذه فكرة جديدة ، وقف الأخطل جهده على تقريرها بمختلف الصور والوسائل ، كما نرى :

تمت جدودهم والله فضَّلَهم ... وجَدُّ قوم سواهم خاملٌ نكدُ

---

(١) مستشرف على البناء للمفعول بمظلوم من قولهم استشرفه حقه أى ظلمه . والسفود الحديدة التى يشوى بها اللحم و نسميها الآن (سيخ) .
(٢) التبل الثأر . القود القصاص .
(٣) الصيد الكبر . أفرخ سكن .

هم الذين أجابَ اللهُ دعوتهم لما تلاقتْ نواصى الخيل فاجتلَدُوا
..قومٌ إذا أنعموا كانت فواضلهم سيباً من الله لامنٌّ ولاحسد
..ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ثم هو يهاجم أعداءهم من القيسية وأصحاب صفين :

ويوم شرطة قيسٍ إذ مُنِيت لهم حنَّتْ مثاكيلُ من إيقاعكم نُكُدُ[١]
ظلوا وظل سحابُ الموت يمطرهم حتى توجَّهَ منهم عارضٌ برد[٢]
والمشرفيةُ أشباهُ البروق لها فى كل جمجمةٍ أو بيضةٍ خددُ[٣]
ويومَ صفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ويختم القصيدة بهذا البيت القوى يخاطب به يزيد

والمسلمون بخيرٍ ما بقيتَ لهم وليس بعدك خيرٌ حين تفتقدُ

من ذلك الوقت ، لم يعد الأخطل صديقاً ليزيد فحسب ، ولكنه أصبح شاعراً أمويا ، أعد نفسه للدفاع عن سياسة هذه الدولة ، ومهاجمة أعدائها ، فنال عندهم حظوة رفعت من شأنه فى قبيلته ، حتى احتل منها مكان الزعامة ، وحتى كانت بكر بن وائل إذا تشاجرت رضيت به حكما ، فكان يدخل المسجد فيقدمون إليه .[٤] وعظم جاهه حتى اتخذ دار ضيافة . قال أبو الفرج : كان للأخطل دار ضيافة . فمر به عكرمة الفياض وهو لايعرفه ، فقيل له — هذا

(١) يقول قدرك الله لأعدائك يوم مرج راهط إذ أوقعت بهم فأثكلت الأمهات وأبكيتها على قتلاها .
(٢) العارض السحاب المعترض فى الأفق . البرد الذى يمطر بردا .
(٣) البيضة الخوذة . خدد يقصد بها الجراح . والخدة فى الأصل الحفرة المستطيلة فى الأرض .
(٤) الأغانى ٨ : ٣٠٣

رجل شريف قد نزل بنا . فلما أمسى بعث إليه فتعشى معه ثم قال له : أتصيب من الشراب شيئاً ؟ قال — نعم . وإذا عنده قينتان خلفه ، وبينه وبينهما ستر ، وإذا الأخطل أشهب اللحية له ضفيرتان ، فغمز الستر بقضيب فى يده ، وقال : غنيانى بأردية الشعر ، فغنتاه بقول عمرو بن شاس :

وبيضٍ تطلىَّ بالعبير كأنما يطأنَ وإن أعنقْنَ فى جدَدٍ وحلا

لهونا بهـا يوماً ويوماً بشاربٍ إذا قلتُ مغلوباً وجدتُ له عقلا[1]

ولم يصرفه مكانه من الأمويين عن رعاية قبيلته ، وتتبع شئونها ، ومهاجمة أعدائهـا .

وقد علمت أفناء تغلب أننى نضارٌ ولم أنبت بقرْقرةٍ أثلا[2]

وأنى يوماً لا مضيعٌ ذمارَها ولا مفاتى هاجٍ هجا تغلباً بطلا

بل لقد استغل مكانته هذه عند الأمويين ، فى إصلاح أمر قومه ، كلما وجد لذلك سبيلا . وكان مثال الزعيم القوى ، الذى يحرص على وحدة القبيلة واجتماع كلمتها . فهو إذا وقع بينهم خلاف ، تدخل مصلحا ، وسعى فى حقن الدماء خوفا من أن يقع بأسهم بينهم ، فتذهب ريحهم ، وتهن قوتهم ، ويطمع فيهم عدوهم . فكان يحتمل الحمالات عن الجناة ، ويدى القتلى ، ساعيا بين وجهاء القبيلة وأثريائها ، ويستعينهم على ما احتمل من غرامات، فيمدح من يعينه منهم مشيدا بوفائه للقبيلة وبذله فى سبيلها ، ويهجو بخلاهم ، الذين يمتنعون عن المساهمة بأموالهم فى الإصلاح . قال صاحب الأغانى : أتى الأخطل الكوفة فأتى الغضبان بن القبعثرى الشيبانى ، فسأله فى حمالة . قال : إن شئت أعطيتك ألفين . وإن شئت أعطيتك درهمين . قال : وما بال الالفين وما بال الدرهمين

---

(١) الأغانى ٨ : ٣١٨

(٢) أفناء تغلب قبائلها . الفضاء الذى ينبت فى الجبل فيكون خشبه صلبا . القرقرة الأرض المطمئنة اللينه يكون خشبها هشا ضعيفا :

قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها إلا قليل ، وإن أعطيتك درهمين لم يبق في الكوفة بكرى إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا إلى إخواننا بالبصرة ، فلم يبق بكرى إلا أعطاك درهمين ، نخفت عليهم المؤونة ، وكثر لك النيل ، قال: فهذه إذن . قال نقسمها لك على أن ترد عينا ...[1] ويروى الأصفهانى فى بقية الخبر ، أن الاخطل قدم على أبى سويد بن منجوف السدوسى بالبصرة ، فلم يعطه شيئاً ، وحض قومه على الامتناع ، مذكرا إياهم بما بين تغلب وبكر من قديم العداء . فهجاهم الأخطل بقوله :

فإن تبخل سدوسُ بدرهميها   فإن الريح طيبةٌ قبول
تواكلنى بنو العلاّت منهم   وغالَبَ مالكاً ويزيد غول
صريعًا وائلٍ هلكا جميعاً   كأن الأرض بعدهما محُول

وهجا سويد بن منجوف بقوله :

وما جِذْع سوءٍ خرّبَ السُّوس أصله   لما حملَتْه وائلٌ بمطيق
تطيف سدوسٌ حوله وكأنها   عصىٌّ أشاء لوحَتْ بحريق[2]
جمادُ الصفا ما إن يبضُّ بقطرةٍ   ولو كان ذا زراعةٍ ورقيق[3]
فإن نعف عن حمران بكر بن وائل   فما إن لنا سودانهم بصديق

ووفد الأخطل الكوفة ، فأتى حوشب بن رويم الشيبانى ، وقال : إنى تحملت حمالتين ، لأحقن بهما دماء قومى ، فنهره . فأتى سيار بن البزيغة، فاعتذر إليه . فأتى عكرمة الفياض ، وكان كاتبا لبشر بن مران ، فسأله وأخبره بما رد

(١) الأغانى ٨ : ٣١٠
(٢) الأشاء النخل . لوحت سودت وصفهم بالسواد والنحول .
(٣) الجماد الناقة التى لالبن لها والجماد أيضا السنة المجدبة ، الصفا الحجارة يعنى أنه بخيل كالصخرة لاينبدى .

عليه الرجلان ، فقال : أما إنى لا أنهرك ولا أعتذر إليك ، ولـكنى أعطيك إحداهما عينا والأخرى عرضا[١] وفى ذلك يقول الإخطل :

إن ابن ربعى كفانى سيبه ضغنَ العـدو ونبوةَ البخّال
أغلَيْتَ حين تواكلتنى وائلٌ إن المكارم عند ذاك غوالى
ولقد شفيتَ مايلتى من معشر نزلوا بعقْوة حيَّةٍ قتال[٢]
بعدت قعورُ دلائهم فرأيتهم عند الحمالة مغلقى الأقفال
ولقد مننت على ربيعة كلها وكفيت كلَّ مواكلٍ خذال
كَزْم اليدين عن العطية ممسكٍ ليست تبضُّ صفاته ببلال[٣]
مثل ابن بزغة أو كآخر مثله أولى لك ابن مُسيمةِ الأجمال[٤]
إن اللئيم إذا سألت بهرتَه وترى الكريم يراحُ كالمختال[٥]
وإذا تبوّعَ للحمالة لم يكن عنها بمنبهر ولا سعّال[٦]
وإذا المئون تؤُكلت أعناقُها فاحمل هناك على فتى حمّال[٧]
فهو الجوادُ لمن تعرض سيبه وابن الجواد وحامل الأثقال

(١) الأغانى ٨ : ٣١٩
(٢) المليلة الحمى الباطنة والحر الكامن فى العظم : استعاره لرغبة الانتقام . العقوة الساحة والمباءة والمحلة .
(٣) الكزم الضيق الكف القصير الأصابع كنى بذلك عن بخله . الصفا الحجر . تبض صفاته تندى . بلال وبلل واحد .
(٤) ابن البزيغة يعنى به سيار بن المنذر ويقصد بالآخر حوشب بن رويم الذين ورد ذكرهما فى القصة السابقة . ابن مسيمة الأجمال يعيره بأن أمه كانت ترعى الابل كالاماء.
(٥) بهره كلفه فوق طاقته . يراح أى تأخذه أريحية فيهتز زاهيا بنفسه .
(٦) تبوع للحمالة مد باعه لها :
(٧) تؤكلت اتكل كل واحد على صاحبه . أعناقها جماعاتها .

ويشير الأخطل فى موضع آخر من شعره إلى هذه الحمالات ، مثنيا على من يفى للقبيلة ، فيستجيب لدعائها وقت الشدة ، معرضا بمن يقعد عن المشاركة فيما يلم بها ، حيث يقول :

سعى لى قومى سعى قوم أعزَّةٍ فأصبحت أسمو للعلى والمكارم
تمنّوا لنبلى أن تطيش رياشها وما أنا عنهم فى النضالِ بنائم
وما أنا إن جارٌ دعانى إلى التى تحمَّل أصحاب الأمور العظائم
ليسمعنى والليلُ بينى وبينه عن الجار بالجافى ولا المتناوم
ألم تر أنى قد وديتُ ابنَ مرْفق ولم تُودَ قتلى عبد شمس وهاشم (١)
جزا الله فيها الأعورين مذمةً وعبدة ثفْر الثورة المتضاجم (٢)
فأعيوا وما المولَى بمن قلّ رِفدُه إذا أجحفَتْ بالناس أحدى العقائم (٣)
وما الجار بالراعيك ما دمت سالمًا ويزْحلُ عند المضلع المُتَفاقِم

هذه المنزلة الكبيرة التى احتلها الأخطل عند البيت الحاكم من جهة أخرى ، قد ربطت بين التغلبين والإمويين ، وكان لها أثر عظيم فى توجيه سياسة القبيلة ، وتعليق مصالحها بقيام البيت الأموى . وقد ظهر أثر ذلك واضحاً فى أيام الفتنة التى تلت موت يزيد بن معاوية ، فقد شذت تغلب على قبائل العراق ، التى كانت يدا واحدة على الأمويين ، وقد بعثت من جديد تلك الحزازات القديمة بين الشام والعراق ، فوقفت موقفاً ظاهره الحياد ، وباطنه الولاء للأمويين . كانت النصرانية غالبة على تغلب ، فلم يكن يقبل منهم

---

(١) ولم تود قتلى عبد شمس وهاشم هؤلاء رجال من قومه ذمهم لأنهم لم يعينوه فى حمالة فقتلوا .

(٢) الثفر للسباع بمنزلة الحياء للناقة وهو فرجها . وقد يستعار من السباع فيجعل للانسان . الثورة يقصد بها أنثى الثور أو البترة . المتضاجم المائل .

(٣) المولى هنا ابن العم المخلص لقبيلته . الرفد العطاء . العقائم الشدائد .

رأى فى خلافة المسلمين ، ولم يكن من شأنهم أن يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من حروب ، فى سبيل إقرار هذا الخليفة أو ذاك . فاعتزلوا أول الأمر إلا قليلا من رجالهم المسلمين ، كانوا يغيرون مع عمير وزفر على كلب واليمنية ويدلونها (١) ولكن القبيلة فى معظمها ظلت على حيادها الشاذ ، وسط هذه الكتلة الزبيرية ، التى تحيط بها من كل مكان ، تترقب الظروف ، وتشارك الأمويين بعواطفها ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً . ولم يكن بد من أن ينتهى موقفها بالحرب ، فالقيسية لا ينقطعون عن التحرش بهم ، لما هو معروف من ميلهم الأموى ، فهم يستاوون جوارهم ، ويسخرون مشايخهم من النصارى ، ويغيرون على إبلهم وماشيتهم . كل ذلك والتغلبيون يؤثرون السلم ، لكثرة عدوهم جولهم . فهم يشتكون إلى زعيمهم عمير بن الحباب ، فلا ينهرهم ولا يكفهم ، فيتمادون فى الإعتداء ، حتى ثارت ثائرة التغلبيين مستقتلين ، تتقدمهم أعلام النصرانية ، قد رسم عليها الصليب ، وفى ذلك يقول الأخطل :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وسماً ناقعاً
والخيل لا تحملُ إلا دارعاً والبيض فى أيماننا قواطعا
خلوا لنا الثرثارَ والمزارعا وحنطةً طيساً وتمراً يانعا (٢)

وتتابعت الوقائع بين تغلب وبين القيسية . الذين كان يتزعمهم الجحاف بن حكيم وعمير بن الحباب السلمى وزفر بن الحارث الكلابى . ووقف الأخطل الموقف الذى ينبغى لمثله ، يسجل انتصارات قومه ، ويهاجم القيسية وشعراءهم ، كالنابغة الجعدى ، ونفيع بن صفار المحاربى ، تميم بن أبى بن مقبل . وكان من أعنف ما هجاهم به :

ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بدرٍ وإن كان حيانا عدَى آخرَ الدهرِ

(١) ابن الأثير ٤ : ٣
(٢) الطيس الكثير من المال والرمل والماء .

وهو يتتبع فيها قبائل قيس باعنف الهجاء وأفحشه ، ويفتخر بقتل ابن الحباب ، معتداً بذلك عند الأمويين . والقصيدة تمتاز بقوة التصوير الهجائى ، الذى ينزل إلى الفحش البذئ فى بعض الأحيان ، وبالقسوة الوحشية تصوير مناظر الحرب البشعة ، وطول النفس ، مع الاحتفاظ بالمستوى الشعرى الممتاز حتى البيت الأخير منها . انظر إلى ما فى شعره من عنف حين يخاطب القيسية :

لقد حملتْ قيسَ بنَ عيلان حربنا — على يابس السيساءِ محدودب الظهر[1]

ركوب على السَّوْءات قد خرَّم آسته — مقارعةُ الأعداءِ والنخسُ فى الدُّبر

وانظر إلى بنى محارب فى جلبتهم وضوضائهم ، كأنهم الضفادع التى لا تنقطع عن النقيق ، تتجاوب أصواتها ، فتجنى على نفسها ، لأنها تدل حية البحر على موضعها :

تنقُّ بلا شىء شيوخُ محارب — وما خلتها كانتْ تريشُ ولا تبرى

ضفادعُ فى ظلماء ليل تجاوبتْ — فدل عليها صوتها حيَّةَ البحر

ثم انظر إلى هذه الصورة البشعة ، التى يخوض فيها حين يخاطب الشاعر القيسى نُفَيْعَ بن صفار المحاربى ، وإلى استخفافه به وبشعره ، الذى لا يثبت لشعر الأخطل ، فكأنه إفك فرعون وسحرته ، أمام حية موسى ، لا يلبث أن يتضاءل ويزول :

وكان ابن صَفَّار هجين محارب — كمقتبس منى شهاباً على ذعر

وقد وَسَمَتْ عينيه إذ طَرَّقتْ به — من الوُرْق دفراءُ المقَذَّين والنحر[2]

---

(١) السيساء العمود الفقرى الذى ينتظم فقار الظهر فى الحيوان . صور ما يحتملون من الحرب بما يحتمل الراكب على دابة عجفاء محدودبة الظهر بارزة فقاره .

(٢) طرقت المرأة والقطاة إذا عسر خروج الولد والبيضة . رجل ورق وامرأة ورقة خسيسان . دفراء المقذين . الدفر نتن الرائحة المقذان ما خلف الأذنين . ولهذا =

إذا انفرجت عنه الأشاعر رَدَّه　　عن القَصد بظرٌ مثلُ أرنبة النسر
تخلَّ ابنَ صفار فلا تَرُم العلى　　ولا تذكُرَنْ حيَّات قومك فى الشعر
فقد نهضَتْ للتغابيين حيةٌ　　كحية موسى يوم أيد بالنصر

وانظر إلى هذا الشاعر القيسى الآخر ، تميم ابن أبى بن مقبل العامرى ، وإلى رهطه بنى العجلان ، يسودهم قومهم وهم من ألأم الناس . وتأمل هذه الصورة الساخرة ، التى يصور فيها هؤلاء الذين يتزعمون الناس ، يبخلون على غلمانهم بالزاد ، حتى يكاد يقتلهم الجوع ، ولا يزال غلامهم يبكى من شدة جوعه ، وقد تعبس وجهه ، وراح فى بكائه يدلك عينيه بيديه ، كأنه الخفاش ، حتى تمل الوليدة كثرة صياحه ، فتلقى به فى زاوية مظلمة من أركان البيت ، مصممة أذنيها عن صراخه . وانظر إلى رثاثة نسائهم وقماءتهن ، يتكلفن من أعمال الرعى وحمل المتاع ، قد لصقت الأوضار بجلودهن ، كأنما طليت سواد القدر . وتآكلت كعوبهن من طول الرعى . ويبست أعجازهن من حمل القرب ومراكب النساء :

إذا التمس الأقوامُ فى الناس ذِكرَهم　　فذِكرُ بنى العَجْلان من أقبح الذِكْرِ
وقد سرنى من قيس عيلان أننى　　رأيتُ بنى العَجْلانِ سادُوا بنى بَدْر
وقد غَبَّرَ العجلانُ حيناً إذا بكى　　على الزادِ ألقَتْه الوليدةُ فى الكِسْر
فيُصبحُ كالخُفّاش يدلكُ عينَه　　فقُبِّحَ من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْر
وكنتم بنى العَجْلان أقصرَ ايدِياً　　والأمَ من أن تبلُغوا عالِىَ الأمر
بَنى كلِّ دسماء الإهابِ كأنما　　كساها بنو العجلان من حُمَمِ القِدْر

═ البيت والبيت الذى يليه وصف لسر ولادة نفيع بن صمار وهو تصوير يشمئز منه البدن . وهذه البشاعة والوحشية والتصوير الكالح الفظ من مميزات الأخطل كما سنرى .

نرى كيتها قد زال من طولِ رَعْيِها وقَاحَ الذُّنَابَى بالسوِيَّة والزفْر(١)

وانظر إلى هذه الصورة البشعة، التى يصور فيها امرأة من نساء قيس، قد أثخنتها الجراح، فخرت صريعة على الأرض، قد تدلى منها جنينها، ملففاً فى هذه اللفائف التى تكون على الجنين فى البطن، والطير تحوم من حولها تضرب عينيها، وتعبث بأحشائها، وهى تلفظ آخر أنفاسها:

وكم من جنين بات ينزِعُ نفسَه لقَيْسِيَّةٍ قد هكَّها السيفُ بالخصْر

سُليميَّةٍ سوداء أو عامريَّةٍ تجُرُّ سِلاها حين تنهضُ بالصَّدْرِ(٢)

بها رَمَقٌ فالطيرُ تبقر بطنَها وتضربُ عينيها قوادِمُ من نَسْر

وانظر إلى هذه الصورة الدقيقة الرائعة. التى يصورفيها هذا السيد القيسى الذى أخذته الرماح من كل مكان، حتى ألجأته إلى الهرب. فهو يستحث فرسيه على العدو، وقد تحلب من أعطافها الماء. كأن فى بطنها ومجري حزامها قرباً تسح الماء. ترمى برجليها موسعة الوثب. ولا تكاد تمس الأرض. كأنها تسبح فى الفضاء، أو تعوم فى بحر من الغبار المتكاثف، الذى يثيره من حولها هذا الزحام المضطرب العنيف. والرماح تنوشه من كل جانب، تكاد تناله ولما تنله، وقد انخلع قلبه من الذعر، فراح يلهب ظهر الفرس فى عدو جنونى. فكأنه عقاب يسرع إلى وكره، وقد أقبل عليه ظلام الليل. ويظل فى شدة فزعه وذهوله، يفديها بنفسيه وأمه، قائلا: فدى لك أمى إن دأبت إلى العصر. وبالله لو أدركته الرماح، لتركته جثة مهملة فى الصحراء يتوسد كفه ولا يضمه قبر، فهو نهب الضباع وكواسر الوحوش.

(١) الذنابى يعنى به هنا العجز. قاح من القيح. السوية القتب العارى. الزفر الحمل يقول إن عجزها قاح من كثرة ما تحمل الحمول وتركب الدواب على القتب عارياً فيجرحها ويؤذيها.

(٢) السلى الكيس الذى يكون الجنين فى داخله.

ونجّى ابنَ بدرٍ ركضُه من رماحِنا بنضّاحةِ الأعطافِ مُلْهَبَةِ الحضرِ (١)
إذا قلتُ نالته العوالى تقاذفتْ به سَوْحَقُ الرِجْلين سابحةُ الصدرِ
كأنهما والآلُ ينجاب عنهما إذا هبطا وعثاً يعومان فى غَمْرِ (٢)
كأنّ بطبيَيْها ومجرى حِزامها أداوَى تسُحُّ الماءَ من حَوَرٍ وُفْرِ (٣)
فظلّ يفدّيها وظلّت كأنها عقابٌ دعاها جُنْحُ ليلٍ إلى وكْرِ (٤)
وظل يجيشُ الماء من مُتَفَصِّد على كلِ حالٍ من هزائمِه يجرى
يُسِرُّ إليها والرماحُ تنوشه فدًى لكِ أمى إنْ دأبتِ إلى العَصْرِ
وباللهِ لو أدركْنَه لاضطرَرْنَه إلى صَعبةِ الأرجاءِ مظلمةِ القعْرِ (٥)
فوسَّدَ فيها كفَّه أو لَحجّلتْ ضِباعُ الصحارى حولَه غيرَ ذى قبرِ

وهو فى آخر القصيدة يتجه إلى الخليفة فيقول : إننا نستغنى بك عمن عداك ، فما بنا من حاجة إلى صلح قيس وأنت أمير المؤمنين . لقد بايعت قيس ، وفزعت إليك تطلب العذر عما قدمت ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك عن إسلام أو هوى ، وإنما دفعهم إليه الذل كارهين . ويفتخر بعد ذلك

---

(١) نضاحة الأعطاف يعنى فرسا تنضح أعطافها بالعرق لشدة ما أجهدها الجرى ، الحضر العدو . ملهبة العدو ألهبت ليستخرج أقصى ما عندها من العدو . سوحق الرجلين طويلتهما . سابحة الصدر كأن صدرها سابح فى الفضاء لسرعتها فهى لا تكاد تمس الأرض .

(٢) كأنهما يعنى ابن بدر وفرسه . ينجاب ينكشف إذا دخلا فيه ثم ينطبق عليهما فينغمسان فيه . الوعث الأرض السهله الرخوة تغيب فيها الأقدام . الغمر الماء الكثير يشبهه حين يحيطه الغبار الذى يثور حوله وحول فرسه بالذى يسبح فى ماء .

(٣) الأطباء : الأثداء واحدها طبى بضم الطاء وسكون الباء . الحور جلد مدبوغ . وفر ضخام. يصف العرق الذى يتحلب من بين ثدييها ومن موضع حزامها بالماء المتدفق من قرب ضخام .

(٤) يفديها يقول لها (جعلت فداك) .

(٥) صعبة الأرجاء مظلمة القعر ، ذلك هو القبر أو الحفرة الضيقة التى يوارى فيها .

بموقف قبيلته من الدولة وعدائها لمصعب بن الزبير ، ومحاربتهم جنده من القيسية ، وقتلهم رأسهم الذى دفعهم إلى الفتنة ، عمير بن الحباب :

وأنت أميرُ المؤمنين وما بنا ... إلى صلح قيسٍ يا ابنَ مروان من فقر

فإن تكُ قيسٌ يا ابن مروان بايعت ... فقد وهِلت قيسٌ إليك من العذر (١)

على غير إسلامٍ ولا عن بصيرة ... ولكنهم سِيقُوا إليك على صُغْر (٢)

ولما تبينّا ضلالةَ مصعبٍ ... فتحنا لأهل الشام باباً من النصر

فقد أصبحتْ منى هوازنُ كلها ... كواهِي السُّلاَمَى زيدَ وَقْراً على وَقْر (٣)

سمَوْنا بِعرْنينٍ أشمَّ وعارضٍ ... لنمنعَ ما بين العراق إلى البِشْر (٤)

فأصبح ما بين العراق ومَنْبِجٍ ... لِتغلب تَرْدِي بالرُدَيْنيَّة السمر

إليك أميرَ المؤمنين نَسيرُها ... تخُبُّ المطايا بالعَرانين من بكر

برأسِ امرئٍ دَلَّى سليماً وعامراً ... وأورد قيساً لُجَّ ذى حَدَبٍ غَمر (٥)

فأسرَيْنَ خمساً ثم أصبحن غُدوَةً ... يُخبِّرن أخباراً ألذَّ من الخمر

ومما يصور قسوة الأخطل الوحشية فى الهجاء ، وبشاعة تصويره لمناظر القتال ، هذه الأبيات التى يصف فيها جثة عمير بن الحباب ، وقد تركت فى الصحراء عارية من الأكفان ، تنبعث منها الروائح العفنة ، فتدل الضباع

---

(١) الوهل الفزع . أى أن قيساً فزعت إليك تطلب عذراً عما قدمت .

(٢) الصغر الذلة والهوان .

(٣) السلامى عظام خف البعير . الوقر الصدع .

(٤) العرنين الأنف يريد الشرف . العارض الجمع الكثير وأصله السحاب . البشر ماء لبنى تغلب .

(٥) أورد قيساً لج ذى حدب غمر ، أى أوردها بحراً من المصائب . ذو الحدب البحر . الغمر الكثير الماء .

على موضعها ، ومن حولها جثث مبعثرة على جوانب الوادى ، قد انتفخت بطونها ، وخرجت أحشاؤها :

أمعشَرَ قيسٍ لم يمتَّع أخوكم ... عميرٌ بأكفانٍ ولا بطَهُور

تدلُّ عليه الضبعَ ريحٌ تضوعتْ ... بلا نَفْحِ كافورٍ ولا بعبير

وقتلى بنى رعل كأن بطونَها ... على جَلْهَةِ الوادى فى بطونُ حمير (١)

ومن قصائده التى تمتاز بالفحش ، وبالاعتماد على الصور الهجائية ، قصيدته فى هجاء النابغة الجعدى أحد شعراء قيس :

لقد جارَى أبو ليلى بِقَحْمٍ ... ومنتكثٍ على التقريب وانِ (٢)

فمن إفحاشه فيها قوله :

خنافسُ أُدلِجَتْ لمبيتِ سوءٍ ... ورِثْنَ فِراشَ زانيةٍ وزان

وما أمُّ الربوتَ على يديْها ... بطاهرة الثياب ولا حَصَانِ

كأن عِجَانَها لَحيا جزُورٍ ... تحسَّرَ عنهما وضَرُ الجِرَانِ (٣)

وقد عرف الأمويون لتغلب وشاعرها إخلاصهم للدولة فى محنتها ، وقتالهم فى سبيلها ، فأعظموا مكانهم ، وقربوا الأخطل ، حتى بلغ فى بلاط عبد الملك قمة مجده السياسى ، فكان شاعر الدولة المقدم . ولقد بلغ من جرأته على الخليفة ، أنه كان فى شعره يمن عليه سابق صنعه له ، ولا ينقطع عن الإدلال

---

(٩) جلهتا الوادى جانباه .

(١) أبو ليلى : كنية نابغة بنى جعدة . القحم الفرس الكبير السن المهزول الهرم . التقريب ضرب من العدو . المنتكث والمنتكس الضعيف . يعيره كبر سنه وعجزه عن المضى فى مساجلته الشعر .

(٢) العجان ما بين القبل والدبر . اللحى منبت اللحية من الانسان وغيره . الجزور الناقة المذبوحة . الوضر وسخ الدسم واللبن . جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

بموقف قبيلته فى تيه وعجب ، وكان عبد الملك ، مع ما هو معروف من قوته وهيبته ، يحتمل منه كل ذلك . بل لقد استطاع أن يقول له في إحدى مدائحه ، إن قبيلته أقرت ملك الأمويين :

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنين بنا ... لما أتاك ببطن الغوطةِ الخبَرُ[(١)]

واستطاع أن يذهب فى الجرأة إلى أبعد من ذلك ، حين نقض الجحاف عهده ، فأوقع بتغلب فى البشر . فهو يتهم الخليفة بالتقصير فى حماية قومه ، ويجعله مسئولا عمن قتل منهم ، فيطالبه بأن يغرم عن القيسية دماءهم ، قائلا إن الحمالة مهما تثقل فدم القوم أثقل . وهو يهدد الخليفة بالخروج معتداً بقوة قومه :

لقد أوقع الجحافُ بالبِشْر وقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمعول

فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذمّةٍ ... وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّلُ[(٢)]

بنزوة لصٍ بعد ما مر مصعبٌ ... بأشعثَ لا يُفْلَى ولا هو يُغْسل[(٣)]

أآمَرَكَ الجحافُ ثم أمرتَه ... بجيرانكم وسط البيوتِ تُقَتَّلُ؟[(٤)]

لقد كان للجيران ما لو دَعَوْتُمُ ... به عاقِلَ الأَرْوى أتتكم تنزَّلُ[(٥)]

فإن لا تُغيِّرها قريشٌ بمُلكها ... يكنْ عن قريش مُستمازٌ ومَزْحل[(٦)]

---

(١) الغوطة غوطة دمشق .

(٢) حبل ضعيف ، يقصد العهد الذى بين قومه وبين الأمويين ، يصفه بالضعف لأن الخليفة لم يستطع أن يحمى قومه من الجحاف السلمى حين أوقع بهم .

(٣) يقصد باللص الجحاف . يقول له فعلتم هذا بعد أن قتلنا لكم مصعب بن الزبير .

(٤) يتهكم بالأمويين يقول هل استأذنكم الجحاف فى قتل جيرانكم الذين يحتمون بكم فأذنتم له .

(٥) الأروى جمع كثرة للأروية وهى أنثى الوعول . والعاقل المتمنع فى الجبال العالية . يقول لقد كان للجيران عليكم عهداً ينزل الأروى المعتصم بأعالى الجبال .

(٦) مستماز من ماز الرجل وامتاز واستماز انتقل من مكان إلى مكان متنحيا .

ونُعْزِزُ أناساً عَرَّةً يكوهونهـا ... ونحمى كراماً أو نموتُ فنقتلُ (١)

وإن تحملوا عنهم فما من حَمالةٍ ... وإن ثقُلتْ إلا دمُ القومِ أثقلُ (٢)

وإن تعرِضُوا فيها لنا الحقَّ لم نكن ... عن الحقِّ عمياناً بلى الحقَّ نسألُ

وقد ننزِلُ الثغرَ المخوفَ ويُتَّقى ... بنا البأسُ واليومُ الأغرُّ المحجَّلُ

كان الأخطل لسان الحكومة الذى يعبر عن رأيها واتجاهاتها . فهو يصور بغض الأمويين لهذا الحزب القيسى ، الذى ظل مكروهاً من عبدالملك ، لا يقربه ولا يثق به . فلا تكاد تخلو قصيدة فى مدح عبد الملك من هجائهم ، والتحدث عن نفاقهم ، ونبش قديم كيدهم للدولة وانحرافهم عنها . يقول فى قصيدته :

لعمري لقد أسريتُ لا ليلَ عاجزٍ ... بساهمة الخدَّين طاوية القُرْبِ (٣)

. . . عتبتم علينا قيس عيلان كلكم ... وأىُّ عدوٍ لم نُبِتْه على عَتْب

لقد علمت تلك القبائل أننا ... مصاليتُ جذّامون آخيةَ الشَّغْبِ (٤)

فإنْ تكُ حربُ ابنَىْ نزار تواضَعَت ... فقد عذرَتْنا من كلابٍ ومن كعبِ

وفى الحُقْبِ من أفناءِ قيسٍ كأنهم ... بمَرج الثرثارِ خُشُبٌ على خشب (٥)

---

(١) عره بشر لطخه به وقد يكون من العر وهو الجرب .

(٢) الحمالة الدية والغرامة .

(٣) السرى سير الليل . الساهم الشاحب الضامر . القرب جانب السرة .

(٤) المصلات الشجاع . الجذم القطع . الآخية خشبة تدفن فى الأرض يشد فيها حبل الدابة . الشغب تهييج الشر .

(٥) الحقب جمع أحقب وهو الحمار الوحشى الأبيض فى حقويه ، أفناء قيس أخلاطهم . الثرثار واد عظيم بالجزيرة وهو فى البرية بين سنجار وتكريت تسكنه تغلب ، وبه كانت وقائع مشهورة بينهم وبين قيس عيلان فى أيام الفتنة الثانية .

وهنَّ أذقنَ الموتَ جزءَ بنَ ظالم ... بماضيةٍ بين الشراسيفِ والقُصْبِ (١)
فظلَّت بنو الصمعاءِ تأوى فلولهم ... إلى كل دسماءِ الذراعين والعقْبِ (٢)
وقد كان يوما راهطٍ من ضلالكم ... فناء لأقوامٍ وخَطباً من الخطب
تُسامون أهل الحقّ بابنَىْ محاربٍ ... ورهط بنى العَجْلانِ حسبُكَ من ركب (٣)
قرومُ أبى العاصى غداةَ تخمَّطت ... دمشقُ بأشباه المهنَّأةِ الجُرب (٤)
يقودون موجاً من أمية لم يرِثْ ... ديارَ سليمى بالحجاز ولا الهضب
ملوكٌ وحكامٌ وأصحابُ نجدةٍ ... إذا شُوغبوا كانوا عليها أولى شَغب

ويعرض بزعيمهم زفر بن الحرث فى قصيدة يمدح بها بشر بن مروان فيختمها بقوله :

فلا تجعَلَنِّى يا ابن مروان كامرىءٍ ... غلتْ فى هوى آل الزبير مراجلُه
يُبايعُ بالكف التى قد عرفتَها ... وفى قلبه نامُوسُه وغوائلُه

وقد اتخذ هجاؤه للقيسية صورة جديدة فى النقائض التى اتصلت بينه وبين جرير ، وكان عمادها هجاء الأخطل لهذا الحزب الزبيرى المنحرف عن الأمويين ، وانتصار جرير له وهجو تغلب وشاعرها النصرانى .

ومن أروع ما يصور الهجاء السياسى الممتاز نقيضة الأخطل المشهورة :

---

(١) الشراسيف أطراف الاضلاع من أسفل الجنب ، القصب المصران ، جزء بن ظالم الحارث بن ظالم الذى قتل ابن النعمان وكان من فتاك العرب المشهورين ، والأخطل يفتخر هنا بقتلهم هذا البطل .

(٢) بنو الصمعاء إخوة عمير بن الحباب نبزهم بذلك ، والصمعاء الصغيرة الاذن ، دسماء الذراعين من الوسخ والأقدار .

(٣) أهل الحق يعنى بنى أمية ، محارب وبنو العجلان من قبائل قيس عيلان

(٤) القروم جمع قرم وهو السيد على التشبيه بفحل الابل . تخمط تكبر وغضب . المهنأة الابل المطلية بالقطران وذلك حين تداوى من الجرب . والعرب تصف الجيش بالسواد لكثرة ما عليه من الدروع والحديد .

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا　　وأزعجتهم نوًى فى صَرْفِها غِيَرُ[1]

وهو يمزج المدح فيها بالهجاء . يرفع من قدر الأمويين ، معرضاً بأعدائهم من القيسية ، متشمتاً بما لحقهم من ذل وانكسار ، مباهياً بمشاركة قبيلته فى إقرار الملك . وأين يذهب هؤلاء الحمق من عبد الملك ، وهو أعلى الناس همة ، وأقواهم مُنَّة ، وأصبرهم على قتال :

لا يَطعَمُ النومَ إلا ريثَ يبعثُه　　همٌّ الملوكِ وجَدٌّ هابه الحجر

مفترشٌ كافتراش الليث كلكله　　لوقعةٍ كائنٍ فيها له جزَر[2]

حتى تكونَ له بالطف ملحَمَة　　وبالثَّوِيَّة لم يُنبَضْ بها وتر[3]

وتستبينَ لأقوامٍ ضلالتهم　　ويستقيم الذى فى خده صَعَر

يعلو القناطرَ يبنيها ويهدمُها　　مُسَوَّمٌ فوق الراياتُ والقتَر[4]

حتى استقلَّ بأثقالِ العراقِ وقد　　كانت له نِقمةٌ فيهم ومدَّخَر[5]

وماذا يعيبون على بنى أمية أو ينقمون منهم وهم :

فى نَبعةٍ من قريشٍ يَعصِبون بها　　ما إنْ يُوازَى بأعلى نبتها الشجرُ

علَتْ هضاباً وحلّوا فى أرومتِها　　أهلُ الرياءِ وأهلُ الفخر إن فخروا

حُشْدٌ على الحقِ عيّافو الخنا أُنُف　　وإن أَلَمّتْ بهم مكروهةٌ صبَروا

---

(١) خف القوم ارتحلوا مسرعين . راحوا من الرواح وهو ضد البكور . أزعجتهم نوى أقلقتهم . غير الدهر وصروفه حوادثه .

(٢) الجزر كل شىء مباح للذبح .

(٣) الطف أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين . الثوية موضع قرب الكوفة . لم ينبض بها وتر لأن الجيشين ملتحمان فليس بينهم إلا الضرب والطعن . وإنما يترامى الجيشان بالنبل إذا كانا بعيدين قبل أن يلتحما .

(٤) مسوم معلم بعلامة يعرف بها . وكان الفرسان المشهورون يعلمون أنفسهم وقت القتال ليعرفوا من سائر الناس . القتر غبار المعركة .

(٥) نقمة فيهم ومدخر سبقت إليهم نقمته ولا يزال يدخر لهم ألواناً من النكال .

وما الذى غرهم بنى أمية حتى ركبوا رءوسهم ، وهم أوسع الناس حيلة ، وأشدهم بطشاً !

لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربَهم ولا يُبيِّنُ فى عيدانهم خَوَر
وإن تدجَّت على الآفاق مُظْلِمَةٌ كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَر[1]
شُمسُ العداوة حتى يُستَقَادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَروا[2]

وهل يستحق هؤلاء المارقون الذين أنزلهم السيف على حكمه ، فأعطوا عن يد وهم صاغرون ، إلا الذل والهوان ؟ وكيف يأمن الخليفة لزعيمهم وهو عدوه الذى استباح دم جنده وأوليائه ، وإنه ليخفى فى نفسه الغل الدفين والحقد الكمين .

بنى أمية إنى ناصحٌ لكم فلا يبيتَنَّ فيكم آمناً زُفَر[3]
واتخِذوه عدوًّا إن شاهِدَه وما تَغَيَّبَ من أخلاقه دَعَر
إنّ الضغينةَ تلقاها وإن قدُمت فالعَرُّ يكمِنُ حيناً ثم ينتشر[4]

أتقرّبون منكم هذا الرجل ، وسيفه يقطر من دماء قومى ، الذين بذلوا أنفسهم فى إقرار ملككم ؟ ألم أناضل دونكم أبناء الأنصار .

حتى استكانوا وهم منّى على مضَضٍ والقولُ ينفُذُ ما لا تنفُذُ الإبَر

---

(١) تدجت أظلمت . مظلمة كارثة أو مصيبة . معتصر ملجأ ومعقل

(٢) رجل شموس عسر فى عداوته ، والشماس الاباء ، والفرس الشموس الذى يستعصى على راكبه

(٣) هو زفر بن الحارث الكلابى من زعماء القيسية الذين حاربوا الامويين ، وكان قد هرب ثم أمنه عبد الملك ، وهو القائل :

فقد تنبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(٤) العر الجرب ، يقول إن الحقد يظل كامناً فى النفس كالجرب يسكن فيظن أنه قد انصرف ولكنه لا يلبث أن ينتشر .

وقيسُ عيلانَ حتى أقبلوا رَقَصاً | فبايعوك جهارًا بعد ما كفروا
ضجُّوا من الحرب إذ عضّت غواربهم | وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضجَر
فلا هدى اللهُ قيساً من ضلالتها | ولا لَعاً لبني ذَكوانَ إذ عثروا[1]

ويندفع الأخطل فى الفخر بقومه ، ونصرهم عبد الملك ، وقتلهم عمير ابن الحباب رأس سليم الذى دلاهم إلى الفتنة ، وقادهم إلى الحين والهلاك . وتستثيره ذكرى الدم ومناظر القتال ، فيبلغ منه الغضب والحماس حد الوحشية والغلظة القاسية ، حين يصف جثته وقد انطرحت فى ميدان القتال ، وطاحت عنها الرأس بين أكداس من الرءوس ، وقد صمت منها الآذان ، وخرس اللسان ، ومزق السيف خيشومها . وهذا هو الحرث بن أبى عوف لعبت به السيوف حتى تركته جزر العقبان والحدأ ، تحوم حول جثته ، وتتنازع لحمه .

وقد نُصِرتَ أميرَ المؤمنين بنا | لما أتاك ببطنِ الغُوطة الخبَر
يعرفونك رأسَ ابنِ الحُبابِ وقد | أضحَى وللسيفِ فى خَيْشُومِه أثر
لا يسمع الصوتَ مستكّاً مسامعُه | وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجر
أمسَتْ إلى جانب الحشّاكِ جيفتُه | ورأسُه دونه اليَحْمُوم والصوَر[2]
يسأله الصُّبْرُ من غسانَ إذ حضروا | والحَزْن كيف قَرَاكَ الغِلمةُ الجشَر[3]

---

(١) لا لعاً يعنى لا ارتفعوا ، يقال لا لعا لفلان أى لا أقامه الله

(٢) الحشاك واد بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب وفى هذه الواقعة قتل عمير بن الحباب من زعماء قيس . واليحموم موضع بالشام والصور قرية على شاطىء الخابور .

(٣) الصبر والحزن حيان من غسان . الجشر الرعاة الذين يبعدون بإبلهم عن العمران . كان عمير يسخر من بنى تغلب ويقول (إنما هم جشر) والأخطل يسخر به هنا ويقول إنهم قد حملوا رأسه لهؤلاء الأقوام من بنى غسان فسألوه متهكمين : كيف رأيت قرى هؤلاء الغلمان من الرعاة . وإنما قروه الموت .

والحرثُ بن أبى عوفٍ لِعبْنَ به حتى تعاوَرَه العِقبانُ والسُّبر(١)

انظر إلى ما يشتمل عليه هذا الهجاء من غضب وحشى ينزع من قلبه كل رحمة ، وإلى ما يخوض فيه من تفصيل تقشعر منه الأبدان ، وإلى هذه الألفاظ القاسية التى يستعملها فى وصف جثته حين يسميها (جيفة) وأنفه حين يسميه (خيشوماً) .

هذه الغلظة القاسية هى طابع الأخطل الذى تتّسم به كل أهاجيه ، وهذه الألفاظ البدوية الخشنة ، بما فيها من ضخامة تصك الأسماع ، هى أنسب الأثواب لهذه الغلظة البالغة . لم يكن الأخطل متهكماً ساخراً كجرير ، ولم يوهب هذا الذكاء الذى يلهم النكتة البارعة ، والصورة التى تستفز للضحك ، فهو غاضب دائماً حين يهجو ، يذهب الغضب بكل ما فى مزاجه من دعابة . وقد تجد فى هجائه كثيراً من الصور القوية ، ولكنها صور كالحة دائماً يغشيها عبوس مظلم واجم . فهو رجل غليظ قاس لا تعرف الرقة إلى قلبه سبيلا . ولم يكن من محض الصدفة والاتفاق أن يخلو ديوان هذا الشاعر الكبير من الرثاء ، فالواقع أن هذا الرجل لم يكن يستطيع الحزن ، ولم تكن مصيبة إنسان مهما عظمت لتحرك قلبه أو تثير عطفه ، بل لقد كانت المناظر المثيرة للحزن ، لا تثير فى نفسه إلا الوحشية الفظة ، والثورة الهائجة .

كان الأخطل ، كما تقدم ، لسان الأمويين الذى يعبر عن ميولهم واتجاههم فى مدائحه وفى أهاجيه على السواء . فهو يثنى على ولاتهم المعروفين بالشدة التى تتجاوز حدود العدالة ، مبرراً مسلكهم ، مؤيداً سياستهم ، وكأنه بذلك يجيب على ما يوجه إليهم من نقد ، وما يرمون به من ظلم واستبداد . فهو يخاطب عبد الملك مؤيداً الحجاج فيما ينتهج من عنف صارم ، يؤدب هؤلاء

---

(١) الحارث بن أبى عوف من رجال بنى عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) السبر طائر شبيه بالصقر . تعاورة العقبان والسبر تداولته .

المنافقين من أهل العراق ، الذين عرفوا بميلهم عن الدولة وبغضهم لها . فهو ضابط للخراج ، مظفر فى الحروب ، لا يزال يسوق إلى الخليفة السبايا والغنائم ، ضارب على أيدى العابثين بالقانون من الخوارج :

فعليكَ بالحجاج لا تعدِلْ به … أحداً إذا نزلَتْ عليك أمور
ولقد علمتَ وأنتَ أعلمُنا به … أن ابنَ يوسفَ حازمٌ منصور
وأخو الصفاءِ فما تزالُ غنيمةٌ … منه يجىءُ بها إليكَ بَشير
وترى الرواسمَ يختافنَ وفوقها … ورقُ العراقِ سبائكٌ وحرير(١)
وبناتُ فارسَ كلَّ يومٍ تصطفَى … يعلونَهنَّ وما لهنّ مُهور
... ولقد علمتَ بلاءه فى معشرٍ … تغلى شَنَاةُ صدورِهم وتفورُ
والقومُ زأرُهمُ وأعلى صوتِهم … تحتَ السيوفِ غماغمٌ وهدير(٢)
طلبوا الأزارِقَ بالكتائب إذ هوت
بشبيبَ غائلةُ النفوسِ غدور(٣)
يرجو البقيةَ بعدَ ما حدَقت به … فُرُطُ المنيةِ يَحْصبٌ وحَجُورُ(٤)
فأباح جمعَهُمُ حميداً وانثنى … وله لوَقْعةِ آخرين زئير

---

(١) الرواسم الابل . الورق الفضة . وبنات فارس مالهن مهور لأنهن سبايا . يعلونهن يعلون الابل .

(٢) الزئير : صوت الأسد شبه به أصوات المحاربين . الغمغمة : الكلام الخفى . يقول أقصى ما ترتفع به، حناجر المحاربين أن يغمغموا لشدة انشغالهم بالقتال ولجفاف حلوقهم

(٣) الأزارقة من فرق الخوارج ومن أشدها تطرفاً . شبيب من زعمائهم كانت له حروب كثيرة مع الحجاج حتى مات غرقاً عند جسر دجيل سنة ٧٧

(٤) يحصب وحجور من قبائل اليمن، الأولى من حمير والأخرى من همدان . فرط المنية ما سبق إليه منها .

ويمدح الأخطل عباد بن زياد وأخاه مسلم بن زياد فينسبهما لأبى سفيان ، توكيداً لما فعل معاوية من إلحاق زياد ، وإقراراً له فى الأذهان والآذان . وكان الناس لا يكادون يقولون إلا (زياد بن أبيه) أو (زياد بن سمية) .

يقول فى مدح عباد :

إليكَ أبا حَرْبٍ تدافَعْنَ بعد ما　　　وصلن لشمسٍ مَطلعاً بغروب

ثم يكرر ذلك بعد أبيات :

ولولا أبو حَرْبٍ وفضلُ نواله　　　علينا أتانا دهرُنا بخطوب

ويقول فى أخيه مسلم بن زياد :

نفسى فداء أبى حربٍ غداةَ غدا　　　مخالطُ الجنِّ أو مستوحشٌ فَرِقُ

وكان أكثر ما عنى الأخطل بتقريره حق الأمويين فى الملك . فهو يؤكد فى كل موضع من شعره أن الله قد اختارهم للخلافة ، فهم أصلح الناس لها .

يقول فى عبد الملك :

وقد جعل اللهُ الخلافةَ فيكم　　　لأبيضَ لا عارِى الخِوانِ ولا جَدْب (1)

... أهلُّوا من الشهرِ الحرَامِ فأصبحوا　　　موالىَ مُلْكٍ لا طريفٍ ولا غصب

ولم تر عَيْنِى مثلَ يومٍ رأيتُه　　　أتاك بلا طعنِ الرماح ولا الضرب

ولكن رآك الله موضعَ حقِّه　　　على رغم أعداء وصَدَّادةٍ كُذْب

ويقول فى مدح بشر بن مروان :

أنتم خيارُ قريشٍ عند نسبتهم　　　وأهلُ بطحائها الأثرون والفرَع

أعطاكمُ اللهُ ما أنتم أحقُّ به　　　إذ الملوكُ على أمثاله اقترعوا

(1) هذا البيت من سقطات الأخطل التى لامه فيها قدماء النقاد فقالوا (لو مدح بهذا البيت حرسيا لعبد الملك ما أنصفه) فقليل جداً على الخليفة أن توصف خوانه بأنه ليس عاريا ولا جدبا .

وهو يؤكد فضلهم على الناس ، بمالهم من حسب عريق فى الجاهلية ، وبخلافة عثمان فى الإسلام . فملكهم ثابت بحسبهم وقديم فضلهم (ليس بطريف ولا غصب) وليس أعداؤهم من بنى الزبير وأنصارهم القيسية إلا خرابا وقطاع طرق ، عاقبهم الله على بغيهم بيد الأمويين .

فالله لم يَرْضَ عن آل الزبير ولا عن قيس عيلان حيًّا طالما خَرَبُوا (١)
يُعاظِمون أبا العاصى وهم نَفَرٌ في هامةٍ من قريشٍ دونها شَذَب (٢)
بيضٌ مصاليتُ أبناءُ الملوك فلن يُدرِك ما قدَّموا عُجمٌ ولا عَرَب
كانوا مواليَ حقٍّ يَطلُبون به فأدركوه وما مَلُّوا ولا لغَبُوا
إن يك للحقِ أسبابٌ يُمَدُّ بها ففى أكفهمُ الأرسانُ والسبَبُ
همُ سعوا بابن عفانِ الامامِ وهمْ بعدَ الشِّماسِ مرَوْها ثمت احتلبوا (٣)
حرباً أصاب بنى العوَّامِ جانبَها بعداً لمن أكلته النار والحطب
حتى تناهَتْ إلى مصرٍ جماجمُهم تعدو بها البُرْدُ منصوباً بها الخشب (٤)

وهو يؤكد هذا المعنى فى مواضع أخر حين يقول من قصيدة يمدح بها عبد الله بن معاوية :

قوم إذا بسطَ الالهُ ربيعهم دارَتْ رحاهُ بمُسْبِلٍ درّار
وإذا أُريدَ بهم عقوبة فاجرٍ مطرت صواعقُهم عليه بنارِ

(١) الخارب السارق وقاطع الطريق .

(٢) الشذب : الشوك .

(٣) سعوا بابن عفان أى سعوا لادراك ثأره . مروها ثمت احتلبوا . شبه الحرب بناقة صعبة الخلق تمتنع على الحالب فى أول الأمر . والمرى مسح الضرع ليدر . يشبه تذليلهم لصعاب الحرب بالحالب الصناع الذى يمسح ضرع الناقة النافرة حتى تلين له وتسمح باللبن .

(٤) لما قتل مصعب بن الزبير بعث عبد الملك برأسه إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر . البرد مخفف برد بضمتين جمع بريد .

ثم يقول :

لمـــا تبوحثت الضغائن بينهم أفضى وسار بجحفل جرّار
وأهلّ إذ غنظ العدوّ بفياق تحت الأشاء عريضة الآثار (١)
حتى رأوه بجنب مَسْكَنَ مُعْلِماً والخيلُ جاذيةٌ على الأقتار (٢)
ولقد تناولت العقورَ بضربة وبنى أبى بكر ذوى الأصهار (٣)
ورجالُ عبد القيس تحت نحورِها كانوا لها جزراً من الأجزار
وعلى خزاعةَ والسَّكون تعطفَتْ وأصابهم ظُفُرٌ من الأظفار (٤)
والخيلُ تمشُقُ عنهمُ أسلابهم فى كل معتَرَكٍ وكلّ مُغار (٥)
حتى إذا علم الالهُ نكاله وتصاغرُوا للحرب أىَّ صَغار
حقن الدماء ورَدَّ ألفتهم لهم وجزاهُمُ بالعُرف والإنكار

ويقول فى مدح بشر بن مروان :

إمامٌ يقود الخيلَ حتى كأنّها صُدورُ القَنا معوجُّها وقويمها
إلى الحرب حتى تخضعَ الحربُ بعدما تخمّطَ مَرْحاها وتحمى قرومُها (٦)
... بكم أدرك اللهُ البرية بعد ما سعى لصُّها فيها وهَبَّ غشومها

(١) غنظه وفدحه وبهظه كل ذلك بمعنى واحد أى غمه وآذاه وأجهده . الأشاء النخل شبه القنا بها .

(٢) الجاذى الثابت القائم . الأقتار أطراف الحوافر . مسكن موضع على نهر دجيل قريب من دير الجاثليق كانت به وقعة بين عبد الملك ومصعب .

(٣) العقور قبائل من تغلب وبنو أبى بكر هم أبو بكر بن كلاب .

(٤) عبد القيس قبائل من ربيعة . وخزاعة والسكون من قبائل اليمن . خزاعة من الأزد والسكون من كندة .

(٥) مشق ثوبه شقه ومزقه . المغار من الاغارة .

(٦) تخمط اهتاج كما يتخمط الفحل وهو هديره وعقده عنقه وضربه بذنبه . مرحاها من المرح والنشاط . مرحى جمع مرح .

وفكرة الأخطل هنا بسيطة قريبة . فالقوى الغالب هو صاحب الحق دائما ، لأن الله لا ينصر الظالمين ، ولا يعين المفسدين . وليست الحروب إلا محنة واختبارا ، يظهر الله خلالها صاحب الحق ، ويعاقب الظالمين بيديه . وهو بهذا متأثر بالفكرة الجاهلية التى قررناها ، من أن القوة وحدها هى الفضيلة ، وأن كل ما نالته يد القوى فهو حق له . وقد كان الأمويون أنفسهم يحبون أن يمدحوا على هذا النحو الذى يصورهم أقوياء ، ولم يكونوا يرون بأساً فى أن يقول عنهم الشعراء إنهم أخذوا الملك بالسيف . وكان الشعراء يجرون فى ذلك على مايحب الأمويون حتى جاء الأخطل فاستحدث فكرة هذا الحق الإلهى ، ولكنه ألبسها ثوبا جاهلياً . روى صاحب الأغانى أن عبدالملك أنشد قول كثير فيه :

فما تركوها عَنوةً عن مودةٍ ولكن بِحَدِّ المشرفىِّ استقالها

فأعجب به . فقال له الأخطل — ماقلته لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه . قال — وما قلت ؟ قال قلت :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا مَوالِى مُلْكٍ لاطريفٍ ولاغصب

جعلته لك حقا وجعلك أخذته غصبا . قال : صدقت .

والواقع أن الأخطل كان بدويا يعيش على هذه المثل الجاهلية ولا يرى غيرها ، نجد ذلك واضحا فى حياته وتفكيره وفى فنه على السواء . فهو رجل لا يؤمن إلا بالقوة . وقارىء شعره فى الفخر لا يراه إلا جاهليا ممعنا فى الجاهلية . يقول :

نصبنا لكم رأساً فلم تكاملوا به ونحن ضربنا رأسكم فتصدّعا

ونحن قسمنا الأرض نصفين : نصفُها لنا ونُرامى أن تكون لنا معا

بتسعين ألفاً تأله العينُ وسطه متى تره عينا الطِرامةِ تدمعا

إذا ماأكلنا الأرضَ رعياً تطلّعت بنا الخيلُ حتى تستبيحَ المُمَنَّعا

وهو لا يرى فى الجود فضيلة الإيثار والعطف على البائس المحروم ، ولكنه يراه مظهرا من مظاهر القوة ، لأن الكريم يجود مما اجتمع له من السبي والمغانم بقوته :

إليك أمير المؤمنين رحلتها على الطائر الميمون والمنزل الرحْب
إلى مؤمنٍ تجلوا صحيفةُ وجهه بلابل تغشى من هموم ومن كرْب
مناخُ ذوى الحاجاتِ يستمطرونه عطاء كريم من أسارى ومن نهْبِ [1]
ترى الحَلَقَ الماذىَّ تجرى فضُولهُ على مستخفٍ بالنوائبِ والحرب [2]

وهو يذهب فى اللذة مذهب الجاهليين ، الذين يرون الهجوم عليها واغتصابها أليق بالفتى والجرىء الفاتك :

بانَ الشبابُ وربما علَّلتُه بالغانيات وبالشرابِ الأصهب
ولقد شربت الخمر فى حانوتِها ولعبتُ بالقَيْنات كلَّ المَلْعب
ولقد أوكِّلُ بالمدجَّج تُتقى بالسيفِ عُرَّتُه كعرَّة أجرب [3]

ويقول :

ألا يا اسلَمِى يا أمَّ بِشْرٍ على الهجر وعن عهدكِ الماضى له قِدَمُ الدهر
ليالى ناهو بالشباب الذى خلا بمُرتَجَّةِ الأردافِ طيِّبَة النَّشْرِ

ويقول — وهو يشبه النساء هنا بالوحش النافر —

ولقد أصِيدُ الوَحْشَ فى أوطانها فيذلُّ بعدَ شِماسِهِ اليَعْفور [4]

---

(١) النهب الغنيمة أى أنه يعطى مما يغنم فى الحروب .
(٢) الحلق يعنى به حلق الدروع . الماذى ما خلص من الحديد . فضوله ما فضل منه وزاد . أى أن الدروع سابغة تغطى سائر الجسد .
(٣) المدجج الداخل فى السلاح . عرته شرته وأصل العرة الجرب أو قرحته .
(٤) الشماس الآباء والامتناع . اليعفور الظبى .

ومما يصور حبه للبادية، وكرهه للمدن وما فيها، قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها بشر بن مروان :

سقى اللهُ منه دارَ سلمى بريَّةٍ   على أن سلمى ليس يُشفى سقيمُها
من العربيات البوادِى ولم تكن   تلوِّحُها حُمَّى دمشقٍ ومومها (١)

وفن لأخطل بعد ذلك مرآة صادقة لهذه البداوة فى صوره وتشبيهاته . وفى أسلوبه وألفاظه . فهو يشبه النساء، بإبل قد أوعثها السير فى أرض سهلة، تغيب أقدامها فى رمالها :

يمشين مَشْىَ الجمالِ الأُدْمِ يُوعِثها   أعرافُ دا كدا كةٍ منهالةِ الكُثُب (٢)

ويشبه مشيهن فى موضع آخر، بمشى الإبل البيض، يهدر الفحل وراءهن فيتبخترن .

يمشين مَشْىَ الهجانِ الأُدْمِ روَّحها   عندالأصيلِ هديرُ المُصْعب القطمِ (٣)

ويشبه دنان الخمر بإبل جربى قد طليت قطرانا :

ولقد تباكرنى على لذاتها   صهباء عارية القذى خُرطوم (٤)
من عاتقٍ حدِبَتْ عليه دنانه   وكأنها جَرْبى بهنّ عَصيم (٥)

ويشبه هدير الخمر فى الدنان بهدير الجمال :

عز الشرابُ فأقبلَتْ مشروبةً   هدر الدنانُ بها هديرَ الأُفحل

(١) لوحتة النار والسموم غيرته وسفعت وجهه . الموم مرض الجدرى .

(٢) الهجان الابل الكرام . يوعثها يجعلها تمشى فى الوعث وهو المكان السهل تغيب فيه الأقدام . أعراف الرمل والجبل ظهره وأعاليه . الدكداك « اللين من الأرض والكثب جمع كثيب وهو التل من الرمل سمى بذلك لأنه انكثب أى اجتمع فى مكان واحد

(٣) الادم من الابل البيض . المصعب الفحل الصعب . القطم الهائج شبه مشيهن بذلك لأن الجمل إذا هدر عليهن تبخترن .

(٤) الصهباء الخمر وذلك للونها والصهبة حمرة فى سواد . عارية القذى لا قذى فيها . الخرطوم ما سال قبل أن يعصر وهو أجود .

(٥) العاتق الخالص اللون ، العصيم القطران . الدن وعاء كبير من فخار تخزن فيه الخمر ويطلى بالقطران لتسد مسامه .

ويشبه القلال الصغار بجانب الدن الكبير ، بصغار الإبل حول الفحل ، تتمسح به وتشمه بين رجليه .

وترى القِلالَ بجانبيه كأنها قُلُصٌ يسفْن فُروجَ قَرمٍ مرسَلِ (١)

ويشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فهى قوية شديدة ، بناقة لبسوا لها جلد حوار ، فهى إذا نظرته من بعيد حسبته ابنها ، فاذا دنت منه فشمته أنكرته

كأنى كررتُ الكأس ساعة كرّها على ناشِصٍ شمّت حوارا ملبَّساً (٢)

ويشبه رجلا من بكر اسمه الحراق ، فى غيظه وشدة غضبه ، بالفحل الذى حبس عن ضراب الإبل فهو يحرق نابه ويهدر لاوياً رأسه .

وظل الحراقُ وهو يحرُق نابه بما قد رأى من قوةٍ وعتادا (٣)
هديرَ المُعَنَّى أَلقحَ الشَّوْلَ غيرُه فظل يلوِّى رأسه بقَتادِ (٤)

ويشبه القيسية ، فيما ذاقوا من نكال الحرب بالذى حمل على ناقة عجوز ، قد تساقط عنها وبرها وبرزت عظامها :

صُكُّوا على شارفٍ صعبٍ مراكبها حصَّاء ليس لها هُلْبٌ ولا وبر (٥)

---

(١) القلال آنية الفخار الصغيرة . قلص جمع قلوص وهى صغار الأبل . القرم الفحل وهو خطأ من الشاعر لأن المتلمس إنما تتمسح بالأنثى ولا تتمسح بالفحل .

(٢) الناشص الناقة التى يؤخذ فصيلها فتمتنع اللبن ولا تسمح به ، فيحشون لها جلده بالتبن أو القطن ويوضع بجانبها لتسمح باللبن ، فاذا شمته بأنفها عرفت أنه ليس ابنها . والشاعر هنا يشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فيقطب جبينه للذعها وشدة حرارتها بهذه الناقة حين تشم جلد الحوار المحشو فتلوى رأسها نافرة .

(٣) حرق نابه من باب نصر وضرب سحقه حتى يسمع له صريف .

(٤) الشول جمع شائل وهى الناقة التى تشول بذنبها أى ترفعه طلباً للقاح . المعنى على البناء للمفعول المتعب المكدود .

(٥) صكوا على شارف أى حملوا على خطة صعبة ، شبهها بالناقة الشارف وهى الكبيرة المسنة . الحصاء التى لا وبر لها . الهلب شعر الذنب .

ويشبه الحقد بالجرب الذى يزول عن ظاهر الجلد ولكنه يكمن تحته وينتشر بعد حين

إن الضغينةَ تلقاها وإن قدمَتْ كالعرِّ يكمنُ حيناً ثم ينتشر

فلو أن جملا نطق فقال شعراً ما اجتمع له من التشبيهات والصور أكثر مما اجتمع للأخطل فى شعره من ذكر الإبل.

والأخطل بعد هذا يتخذ مثله الفنية من فحول الجاهلين ؛ فينشىء بعض قصائده على نهجهم مثل قصيدته .

بانت سعادُ ففى العينين ملمُول من حبها وصحيحُ الجسم مخبول(١)

فهو يعارض بها قصيدة كعب بن زهير المشهورة فى مدح النبي ، ويتأثر فيها ببعض ألفاظ الأعشى فى مطولته (ودع هريرة) يقول فيها

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضُها كأنها أحورُ العينين مكحول

وهو مأخوذ من بيت الأعشى :

غرّاء فرعاء مصقولٌ عوارضُها تمشى الهُوَيْنَى كما يمشى الوَجِي الوَحِل(٢)

وهو فى قصيدته .

ألم تعرض فتسأل آل لهو وأروى والمُدِلَّة والرَّبابا

متأثر بقصيدة الأعشى :

عرفتَ اليومَ من تيَّا مقَاما بجوٍّ أو عرفتَ لها خِياما

(١) الملمول بضم الميم المكحال الذى يكتحل به . أراد أنه مكتحل بالسهر .

(٢) غراء بيضاء ، فرعاء طويلة الفرع وهو الشعر . العوارض الأسنان . الوجى الذى يشتكى حافره فيكون مشيه متثاقلا . الوحل الذى يمشى فى الوحل . وهو تشبيه خشن لأنه يشبه فتاحبته المتمهلة فى سيرها بدابة تشكو حافرها وتمشى فى الوحل .

فى مثل قوله :

وقد قالَتْ مُدِلَّةٌ إنْ قلَتْنى أراكَ كبِرتَ والصدغينِ شابا

فإن يك رَيِّقى قد بان مِنّى فقد أُروِى به الرَّسَلَ اللهابا

فهو مأخوذ من قول الأعشى :

وقد قالت قتيلةُ إذ رأتنى وقد لا تَعدَمُ الحسناء ذاما

أراكَ كبِرتَ واستحدثتَ خُلْقا وودعتَ الكواعبَ والمداما

فإنْ تك لِمَّتى يا قَتْلُ أضحت كأنّ على مفارِقها ثَغَاما

وأقصرَ باطلى وصحوتُ حتى كأن لم أجرِ فى دَدَنٍ غلاما(١)

فإن دوائرَ الأيامِ يُفْنِى تتابعُ وقعِها الذَّكَرَ الحساما

وهو يعتمد كذلك فى قصيدة (عفا واسط) على كثير من صور الأعشى . ثم هو بعد ذلك يكثر من وصف الناقة والصحراء فى مدائحه ، ويسلك فى ذلك مسلك الجاهليين ، الذين يشبهونها بحمار الوحش أو الثور ، وينصرفون عن الناقة إلى هذا الثور أو ذاك الحمار ، ليصوروا نشاطه فى الصحراء ، وما يلقى من عنت الصائد ، وقسوة الريح والمطر . وينتهون آخر الأمر إلى القول بأن ناقتهم تشبه هذا الموصوف ، فى نشاطها وقدرتها على تخطى العقبات ، وفيما نالها من إعياء بسبب الرحلة إلى الممدوح . هذه الصورة تتكرر فى الشعر الجاهلى ، ويتداولها الشعراء على نحو متشابه ، بتفاصيلها وأجزائها ، ليس فيها تحوير أو تغيير . وكذلك هى فى شعر الأخطل بأجزائها ودقائقها .

وتأثره بالأعشى فى الخمر خاصة مشهور لا يحتاج إلى التنبيه عليه . ويكفى أن أقدم له مثلين أو ثلاثة :

---

(١) الددن اللهو واللعب . أقصر باطلى ارعويت عن عبث الشباب حين كبرت .

الأعشى : تحسبُ الزِّقَ لديهـا مُسْنَداً حبشياً نام عمْداً فانبطح

الأخطل : أناخوا فجروا شاصيات ٍ كأنها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا (١)

الأعشى : مِن خمر عانة قد أنى لختامِها حولٌ تسلُّ غمامةَ المزكوم

الأخطل : و إذا تعاورت الأكفُّ زجاجَها نفحَتْ فشم رياحَها المزكوم (٢)

الأعشى : لا يستفيقون منها وهى راهنةٌ إلا بِهَاتِ و إن عَلُّوا و إن نَهَلُوا

الأخطل : فما لبثَتْنَا نشوةٌ لحِقَتْ بنا توابعُها مما نُعَلُّ وتُنْهَل (٣)

* * *

لم يدم للأخطل هذا النفوذ فى بلاط الأمويين . فقد كثرت حوله الوشايات فى أواخر أيام عبد الملك ، وأخذ النصارى يفقدون ما كانوا يستمتعون به من حرية ، فتزعزعت منزلته ، وتقلص سلطانه ، حتى أصبح يلجأ إلى الوليد ولى العهد ، يطلب إليه التوسط فيما ناب قومه من غرامات ثقيلة . وضرائب فادحة لا يطيقونها :

وحاجِلةِ العيون طوى قُواها شهابُ الصيف والسفرُ الشديد (٤)

طلبن ابن الإمام فتى قريش بحِمْصَ وحمصُ غائرةٌ بعيد

---

(١) الزق جلد (قربة) يحفظ فيه الماء والخمر يتخذ فى الأسفار خاصة . يشبه الأعشى الزق فى اسوداده برجل حبشى قد رقد على الأرض عاريا . ويشبهه الأخطل برجل عار من السودان . الشاصية هى الزق .

(٢) تسل غمامة المزكوم . وشم رياحها المزكوم هو تصوير لقوة رائحة الخمر التى تقتحم أنف المزكوم لأن حاسة الشم تكون عنده ضعيفة .

(٣) يقول الأعشى إنهم يوالون الشرب ولا يتوقفون عنه إلا ريثما يقول أحدهم للساقى « هات ! » ويقول الأخطل إن نشوة الكأس السابق لا تلبث أن تسلمهم إلى اللاحق . لكثرة ما يشربون المرة بعد المرة . العلل الشربة الثانيـة . والنهل الشربة الأولى .

(٤) حاجلة العيون غائرتها .

عداكَ إلى الرياءِ فحولُ صدقٍ وَجَدٌّ قَصَّرتْ عنه الجدود(١)
وزندُكَ من زنادٍ وارياتٍ إذا لم يُحمَدِ الزندُ الصَّلُود
وإنَّا معشرٌ نابَتْ علينا غراماتٌ ومضلِعَةٌ كَؤودُ
وعضٌّ الدهرِ والأيامِ حتى تغيَّر بعدكَ الشَّعَرُ الجديد

بدأ نجم عدى بن الرقاع فى الصعود، حتى أصبح الشاعر المقدم عند الوليد بن عبد الملك. وانكمش الأخطل على خوف ووجل، مهدداً لا يطمع إلا فى السلامة والعافية، لا يكاد يتقدم على الخليفة، إلا فى هذه المراسم التى يجتمع فيها الشعراء لمدحه كل عام، يؤكد ولاءه للأمويين، ويحدد سابق نضالهم عليه، معتذراً عن بعده بما يخاف من وشاية الواشين، التى كادت — لولا فضل الوليد — تودى به، وتورده موارد الهلكة.

بنى أمية قد أجْدَتْ فواضلُكم منكم جيادى ومنكم قبلَها نَعَمى
فهى إذا ذُكِرَتْ عندى وإن قدُمَت يوماً كخطِ كتابِ الكفِّ بالعلم
فإن حلفتُ لقد أصبحتُ شاكرَها لا أحلفُ اليومَ من هاتا على أثِم(٢)
لولا بلاؤكم فى غير واحدةٍ إذاً لقمتُ مقامَ الخائفِ الرَّزِم(٣)
أسمعتكم يوم أدْعُو فى مُوَدَّأَةٍ لولاكم شاع لحمى عندها ودمى(٤)
لولا تناوُلكم أياى ما علِقَتْ كفى بأرجائها القصوى ولا قدمى
وقد علمتم وإن أصبحتُ نائيَكم نصحى قديماً وفعلى غيرَ متَّهَم

---

(١) الرياء يقصد به هذا فعل الخير. نماه نصه ورفعه. فحول صدق يقصد بهم أجداده.
(٢) الأثم مثل طرب وفرح الكاذب. يقول لا أحلف كاذباً
(٣) الرزم المنقطع الذليل قبيل الرهط.
(٤) المودأة كمعظمة المهلكة والمفازة وحفرة الميت.

لقد خشيتُ وُشاةَ النّاس عندكم ولا صحيحَ على الأعداء والكَلم

ويقول من قصيدة أخرى يمدح فيها الوليد

وقد علمَتْ أميةُ أن ضِغْني إليها والعُداةُ لها هرير
وأني ما حييتُ على هواها وأني بالمغيبِ لها نَصُور
وما يبقى على الأيامِ إلا بناتُ الدهرِ والكَلِمُ العَقُور(١)
فمَنْ يك قاطعاً قَرَناً فإني لفضلِ بنى أبى العاص شَكُور

ثم يقول

ومظلمةٍ تضيق بها ذراعي ويتركني بها الحدِب النصور
كفوْنيها ولم يتوا كلوني بخُلْقٍ لا ألفَّ ولا عثُور(٢)
ولولا أنتم كَرِهَتْ مَعَدٌّ عِضَاضِي حين لاح بى القَتِير(٣)
ولكني أهاب وأرتجيكم ويأتيني عن الأسد الزئير

ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى إنقاذ الوليد إياه من هذه المحنة التي كادت تودى بحياته .

إن الوليد أمينَ الله أنقذني وكان حصناً إلى مَنْجاته هربى
إتيته وهمومى غيرُ نائمةٍ أخا الحِذَارِ طويدَ القتلِ والهرب

(١) الكلم العقور يعنى شعر الهجاء الذى يجرح المهجو . بنات الدهر مصائبه .
(٢) الألف الضيق الخلق البطيء بالأمور . العثور الكثير السقوط .
(٣) القتير الشيب ، وأصله رءوس مسامير الدرع .

وآمَنَ النفسَ ما تخشى ومَوَّلها قَدْمُ المَواهبِ أنوائه الرُّغب[1]

وثبّتَ الوَطْء منى عند مُضْلِعَةٍ حتى تخطّيتُها مسترخياً لببى[2]

وبمثل هذه النهاية المحزنة، تطوى حياة هذا الشاعر الكبير، الذى أفنى عمره، وبذل شعره، فى تثبيت ملك الأمويين، والدفاع عن سياستهم، وهجاء أعدائهم، فحلق فى سماء الشهرة حتى بلغ أقصى ما يطمع فيه شاعر من نفوذ، ثم هبط من حالق، فمات مجفوا خاملا، يشكو متذللا، بعد أن كان يهدر بالفخر مزهواً فى السنوات الأولى من ملك الوليد.

---

(١) القذم الكثرة يقال قذم له وقثم له إذا أعطاه وأكثر. النوء المطر استعاره للعطاء يقال طلب نوءه أى عطاءه. الرغب الكثيرة الواسعة.

(٢) اللبب ما يشد فى صدر الدابة أو الناقة يكون للرحل والسرج يمنعها من التأخر مسترخياً لببى يقصد به ثابتاً جنانى مطمئناً.

الهجـــاء الشخصي

هذا الفن الذي عرفناه ضئيلا قليل الخطر في العصر الجاهلي ، قد نضج وتقدم في القرن الأول ، حتى أصبح من أظهر فنون الشعر وأجلها خطراً . وكان العراق بنوع خاص موطناً لهذا الفن ، فلا نكاد نعرف شاعراً من شعرائه لم يأخذ منه بنصيب . وما أكثر مايجد قارىء الأغاني هذه العبارة في تراجم شعراء العراق في هذا القرن (وكان هجاء خبيث اللسان) يقول في عيينة بن مرداس الملقب بابن فسوة : هجاء خبيث اللسان بذيء ، كان فاحشاً كثير الشر وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه[1]. ويقول في الوليد بن حنيفة الملقب بابن حزابة : شاعر بدوي حضر وسكن البصرة ، وكان شاعراً راجزا فصيحا خبيث اللسان هجاء[2] ويقول في عبدالله بن الزبير الأسدي : شاعر كوفي المنشأ والمولد وهو أحد الهجائين للناس المرهوب شرهم[3] . ويقول في الحكم بن عبدل : شاعر مجيد مقدم في طبقته هجاء خبيث اللسان ، ومنزله ومنشأه الكوفة[4]. وأمثال هؤلاء الشعراء كثير لا نحب أن نطيل باستقصائهم وتتبعهم .

وكان الأشراف والوجهاء أكثر الناس تعرضا لشر الشعراء ، الذين اصطنعوا أسلوب الحطيئة في التكسب بالهجاء . فقد وجدوا أن أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالون الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخافوا شره . ووجدوا أن الذين يتقونهم على عرضهم ، أكثر من الذين يرغبون إليهم في تشريفهم بمدحهم . فهم إذا هجوا رجلا ففضحوه ، خاف غيره مثل فعلهم به ، فاتقاهم بالمال والعطاء . وهذا هو المهلب ، يعنف إبنه حين تعرض

---

(١) الأغاني ١٩ : ١٤٣
(٢) الأغاني ١٩ : ١٥٢
(٣) الأغاني ١٣ : ٣٣
(٤) الأغاني ٢ : ٤٠٤

لبعض هؤلاء الهجائين خوفا من شره . أكل المغيرة بن حبناء يوما مع المفضل بن المهلب فعرض بآفته ـ وكان المغيره أبرص ـ فقام مغضبا . وبلغ المهلب ماجرى فشتم ابنه وقال : أردت أن يتمضغ هذا أعراضنا ؟ ماحملك على أن أسمعته ما كره بعد مؤاكلتك إياه ؟ أما إن كنت تعافه فاجتنبه . ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم واستصفحه عن ابنه[1]. وتعرض حبيب بن المهلب لزياد الأعجم وقد شرب فعربد عليه ، وأمر بشق قباء ديباج كان عليه . فقال زياد

لعمرك ما الديباج خرّقتَ وحده ... ولكنما خرقت جلد المهلب

فبعث المهلب إلى ابنه حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد . ماخرقت إلا جلدى ، تبعث على هذا يهجونى . ثم بعث إليه فأحضره واستل سخيمته من صدره ، وأمر له بمال وصدقة[2]. وبلغ من خوف الناس من شر هؤلاء الهجائين ، أن الحكم بن عبدل كان يكتب على عصاه ، ويبعث بها إلى الولاة والحكام ، فلا يرد طلبه ، حتى قال فيه يحي بن نوفل .

عصى حكم فى الدار أول داخل ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب

وكانت عصى موسى لفرعون آية ... وهذى لعمر الله أدهى وأعجب

تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب فى المرضاه منها ويرهب

وقدم الفرزدق المدينة وعليها عمر بن عبد العزيز . فقيل لعمر : إن الفرزدق قد يقدم فيسأل الرجل ، فإن لم يرضه هجاه ، وإن أرضاه جهد نفسه ، وقومك والأنصار مجهودون يتجملون . فبعث إليه من العقيق فأتاه ـ وكان به نازلا ـ فأعطاه ألف درهم ، وقال إنك قدمت على قريش وقد جهدت ، فلا تسألن أحدا[3].

ومن بين هؤلاء الهجائيين المحترفين ، طبقة عرفت بالتهتك والمجون وحضور النكتة ، مثل الحكم بن عبدل والأقيشر . وكانت هذه الجماعة أكثر

---

(١) الأغانى ١١ : ١٦٦
(٢) الأغانى ١٤ : ١٠٣
(٣) ديوان الفرزدق ٣٦٠

الهجائيين رهبة فى صدور الناس ، لأنهم لا يتورعون عن شىء ، ولا يبالون ما يقولون . فهم يخوضون فى أفحش السباب وأكثره بذاءة ، مفصلين فى ذلك أقذع تفصيل وأقذره . وهجاؤهم مع ذلك أشبه بالنادرة الطريفة ، التى تصادف من النفس ارتياحاً وتشوقاً لسماعها ، وتعلقاً بحفظها وراويتها فى الأسمار . ثم هو يتميز بسهولة الألفاظ ، وخفة الأوزان ، التى تبين على ذيوعه وانتشاره . ومن هنا كانت خطورته ، وشدة خوف الناس منه . أتى الحكم ابن عبدل الأسدى محمد بن حسان بن سعد التميمى ـ وكان على خراج الكوفة ـ فكلمه فى رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه ، فقال : أما نى الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً . فانصرف عنه وهجاه بقصيدة طويلة بدأها بقوله :

رأيتُ محمداً شرهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورع وقصد

يقول أماتنى ربى خداعاً أمات الله حسان بن سعد

ولم يزل ابن عبدل يطيل فيها ويضيف إليها حتى مات . واشتهرت أبياتها وذاعت بين الناس ، حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره فيقول : عد . أمات الله حسان بن سعد . فاذا سمع ذلك أبوه قال : بل أمات الله ابنى محمداً ، فهو عرضنى لهذا البلاء فى ثلاثين درهماً[1] .

ومما يصور روح الفحش الغالبة على شعرهم ، هذه الأبيات التى هجا بها الأقيشر امرأة من العباديين محتالة اسمها أم حنين . فقد قصد يوماً إلى بيت الخمار الذى كان يأتيه فلم يصادفه ، فجعل ينتظره . فزعمت له امرأة من العباديين اسمها أم حنين أنها زوج الخمار ، فأخذت منه درهمين فهربت بهما . فراح يهجوها أفحش هجاء وأقذره . وكان مما قال فيها :

عاهدَتْ زوجَها وقد قال إنى سوف أغدو لحاجتى ولَدَيْنِى

(١) الأغانى ٢ : ٤١٣

فدعت كالحصان أبيض جَلْداً ... وافر الأير مرسَلَ الخصيتين

قال ما أجرُ ذا هُدِيتِ فقالت ... سوف أعطيك أجره مرتين

فابدأ الآن بالسفاح فلما ... سافحته أرضته بالأخريين

تلّها للجبين ثم امتطاها ... عالمُ الأير أفحجُ الحالبين

بينما ذاك منهما وهى تحوى ... ظهرَه بالبنان والمعصمين

جاءها زوجها وقد شام فيها ... ذا انتصابٍ موثَّقَ الأخدعين

فتأسّى وقال ويلٌ طويل ... لحنين من عار أم حُنَيْنِ

فجاء حنين الخمار فقال : يا هذا ما أردت بهجائى وهجاء أمى ؟ قال : أخذت منى درهمين ولم تعطنى شيئاً . قال - والله ما تعرفك أمى ولا أخذت منك شيئاً قط - فانظر أمى فإن كانت هى صاحبتك غرمت لك الدرهمين . قال : لا والله ما أعرف غير أم حنين. ما قالت لى إلى ذلك . ولا أهجو إلا أم حنين وابنها . فإن كانت أمك فإياها أعنى . وإن كانت أم حنين أخرى فإياها أعنى . قال : إذاً لا يفرق الناس بينهما . قال : فما علىّ إذا ؟ أترى درهمىّ يضيعان ؟ فقال له : هلم إذا أغرمهما لك وأقم ماتحتاج إليه ، ولا بارك الله لك (١) .

هذا الفحش الذى يمنع اليوم من إذاعة مثل هذا الشعر وتداوله ، هو نفسه الذى كان يدعو فى تلك الأيام إلى ذيوعه وتناقله ، فقد كان ملائما لأذواق ذلك العهد الخشنة الفظة ، وكان على ما فيه من تفصيل قذر ، غاية فى البراعة وقوة التصوير . ولولا أن ما اشتمل عليه من الفحش لا يحتمل التفصيل والتحليل ، لعرضنا لبعض نواحيه .

ومما يصور الدعابة الغالبة على مجانهم ، هذه الأبيات التى يقولها ابن عبدل فى امرأة من همدان تزوجها ثم كره صحبتها . وهى شبيهة بأبيات الأقيشر

(١) الأغانى ١١ : ٢٦١

السابقة فى أم حنين . وكلاهما يذهب فى هجائه مذهب القصة ، ويسوقه فى صورة حوار .

أعاذلَتَيَّ من لومٍ دعانى ... أقلا اللوم أن لم تعذرانى
فإنى قد دُلِلتُ على عجوز ... مبرقعة مخضبة البنان
تغضّنَ جلدُها واخضر إلا ... إذا ما ضُرِّجت بالزعفران
فلما أن دخلت وحادثتنى ... أظلتنى بيومٍ أرنوان[٢]
تحدثنى عن الأزمان حتى ... سمعتُ نداءَ حرٍّ بالآذان
فقالت قد نكحتُ اثنين شتى ... فلما صاحبانى طلّقانى
وأربعةً نكحتهم فماتوا ... فليت عريف حَيٍّ قد نعانى
وقالت ما تِلادُكَ قلت مالى ... حمارٌ ظالعٌ ومزَادتان
وبورىٌّ وأربعة زُيوفٌ ... ونوبا مفلسٍ متخرقان[١]
وقطعةُ جُلّةٍ[٢] لا تمر فيها ... ودَنّا عومة متقابلان
فقالت قد رضيتُ فَسَمِّ ألفاً ... ليسمعَ ما تقولُ الشاهدان
ومالكِ عندنا ألفٌ عتيد ... ولا تسعٌ تُعَدُّ ولا ثمان
ولا سبعٌ ولا ستٌ ولكن ... لكم عندى الطويلُ من الهوان

وقد كانت دعاباتهم هذه من أثقل الأشياء على الولاة والأشراف ، وأكثرها إزعاجاً لهم. ولى الشرطة رجل أعرج ، ثم ولى الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل — وكان أعرج — فلقى سائلا أعرج ، وقد تعرض للأمير يسأله . فقال :

---

(١) البورى الحصير المنسوج من القصب . أربعة زيوف يقصد أربعة دراهم زائفة
(٢) الجلة القفة الكبيرة تتخذ للتمر

ألقِ العصا ودعْ التخامُعَ والتمس عملاً فهذى دولة الغرْجان

لأميرنا وأمير شبرطتنا معاً ياقومنا لكليهما رِجْلان

فإذا يكون أميرنا ووزيرنا وأنا فإن الرابع الشيطان

فبعث إليه الأمير بمائتى درهم وسأله أن يكف عنه .

وقد نشأ على يد هذه الطائفة من مجان الهجائين نوع من الهجاء القصير اللاذع الذى لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة . وهو هجاء خفيف الروح ، سهل الألفاظ ، يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة ، كان قصره أوكد لذيوعه وخطورته ، وثقل وقعه على المهجو . قيل للفرزدق — ما اختيارك للقصار ؟ قال : لأنى رأيتها أثبتَ فى الصدور ، وفى المحافل أجول . وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها فى الآذان أولج ، وفى أفواه الناس أعلق[1] . وهذا النوع من الهجاء القصير ، شبيه بما كان يعرف عند اليونان واللاتين بال (epigram) .

خطب رجل من تميم امرأة من بنى أسد ، ولم يزل يسأل عن حسبها وأمهاتها ، حتى سأل الأقيشر . فقال فيه :

حضرموت فتَّشَتْ أحسابَنا وإلينا حضْرموت تنتسب

أخوة القرد وهم أعمامه برئَت منكم إلى الله العرب

وتولى الكوفة رجل من تميم ، فانكسر المنبر من تحته ، فقال :

أبنى تميم ما لمنبر ملككم ما يستقر قَرَارُه يتمرمر

إن المنابر أنكرت أستاهكم فادعوا خزَيْمة يستقر المنبر

وكان لابن عبدل جارية سوداء ، وكان يميل إليها فولدت له ابناً أسود ، فقال فيه :

---

(١) الأغانى ٢ : ٢٣

يارب خال لك مسودُّ القفا لا يشتكى من رجله مسَّ الحفا
كأن عينيه إذا تشوَّفا عينا غرابٍ فوق نِيقٍ أشرفا

وخطب امرأة يقال لها أم رياح فلم تتزوجه ، ففضحها بقوله :

ولا خير فى الفتيان بعد ابن عبدلٍ ولا فى الزوانى بعد أم رياح
فـ ... بحمد الله ماض مجرب وأم رياح عرضة لنكاحى

فتحاماها الناس ، فما تزوجت حتى أسنت .

ودخل ابن عبدل على عمر بن يزيد الأسدى وهو يأكل بطيخاً — وكان بخيلا — فسلم فلم يرد عليه السلام ، ولم يدعه إلى الطعام ، فقال فيه :

فى عمر بن يزيد خلتا دَنَسٍ بخل وجبن ولولا (...) سادا
جئناه يأكل بطيخاً على طبق فما دعانا أبو حفص ولا كادا

ويقول الفرزدق فى هجاء رجل يتهمه بالبخل اسمه عقبة بن جيار .

لو أن قدراً بكت من طول ما حُبِسَتْ
عن الحُفُوف بَكَتْ قِدْرُ ابن جيَّار (١)
ما مسها دسمٌ مذ فُضَّ معدنُهـا
ولا رأتْ أعدى بعد عهد القَيْنِ من نار (٢)

وبرز فى هذا العصر لون آخر من ألوان الهجاء الشخصى عرف بالنقائض وتبادل فيه شعراء ذلك القرن السباب ، على نحو لم يعرف من قبل . وكان محور هذا الفن ومداره شعراء العصر الثلاثة المقدمون ، جرير والفرزدق والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغانى

(١) الحفوف قلة الدسم (٢) القين الحداد

تسعة عشر شاعراً معروفاً من عصرهم ، فى معرض قصة ساقها فى لقاء جرير للحجاج ، وسؤاله إياه عن خبر الشعراء الذين هجاهم[١]. وانشغل الناس بأمرهم والتحزب لهم ، والسؤال عما أحدثوا من هجاء ، وما أجاب به كل منهم ، ينقض هجاء خصمه ويرد عليه ، حتى لقد اختلف الناس فى عسكر المهلب وهم يقاتلون الخوارج على أيهم أشعر ، فسألوا فيه بعض جند الخوارج من الأزارقة ، حين أبى المهلب أن يقول فيهم شيئاً خوفاً من شرهم[٢]. وكان الفرزدق وجرير يأتيان القبائل فى مساجدهم فينشدانهم من شعرهما. وكان أحدهما إذا سمع أن خصمه قد أتى قبيلة فى مسجدها فأنشدها من شعره ، أسرع للإنشاد فى نفس المسجد. وربما تعصبت القبيلة لصاحبه فمنعته الإنشاد ، كما فعل بنو الهجيم ، حين أذنوا للفرزدق أن ينشد فى مسجدهم ، ومنعوا جريراً أن يفعل مثله حين علم بخبره[٣]. وصار الهجاء جل هم هؤلاء الشعراء ، حتى كان أحدهم يمدح الخليفة من الخلفاء ، أو الوالى من الولاة ، فلا يخلو مدحه من هجاء خصمه والتعريض به ، وحتى أضاف جرير إلى قصيدته المشهورة فى رثاء زوجته (لولا الحياء لهاجنى استعبار) هجاء صاحبيه الفرزدق والأخطل. ولم يسلم من الانشغال بأمرهم وتتبع نقائضهم الخلفاء والأمراء بل والفقهاء. بعث بشر بن مروان برسول إلى جرير ، يسأله أن يجيب عن شعر سراقة البارقى ، الذى يفضل فيه الفرزدق ، فلم يبرح الرسول حتى أخذ قصيدة جرير ، فقرئت فى العراق ، وأفحم سراقة فلم ينطق بعدها بشىء من مناقضاته[٤]. وروى ابن سلام أن سعيد بن المسيب قال لعبد الرحمن بن حرملة حين ورد عليهم هجاء جرير والتيمى : تروّلى مماقالا شيئاً . فأتاه عبد الرحمن وقد استقبل القبلة يريد أن يكبر ، فقال له : أرويت شيئاً ؟ قال : نعم . فأقبل عليه بوجهه . فأنشده للتيمى وهو يقول : هيه هيه . ثم أنشده لجرير : فجعل يقول : أكله

(١) الأغانى ٨ : ١٥
(٢) الأغانى ٨ : ٤٢
(٣) الأغانى ٨ : ٥٢
(٤) الأغانى ٨ : ٦٨

أكله [١]. وكان إقبال الناس على شعرهم ، واهتمامهم بهجائهم . داعية لإغراء معظم شعراء عصرهم أن يهجوا نهجهم . فجواس بن قطنة يهاجى جميل ابن معمر [٢]. وتميم بن أبى بن مقبل يهاجى النجاشى . والنجاشى يهاجى عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت [٣]. وعبد الرحمن بن حسان يهاجى عبدالرحمن بن الحكم [٤]. وشبيب بن البرصاء يهاجى عقيل بن علفة [٥]. وأبو جلدة يهاجى زياداً الأعجم . وزياد الأعجم يهاجى المغيرة بن حبناء [٦]. والمغيرة بن حبناء يهاجى أخاه صخر بن حبناء [٧]. وصخر الغى يهاجى أبا المثلم [٨]. وأبو النجم يراجز العجاج [٩].

اشتعل العراق بالهجاء والمناقضات حتى تجاوزته إلى الأقطار الأخرى ، فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه حينما ذهبا ، حتى لقد قدم الوليد المدينة وبها جرير وعمر بن لجأ يتهاجيان ، فأمر بهما فضربا وأقيما على والبُلُس [١٠]. وكان جلدهما بسبب قصيدة جرير التى يبدأها بقوله :

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم لا يوقعنكم فى سَوْءة عمر

وكان أفحش ما قاله جرير فيها — وهو عجيب فى حكاية ألفاظ النساء ، على مافيه من إغراق فى الفحش .

تقول والعَبْدُ مسكينٌ يُجَرِّرُها أرفُقْ فديتُك أنت الناكح الذكر

ولم تكن العداوة وحدها هى الدافع إلى الهجاء والمناقصة فى كل الأحيان . فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية ،

---

(١) ابن سلام ١٥٣
(٢) الأغانى ١٩ : ١١٢
(٣) ابن سلام ٥٦
(٤) الأغانى ١٣ : ١٥٠
(٥) الأغانى ١١ : ٩٣
(٦) الأغانى ١١ : ١٦٢
(٧) الأغانى ١١ : ١٦٨
(٨) الأغانى ٢ : ٢٩٨
(٩) الأغانى ٢٠ : ٢٠
(١٠) الشعر والشعراء ٢٣٣
(١٠) البلس غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به ، وينادى عليه .

ويهدف إلى السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وقد كان الفرزدق وجرير على ما بينهما من خصومات مريرة ، يتبادلان فيها أشنع الهجاء وأفحش السباب ، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء ، ويترافقان فى الرحلة ، فلا يكون بينهما إلا ما يكون بين الصديقين . وربما خرجا مرتدفين على ناقة واحدة ، كما يحدثنا ابن خلكان ، فى بعض رحلاتهما إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ بالرصافة [١] بل لقد شفع جرير فى الفرزدق عند هشام ، حين كتب إلى خالد القسرى عامله فى العراق ، يأمره بحبسه لتعريضه به فى قوله .

يُقَلِّبُ عيناً لم تكن لخليفة مشوَّهةً حَوْلاء بادٍ عيوبها

دخل جرير يومئذ على هشام فقال — يا أمير المؤمنين إنك تريد أن تبسط يدك على بادى مضر وحاضرها . فأطلق لها شاعرها وسيدها الفرزدق . فقال له هشام : أو ما يسرك أن أخزاه الله ؟ قال : ما أريد أن يخزيه الله إلا على يدى . فأمر هشام بإطلاقه [٢] . وتبادل جرير والأخطل الهجاء وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، حتى التقيا عند عبد الملك بن مروان [٣] . ولقى ابن ميَّادة ابن هرمة فقال له : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بد أن نتهاجى ، وقد فعل الناس ذلك قبلنا . [٤] فالتهاجى والتناقض هنا مباراة أدبية ، وليس ناجما عن عداوة ولا هو موجبا لها ، إلا بمقدار ما يكون بين متنافسين على السبق . وربما استطعنا أن نتصوره إذا قرناه بما نعرف فى الأندية الشعبية من تبارى رجلين فى النكتة بما يعبر عنه (بالدخول فى آفية) وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً كلما أمعن القارىء فى دراسة شعر النقائض . فالشعراء يكثرون من الفخر بقوة شعرهم ، وبتفوقهم الفنى الذى لا يجارى ، وبشدة وقع شعرهم على أعدائهم وخصومهم ، وما يتاح لهذا الشعر من ذيوع يذهب به إلى أقاصى الأرض .

---

(١) ابن خلكان ٣ : ١٥١ .
(٢) العقد الفريد ٦ : ١٧٣ .
(٣) الأغانى ٧ : ٦٩ .
(٤) الأغانى ٤ : ٣٦٩

يقول جرير فى هجاء النميرى :

أعد الله للشعراء منى صواعق يخضعون لها الرقابا
أنا البازى المطل على نُمَير أُتِيحتُ من السماء لها انصبابا
إذا علقت مخالبُه بِقِرْنٍ أصاب القلب أوهتك الحجابا

ويقول :

رجوتم يابنى وَقَبانَ موتى وأرجو أن تطول لكم حياتى
إذا اجتمعوا علىَّ فخلِّ عنهم وعن بازٍ يصُكُّ حُبَارِيات

ويقول للبعيث :

وعاوٍ عوى من غير شىء رميتُه بقافية أنفَاذُها تقطر الدما
وإنِّى لقوَّالٌ لكل غريبة وَرُودٍ إذا السارى بليل ترنما
خَرُوجٍ بأفواه الرواة كأنها قَرَى هندوانى إذا هُزَّ صمما

ويقول للفرزدق :

إن القصائد قد جَدَعْنَ مجاشعاً بالسم يُلحَم نسجها ويُنَار
ولقوا عَوَاصِىَ قد عييت بنقضها ولقد نُقِضْتَ فما بك استمرار
قد كان قومك يحسبونك شاعراً حتى غرقت وضمك التَّيار

ويقول الفرزدق لجرير :

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم وأوابدى بتنحل الأشعار

ويقول له :

إن كان قد أعياك نقضُ قصائدى فانظر جرير إذا تلاقى المجمع

ويقول معيراً إياه ضعف شعره زاعماً أنه سباب ليس من الفن فى شى

أتطلب ياحمار بنى كليب بعانتك اللهاميم الرغابا

وتعدل دارماً ببنى كليب وتعدل بالمُفَقِّئة السِّبابا

ويقول:

غلبتك بالمفقىء والمعنَّى وبيت المحتبِي والخافقات

وهو يقصد بذلك قصائده التى يقول فى إحداها

ولست وإن فقأتَ عينك واجداً أباً عن كليب أو أباً مثل نهشل

ويقول فى أخرى:

وإنك إذ تسعى لتدرك دارما لأنت المعنَّى ياجرير المكلَّف

ويقول فى ثالثة:

بيتاً زرارةُ محتبٍ بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

ويقول فى رابعة:

وأين تقضِّى المالكان أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

ويبدو من هذا البيت أن الفرزدق كان يسمى قصائده، كما يبدو ذلك أيضا من بيته فى نقيضته المشهورة (إن الذى سمك السماء) حيث يسميها الفيصل:

إن التى فقئت بها أبصاركم وهى التى دمغت أباك الفيصل

وكان جرير والفرزدق يتواقفان بالمربد، وينشد كل منهما نقيضته بإزاء صاحبه[1].

وربما أوحت الظروف والموقف لأحدهما بشعر مرتجل لم يكن قد فكر فيه من قبل، كما نعرف من نقيضة جرير.

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٢٢ .

وما كان من تغطية الفرزدق لرأسه ، حين بلغ جرير قوله (ترى بَرَصاً بأسفل إسْكَتَيْها) متوقعاً أن الشطر الآخر من البيت لا بد أن يصيبه . فلم يلبث جرير أن قال : (كعَنْفَقَةِ الفرزدق حين شابا) .

وكان الشعراء المتناقضون ، يتربص بعضهم ببعض ، فلا يكاد أحدهم يصيب من صاحبه سقطة ، حتى يسجلها عليه ، ويشنع بها مبالغاً فى تصويرها . يشكو الأخطل من إيقاع الجحاف بقومه حين يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتَكَى والمعوَّل

فيقول له جرير :

بكى دوبلٌ لا يرقِئُ الله دمعَه ألا إنما يبكى من الذل دوبل

ويفحش الفرزدق فى بعض شعره وهو مقيم بالحجاز ، فينفيه عمر بن عبد العزيز والى الحجاز وقتذاك ، فيقول جرير :

نفاك الأغرُّ ابن عبد العزيز وحقُّك تُنفَى من المسجد

ويهب بعض السادة جارية لجرير ، فتمل عيشه الخشن ، ويقول فيها جرير :

تكلفنى معيشةَ آل زيد ومن لى بالمُرَقَّق والصِناب(١)

وقالت لا تضم كضم زيد وما ضمى وليس معى شبابى !

فلا يلبث الفرزدق أن يعيره بقوله :

فإن تفرُكْك عِلجَةُ آل زيد ويعوِزك المرقق والصناب(٢)

فقِدماً كان عيش أبيك مرا يعيش بما تعيش به الكلاب

وكانت مهارة الهجاء تتركز فى إدراكه لوجه النقص البارز فى خصمه ،

---

(١) المرقق نوع من الفطائر . الصناب لون من الطعام يتخذ من الخردل والزبيب
(٢) فركت المرأة زوجها من باب نصر وطرب كرهته . العلج من ليس عربيا .

وقدرته على الافتنان والتصرف فى استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة الساخرة منه . فهجاء جرير للأخطل يدور فى معظمه حول نصرانيته . فكل صوره من الخمر والصليب والجزية ، المفروضة على أهل الذمة .

يقول له :

قبح الإله مَن الصليبُ إلهُـه   واللابسين برانس الرهبان
والتابعين جُريجسا وبُنَيّــه   والتاركين مساجد الرحمن
والذابحين إذا تقارب فِصْحهم   شُهْبَ الجلود خسيسة الأثمان
من كل ساجى الطرف أعصلَ نابُه   فى كل قائمة له ظلفان
تغشى ملائكة الإله قبورنا   والتغلبىُّ جنـازة الشيطان
يُعطَى كتاب حسابه بشماله   وكتابُنا بأكفنا الأيمْان

ويقول له :

الضاربون على النصارى جزية   وهدى لمن تبع الكتاب ونوراً
إنا نسود فى الحياة حياتنا   ويسود من دخل القبور قبوراً
الله فضلنا وأخزى تغلبا   لن تستطيع لمـا قضى تغييراً
الباعثين برغم آنف تغاب   فى كل منزلة عليك أميرا
أفبالصليب ومار سرجس تتقى   شهباء ذاتَ كتائبٍ جمهورا (١)
أمُّ الأخيطل بالرحوب إذا انتشت   عاقَت بشقشقة العجان هديراً
لقِحَتْ لأشهب فى الكناسة داجناً   خنزيرةٌ فوالدا خنزيراً (٢)

---

(١) مارسرجس قديس نصرانى كانت تغلب تتخذه شعارا لها فى الحروب
(٢) يتهمها بأنها قد أتت بالأخطل من خنزير لامن أبيه . أشهب فى الكناسة داجنا يعنى خنزيرا

وَلَدَ الأخيطلَ أمُّه مخمورةً   قبحًا لذلك شاربا مخموراً

ويقول له :

رويدكمُ مسحَ الصليب إذا دنا   هلالُ الجزَى واستعجلوا بالدراهم (١)

وهجاء جرير للفرزدق يدور حول ما زعم من أن أجداد. كانوا يحترفون الحدادة . فكل صوره من النار والحديد والشرر والدخان والكير وأدوات الحدادة والرقيق الذين يتخذونهم لهذه الصناعة وما يتهم به نساءهم من ميل لهؤلاء العبيد .

فانفخ بكيرك يافرزدق إننى   فى باذخ لمحل بيلك عالَ
يارب معضِلةٍ دفعنا بعد ما   عَىّ التُيونُ بحيلة المحتال
مابال أمك إذ تسربَلُ درعها   ومن الحديد مُفاضةٌ سربالى
حمَّمتَ وجهك فوق كيرك قائما   وسقيت أمك فضلة الجِرْيال (٢)
فانفخ بكيرك يافرزدق وانظر   فى كَرْنَباء هديةَ القفَّال

ويقول :

حدراء أنكرت القيون وريحهم   والحُرُّ يمنع ضيمَه الإنكارُ
لما رأت صدأ الحديد بجلده   فاللون أوْرَقُ والبنان قصار
قال الفرزدق رقعى أكيارنا   قالت وكيف ترقِّعُ الأكيار
رقِّعْ متاعَكَ إن جدى خالدٌ   والقينُ جدُّك لم تلدك نزار

---

(١) الجزى جمع جزية وهى الضرائب التى كان يؤديها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) للدولة مقابل حمايتهم .

(٢) الجريال الخمر

ويقول :

فدينك يافرزدق دِينُ ليلى ... تزور القَيْنَ حَجًّا واعتماراً (١)

فظل القين بعد نكاح ليلى ... يُطيِّرُ على سِبالكم الشرارا (٢)

وهجاء الفرزدق لجرير يدور حول نقرهم واصطناعهم الحمر فى تنقلهم وهو دليل الذلة لأن السادة يركبون الخيل والإبل . وهو يتمادى فى ذلك إلى أغرب ألوان الخيال وأفحشه ، فيتصور رجالهم وقد هجروا مضاجعهم إلى الأتن ، ويتخيل ما يكون من غيرة نسائهم من هذه الأتن التى تنافسهن على أزواجهن .

يقول له .

يا ابن المراغة كيف تطلب دار ما ... وأبوك بين حمارة وحمار

هلا غداة حَبَسْتُم أعياركم ... بجُدُود والخَيْلان فى إعصار (٣)

والحوفزانُ مسوَّمٌ أفراسَه ... والمحصَنَاتُ حواسرُ الأبصار

يدعون زيد مناة إذ ولَّيتُم ... لا يتَّقين على قفًا بخَمار

قبح الإله بنى كليب إنهم ... لا يغدرون ولا يفون لجار

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم ... وتنام أعينهم عن الأَوتار (١)

---

(١) ليلى أم الفرزدق . يتهمها بالعبيد الذين كان يتخذهم جد الفرزدق للحدادة . ويقول له إنك تشبهها .

(٢) السبال شعر الشاربين واللحية .

(٣) جدود يوم كان بين الحوفزان (وهو من بكر بن وائل) وبين بنى يربوع (قوم جرير) . وحديثه مفصل فى النقائض ج ٢ ص ٣٢ — ٣٥

(٤) يعجب لهم كيف يوقظهم نهاق الحمار ، ثم لا يوقظهم دم قتلاهم الذى يصرخ طلبا للثأر . الأوتار جمع وتر وهو الثأر .

تلقى فوارسنا إذا ربقتم متلببين لكل يوم عوار(١)

ويقول له :

لعمرى لقد قالت أمامةُ إذ رأت جريرا بذات الرقمتين تشنّعا(٢)

أمكتفل(٤) بالرقم إذ أنت واقف أتانَكَ أم ماذا تريد لتصنعا

رأيتكَ تغشى كاذتيها ولم تكن لتركب إلا ذا السحوج الموقّعا

دعتْ يا عبيد بن الحرام ألا ترى مكان الذى أخزى أباك وجدّعا

أأعيا عليك الناسُ حتى جعلتَ لى خليلاً يعادينى وآتنه معا

وهجاء المغيرة بن حبناء لزياد الأعجم يدور حول فارسيته ، فهو علج مستضعف مجهول النسب ألكن لا يقيم لهجته . وليس بناته إلا ولائد لم يجر عليهن موسى فى ختان (٥) .

يقول له :

أزيادُ إنك والذى أنا عبده ما دون آدم من أبٍ لك يُعلَم

فالحق بأرضك يا زياد ولا ترم ما لا تطيق وأنت عِلجٌ أعجم

أظننت لؤمك يا زياد يسده قوس سترتَ به قفاك وأسهم

عِلجٌ تعصب ثم راق بقوسه والعلجُ تعرفه إذا يتعمّم

ألق العصابة يا زياد فإنما أخزاك ربى إذ غدوتَ ترنّمُ

---

(١) الربق بكسر الراء حبل فيه عدة عرى يشد به البهم . فكل عروة ربقة . وربق بالتشديد جعل الرأس فى الربقة . يقول إن قوم جرير رعاة لا يصلحون للقتال .

(٢) أمامة زوجة جرير . ذات الرقمتين أتانه . تشنع هم بأمر شنيع قبيح

(٣) أكتفل الدابة ركب كفلها وهو مؤخرها ، الكاذتان أعلى الفخذين . ذو السحوج الموقع الأتان يريد آثار الدبر فى ظهورها

(٤) الأغانى ١١ : ١٦٦

وأعلم بأنك لست منى ناجيا ... إلا وأنت ببظر أمك مُلْجَم
تهجو الكرام وأنت ألأم من مشى ... حَسَبًا وأنت العلج حين تكلَّمُ
ولقد سألتُ بنى نزار كلّهم ... والعالمين من الكهول فأقسموا
بالله ما لك فى معدٍ كلّها ... حسبٌ وأنك يا زياد موذَّم

ويقول له :

فأصبحت علجا من يُزْرك ومن يَزُرْ ... بناتك يعلم أنهن ولائد
وأصبحن قُلْفًا يغتزلن بأجرة ... حواليك لم تَجْرَح بهن الحدائد
نفرن من الموسى وأقرَرْنَ بالتى ... يُقِرُّ عليها المُقرِفاتُ الكواسد
بإصطخر لم يلبَسْنَ من طول فاقة ... جديداً ولا تُلْقى لهن الوسائد
وما أنت بالمنسوب فى آل عامر ... ولا ولدَتْكَ المحصَناتُ المواجد
ولا ربَّبتْكَ الحنظلية إذ غذت ... بنيها ولا جِيبَتْ عليك القلائد
ولكن غذاك المشركون وزاحمت ... قفاك وخديك البظورُ العوارد
ولم أر مثلى يا زياد بعرضِه ... وعرضِك يستَبّان والسيفُ شاهد
ولو أننى غَشَّيْتُكَ السيف لم يَقُلْ ... إذا متَّ إلا مات علجٌ معاهد

كان الجانب الأكبر من نقائض جرير والفرزدق منافسة أدبية كما قدمنا. ولذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقيضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروى ، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر . والظاهر أن الإجابة من نفس البحر والروى كانت قاعدة مقررة فى الموازنة بين شعر الشعراء . فقد كان النقاد منذ عصر امرىء القيس، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين ، وازنوا بينهما فى شعر متحد فى الغرض وفى الوزن والقافية. وقصة

علقمة الفحل مع امرىء القيس ، حين احتكما إلى زوجته، أشهر من أن نحتاج إلى ذكرها . وهى قوية الدلالة على هذا الأصل من أصول النقد القديم . وقد أخذ شعراء النقائض فى هذا القرن أنفسهم بتميد جديد ، هو محاولة الإجابة على أبيات الخصم ونقضها بيتاً ببتاه ويكفى فى ذلك أن نقدم مثلين من قصيدة الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتًا دعائمه أعزُّ وأطول

ونقيضة جرير :

لمن الديار كأنها لم تحلل   بين الكناس وبين طَلْحِ الأعزل

فأول ما نلاحظ فى النقيضتين كثرة اشتراك القوافى فيهما . فنقيضة جرير تشترك فى قوافى أبياتها مع ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدة الفرزدق ، مع أن مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتاً . وجرير يتتبع فى نقيضته معانى الفرزدق ، فيجيب عليها بنفس الطريقة والأسلوب ، متقابلا الفخر بفخر ، والصورة بصورة ، والحوار بحوار .

يقول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنا لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول[١]

بيتا بناه لنا المليك وما بنا   حكم السماء فأنه لاينقل

بيتاً زُرارةُ مُحتَبٍ بفِنائه   ومجاشعٌ وأبوا الفوارس نَهْشَل[٢]

---

(١) سمك السماء رفعها . السمك بفتح السين وسكون الميم . السقف . أعز وأطول يعنى من بينك

(٢) زرارة ومجاشع ونهشل كلها من بيوت درام (ودارم من تميم) ، والفرزوق من مجاشع ثم من دارم (راجع شجرة انساب تميم) الاحتباء أن يجلس الرجل على الأرض ثانيا ساقية وقد شدها إلى ظهره بعمامته أو نطاقه أو نجاد سيفه أو نحو ذلك ليطمئن فى جلسته . والفرزوق يكنى به هنا عن السيادة والاطمئنان والحلم .

لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عُدَّ الفعال الأفضل

فيجيبه جرير عن البيتين الأولين بقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً علاك فما له من منقَل

أخزى الذى سمك السماءَ مجاشعاً وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل

بيتاً يحمَمُ قينكمُ بفنائه دنِسًا مقاعدُه خبيث المَدْخَل

ويجيبه عن البيتين الثالث فى فخره ينهشل — وهم من غير قومه لأنه من مجاشع — بقوله :

أعيَتْكَ مأثرةُ القيون مجاشعٍ فانظر لعلكَ تدَّعى فى نهشل

ويجيبه عن البيت الرابع الذى يشير فيه إلى احتبائهم بفناء بيتهم — يكنى بذلك عن عزهم — بقوله :

قُتِلَ الزُبير وأنت عاقدُ حُبْوَةٍ تبًّا لحبوتك التى لم تُحْلَل[١]

ويقول الفرزدق :

وإذا دعوتُ بنى فُقَيم جاءنى مَجْرٌ له العدد الذى لا يُعْدَل

وإذا البراجمُ بالقروم تخاطروا حولى بأغلب عزه لا ينزل

فيجيبه جرير :

وامدح سَراة بنى فُقَيم إنهم قتلوا أباك وثأره لم يُقتَل[٢]

---

(١) هو الزبير بن العوام الصحابى كان من الخارجين على على بن أبى طالب مع طلحة وعائشة أم المؤمنين . وقد زعم جرير أنه كان جارا للنعر بن زمام المجاشعى فقتل فى جواره . وهو يقول له : قتل جاركم وأنتم مطمئنون لا تتحركون ولا تحلون الحبوة ناهضين لاغاثته .

(٢) بنو فقيم من دارم فهم أبناء عم مجاشع قوم الفرزدق (راجع الشجرة) مجر جيش كبير .

ودَعِ البراجمَ إن شربك فيهم مُرٌّ عواقبُه كطعم الحنظل

ويقول الفرزدق :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَل

وأخو بنى قيسٍ وهن قتلنه ومهاهِلُ الشعراء ذاك الأول (١)

فيجيبه جرير :

حسب الفرزدق أن تُسَبَّ مجاشع ويعُدُّ شعر مرقش ومهلهل

ويقول الفرزدق :

إنى ارتفعت عليك كل ثَنِيَّة وعلوت فوق بنى كليب من عَلُ (٢)

فيجيبه جرير :

إنى انصببت من السماء عليكم حتى اختطفتك يافرزدق من عل

ويعير الفرزدق جريراً أمه حيث يقول :

وتركت أمك ياجرير كأنها للناس باركةً طريقٌ مُعْمَلَ (٣)

ويمضى فى تفصيل الصورة ممعنا فى الفحش .

فيجيبه جرير معيراً بأخته (جعثن) :

بات الفرزدق يستجير لنفسه وَمُجَرُّ جعْثِن كالطريق المعمل

ثم يقابل تفصيل الفرزدق فى الفحش بتفصيل مثله .

---

(١) النوابغ النابغة الذبيانى والنابغة الجعدى ونابغة بنى شيبان . أبو يزيد هو المخبل ، ذو القروح أمرؤ القيس . جرول هو الحطيئة . أخو بنى قيس طرفه ابن العبد . هن قتلنه يعنى القوافى .

(٢) الثنية الطريق .

(٣) طريق معمل مستعمل تدوسه الأقدام .

ويقول الفرزدق :

حُلَلُ الملوك لباسُنا فى أهلنا والسابغاتِ إلى الوغى نتسربل
أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنًّا إذا ما نجهل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم بعد الزبير كحائضٍ لم تُغْسَل
أبلغْ بنى وَقبانَ أن حلومهم خفت فما يزنون حبة خردل

ويحتكم الفرزدق إلى دغفل النسابة فى أنه أكرم من جرير أخوالا حين يقول :

أوصى عشيةً حين فارق رهطه عند الشهادة والصحيفة دَغْفَلُ
أن ابنَ ضبة كان خيراً والداً وأتمَّ فى حسب الكرام وأفضل (١)

فيرد عليه جرير محتكما إلى قريش فى أن قومه أكرم .

فارجع إلى حكَمَى قريش إنهم أهل النبوة والكتاب المنزل
فاسأل إذا خرج الخِدامُ وأُحمِشَتْ حرب تَضَرَّمُ كالحريق المشعل (٢)
ابنو طُهَيَّة يعدلون فوارسى وبنو خضاف وذاك مالم يعدل

ويفتخر الفرزدق بأخوله من ضبة قائلا :

يا ابن المراغة أين خالك إننى خالى حُبَيْشٌ ذو الفعال الأفضل
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حِباءُ حَفْنَةَ يُنْقَل (٣)

---

(١) بنو ضبة إخوة تميم وهم أخوال الفرزدق .
(٢) الخدام الخلاخيل . خرج الخدام يعنى وقت الغارة إذا فزع النساء .
(٣) الحباء العطاء . آل جفنه هم الغساسنة ملوك الشام . وكان حبيش بن دلف خال الفرزدق قد أسر أحدهم وجز ناصيته ثم أطلقه على أن يبعث إليه كل عام بحبائه من غير أن ينتقل إليه .

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله   مثل الذليل يعوذ تحت القَرْمَل (١)
وافخر بضبة إن أمك منهم   ليس ابن ضبة بالمُعِمِّ المُخوِلِ

ويفتخر الفرزدق بقومه فى الدروع والسيوف حين يقول .

يمشون فى حَلَق الحديد كما مشت
جُرْبُ الجمال بها الكَحيلُ المُشعَل (٢)
يَحْمِي إذا اخترِطَ السيوفُ نساءنا
ضربٌ تَخِرّ له السواعد أرعل

فيجيبه جرير بأنه إنما يحسن وصف السيوف لأنه حداد ابن حداد ، فهم يصنعون السيوف ، ولكن غيرهم يحارب بها .

تصف السيوف وغيركم يعصَى بها
يا ابن القيون وذاك فعلُ الصَّيْقل (٣)

ويشير الفرزدق إلى أتن جرير فيتهمه ويتهم أباه بها .

هلا سألت بنى غدانة ما رأوا   حيث الأتانُ إلى عمودك تُرْحَل
كسرت ثنِيَّتك الأتانُ فشاهِدٌ   منها بِفيكَ مبيَّنٌ مستقبَلُ
رمحَتْك حين عجِلتَ قبل وِدَاقِها   لكن أبوك وِداقَها لا يَعجَل (٤)

---

(١) القرمل شجر ضعيف لا شوك له .

(٢) الكحيل القطران تطلى به الابل إذا أصيبت بالجرب . يشبه قومه لكثرة ماعليهم من الحديد بالابل المطلية بالقطران .

(٣) الصيقل الذى يصقل السيوف .

(٤) الثنية من الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل. والظاهر أن أسنان جرير الامامية كانت ساقطة ، فزعم الفرزدق أن الأتان قد رمحته برجليها الخلفيتين فكسرتها . الوداق طلب الفحل .

فيجيبه جرير مشيرا إلى اشتغالهم بالحدادة ، ويتهم أمه بقين من قيونهم اسمه نبتل .

أَلْهَى أباكَ عن المكارم والعلى لىُّ الكتائف وارتفاع المرجل
وَلَدَتْ قُفَيرة قد علمتم خَبْثَةً بعد المشيب وبَظْرُها كالمنجل
أشرَكْتِ إذ حُمِل الفرزدقُ خبثةً حوضَ الحمار بليلةٍ من نَبْتَل(١)

وكثيرا ما كان يبدو للشاعر أن ينقض أبياتا من رد خصمه ، ثم يضيفها إلى قصيدته . فنحن نجد فى قصيدة الفرزذق هذه أبياتاً يرد بها على نقيضة جرير التالية لها ولا شك أن مثل هذه الأبيات قد ألحقها الفرزدق بنقيضته بعد أن سمع رد جرير وذلك مثل قوله .

يبكى على دِمَن الديار وأمُّه تعلو على كَمَرِ العبيد وتَسفُلُ

فهو رد على ما ابتدأ به جرير قصيدته من الوقوف بالأطلال .

لمن الديار كأنها لم تُحلَل بين الكِناس وبين طَلْح الأعزل

ومنه قول الفرزدق :

أسألتَنى عن حبوتى ما بالها فاسأل إلى خَبَرى وعمّا تسأل
فاللؤم يمنع منكم أن تَحتَبوا والعِزُّ يمنَعُ حبوتى لا تُحلَل
والله أثبتها وعز لم يزل مُقْعَنْسِساً وأبيك ما يتحول

وهو رد على بيت جرير :

قُتِل الزبيرُ وأنت عاقِدُ حبوةٍ تبًّا لحبوتك التى لم تُحْلَل

---

(١) قفيرة أم الفرزدق ، أشركت يخاطبها بذلك فيقول إنك قد جئت بالفرزدق من غالب أبيه (حوض الحمار) ، ومن نبتل العبد . فكلاهما أبوه . وهما مشتركان فيه .

وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح فى قصيدة جرير المشهورة التى رثى بها زوجته .

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزار

فالرثاء فيها ينتهى عند البيت الثانى والعشرين ، ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء الفرزدق ، حتى يبلغ بالقصيدة سبعة عشر بيتا فوق المائة . والواقع أن جريرا رثى زوجته ، فنقض عليه الفرزدق الرثاء ، متشما بمصيبته ، مهاجما زوجته الفقيدة ، فى غلظة قاسية ، لا تصدر إلا عن رجل فظ جاف كالفرزدق . ثم رد جرير على الفرزدق ، وألحق الرد بالرثاء ، فبدا رثاؤه غريبا على القارىء الذى لا يكاد يتصور أن شاعرا حزينا منكوبا فى زوجته ، يجد فى نفسه الفراغ للخوض فى مثل هذا الهجاء الخبيث المفحش . ودارس النقيضتين يجد ذلك واضحا لا شك فيه . ففى نقيضة الفرزدق أبيات يتشمت فيها بمصيبة جرير ، ويهجو زوجته ، وهى رد على الجزء الخاص بالرثاء من قصيدة جرير . على أن الشطر الهجائى من نقيضة جرير كله رد على نقيضة الفرزدق .

يبدأ جرير مرثيته بقوله :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزار
ولقد نظرتُ وما تمتُّعُ نظرةٍ فى اللحد حيثُ تمكَّنَ المِحفْار
فجزاكِ ربُّكِ عن عشيركِ نظرةً وسقى صداكِ مجلْجِلٌ مِدْوَار

وهى أبيات تقطر حزنا ووفاء . وهى من أجمل ما قيل فى الرثاء صدقا وروعة . ولكن الفرزدق ، ذلك الشاعر الفظ ، لا يتورع عن اغتنام هذه الفرصة لهجاء جرير ، فيجيب عن هذه الأبيات بقوله .

إن الزيارةَ فى الحياةِ ولا أرى ميْتاً إذا دخل القبورَ يُزار

ويمضى فى الرد ، متصورا نظرة جرير الحزينة إلى زوجتة ، نظرة خبيثة نفيض بالإثم فهو لا يبكى فيها إلا شهوته .

ولقد هممْتَ بسوأةٍ وفعلتَها ... فى اللحد حيث تمكن المِحْفار
أفبعد ما أكل الضِباعُ رحيبَها ... تذرى الدموع أهانك القهّار[1]
ورثيتها وفضحتَها فى قبرها ... ما مثلَ ذلك تفعل الأخيار

وجرير يقول فى مرثيته :

كانت مُكرَّمةَ العشير ولم يكن ... يَخْشَى غوائلَ أمِ حزرة جارُ

فيجيبه الفرزدق :

كانت مُنافقةَ الحياة وموتُها ... خِزىٌ علانيةً عليك وعار

وجرير يقول :

صلّى الملائكةُ الذين تُخُيِروا ... والصالحون عليكِ والأبرار

فيجيبه الفرزدق :

قال الملائكةُ الذين تخيروا ... والمصطفون لدينه الأخيار
أبكى الإلهُ على نَبيثَةَ من بَكَى ... جَدَفاً ينوحُ على صداه حمار[2]

وبعد ، فجرير يبدأ الجزء الهجائى التالى للرثاء من نقيضته بقوله :

أفأم حزرة يا فرزدق عبتم ... غضب المليك عليكم القهار

ويمضى فى الإجابة على أبيات الفرزدق ، مقابلا الفخر بفخر ، والحوار بحوار ، والصورة بصورة ، والفحش بفحش مثله . فالفرزدق يلح فى نقيضته على أتن جرير ، ويفتن فى استخراج الصور البالغة فى البراعة والفحش معا ،

---

(١) الرحيب عوة المرأة .

(٢) النبيثة التراب الذى يخرج من القبر إذا حفر .

فيقول له : فيم بكاؤك على زوجتك ، ولك منها فى الأتن خير خلف ؟ فاذهب إلى أبيك يخطب لك أحداهن . . . ثم ينصحه متهكما يتخير الأبكار .

وجرير يعدل هذه الصورة ، التى يفتن فيها الفرزدق فى تصوير الحمر ، بصورة مثلها ، يفتن فيها فى تصوير القين . فليس فى قبر أبيه إلا أدوات الحدادة ، كتيف وكلبتان وميشار ، وليس يذكر أبوه بخير إلا إذا تصدع مرجل ، أو كسرت قدر ، فقد كان خير من يصلحها . وحدراء ، زوج الفرزدق ، قد أنكرت القيون وريحهم . (والحرُّ يمنعُ ضيمه الإنكار) . ويمضى فى تصور ما يكون بينه وبينها من حوار ، إذ يطلب إليها ترقيع أكياره ، فتجيبه غضبى بأنها لا تحسن ذلك ، لجدها خالد لم يكن حدادا . وهى غاضبة على قومها الذين زوجوها من (قينٍ أحَمَّ لفَسْوِه إعصار) ، فجمعوا عليها بين الاغتراب عن أهلها ، والذل الذى تلقاه فى بيت زوجها . ثم يتهم جرير أمَّ الفرزدق وبنات الجلْدَق وهو لقب مجاشع — بالعبيد من قيونهم ، ويخص منهم عبداً أسمه جبير ، بادئاً ذلك بقوله .

سبُّوا الحمارَ فسوف أهجو نسوةً   للكير وسطَ بيوتهن أُوار

ومن الخصائص الجديدة على فن الهجاء فى النقائض ، هذا الأسلوب القصصى الذى ابتدعه جرير والفرزدق ، وبرعا فيه براعة ظاهرة ، لا يغض منها إلا إمعانها فى الفحش البذىء ، الذى تنفر منه النفس فى كثير من الأحيان ولكنها مع نفورها من هذا الواقعية العارية ، التى تلتقط ما دتها من الوحل والأقذار ، لا تتمالك من الإعجاب بدقته الحية فى التصوير ، وتسلسل الحوار على نحو بالغ فى محاكاة الطبيعة . ونحن نكتفى فى التمثيل لهذا الأسلوب بما قدمنا ففيه غناء .

ولم يبق إلا أن نلاحظ على هذه الطبقة من المحترفين للهجاء ، ما أشرنا إليه فى مقدمة هذا البحث ، من أن معظمهم قد دفع الى هذه الاتجاه ، نتيجة

إحساسات مكبوتة ، أو دوافع مستترة ، هى شعور بالنقص فى معظم الأحيان وشعور بالاضطهاد أو التفوق فى أحيان أخرى . فالمتتبع لأخبارهم يجد أن معظمهم قد أحاط بنشأته شيء من النقص الذى يغض من قدرهم ، ويهون من أمرهم على الناس ، ويحقرهم فى أعينهم ، وأنهم يصطنعون الهجاء ليكسبهم رهبة فى عيون الناس . ونحن نقدم بعض الأمثلة ؛ مما نعرف عن نشأة بعض الهجائين ، الذين جاء ذكرهم فى هذا الفصل .

كان جرير من أسرة فقيرة مغمورة . وكان قميئا[1] وُلِد لسبعة أشهر . وكان عاقا لأبيه ، لأنه ساخط على الظروف التى جاءت به إلى الدنيا عن طريق هذا الرجل الخامل المغمور ، الذى لا يجد فيه شيئا يستطيع أن يفخر به . حتى لقد استعار منه مرة فحلا يطرقه فى إبله ؛ فلما استغنى عنه ، جاءه أبوه فى بَتٍّ خلق يسترده ، فدفعه إليه قائلا . هذا (ترَدُّ إلى عطية[2] تُعْتَل) وهو بذلك يشير إلى بيت الفرزدق فيه .

ليس الكِرامُ بِناحِليك أباهُمُ حتى تُرَدُّ إلى عَطِيَّة تُعْتَل

وكان الفرزدق بشع المنظر ؛ فوجهه غليظ جهم القسمات ، لا يشبهه إلا غلظ طبعه . وهو على جهامته وضخامة قسماته ، منقَّر من آثار الجدرى . ومن أجل ذلك لقب بالفرزدق ، وهو الرغيف الضخم . وكان مع هذا غليظا قصيرا أصلع ، كما يفهم من شعر جرير فيه ، حين يسميه (القُرَيْد الأصلع) وحين يقول فيه .

لقد ولدَتْ أمُ الفرزدق فاجراً فجاءت بوَزْوَازٍ قصيرِ القوائم

وكان يجمع إلى كل هذا ، شعورا بالتفوق فى النسب ، يبلغ به حد الجنون

---

(١) القمىء الضئيل الجسم .

(٢) عطية هو والد جرير .

وكان الأخطل نصرانيا مغمورا فى بلد إسلامى . وكان فى طفولته مهملا من زوج أبيه ، يذوق آلام الحرمان ، ويعانى كثيرا من التضييق ، الذى جعله متمردا منذ نشأته ، يلتمس السبيل للظهور بالإفحاش على الناس ، حتى لقب بالأخطل — والخطل التسرع إلى البذاءة والسفه —

وكان الأقيشر أحمر الوجه أقشر . وكان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يناديه الناس بهذا اللقب ، لأنه يذكره بما يكره من نفسه ، وما يحس من نقصه ودمامة منظره . وقد خلق منه هذا الشعور هجاء فكها ، بارع النكتة والدعابة . وكان مع هذا فقيرا ، يستدين ولا يبالى من أى وجه اقترض ، ويمدح بدرهمين وثلاثة ، وكان عِنِّينا ، لا يأتى النساء .

وكان المغيرة بن حبناء أبرص ، وكان من أسرة خاملة ليس فيهم إلا مبتلى بآفة عظيمة ، فأخوه صخر بن حبناء أعور ، وأخوه الآخر مجذوم ، وأبوهم مصاب بالحَبَن ، وهو داء فى البطن يعظم منه ويَرِم ، وهو مرض الاستسقاء .

وكان الحكم بن عبدل أعرج أحدب ، لا تكاد تفارقه عصاه .

وكان معظم الموالى الذين ظهروا فى هذا العصر هجائيين ، كما سنبين فى فصل نفرده لهجائهم .

هؤلاء رجال قد فشلوا فى أن يحتلوا مكانتهم فى الهيئة الاجتماعية ، عن طريق حب الناس لهم ، واحترامهم إياهم لأشخاصهم ، فهم يحتلون هذه المكانة بالإرهاب والتهديد .

فن الهجاء فى النقائض

نقائض جرير والفرزدق والأخطل هى أشهر ماعرف الأدب العربى فى هذا الفن وأطوله . وليست هذه النقائض هجاء خالصاً ، فهى خليط من فنون الشعر التى عرفها الأدب فى ذلك الحين ، فيها فخر وفيها مدح وفيها نسيب وفيها وصف للبادية ونباتها وحيوانها ، وهى فى ذلك تتمشى مع ماعرف عن القصيدة العربية ، من تنقلها بين شتى الأغراض .

ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسى فى كل القصائد التى اشتملت عليها النقائض ، فقد كان الشاعر ينشىء قصيدته فى بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها . والأمثلة على ذلك كثيرة منها لامية الأخطل :

عفا واسطٌ من آل رضوى فنَبْتَل فمجتمع الحرَّين فالصبرُ أجمل

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له . وإنما أنشأها فى مدح خالد بن عبدالله بن أسيد . بدأها بالوقوف على الأطلال ، وشبه نفسه فى ذهوله بالثمل وانتهز هذه الفرصة فتخلص إلا الخمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء ووحشتها وقسوتها على المسافر فيها ، وما لقيت ناقته من تعب ، وماتعرض له معها من أهوال فى سبيل الوصول إلى ممدوحه ، فلم يصل إليه إلا وقد فرغ من نصف قصيدته غزلا وخمراً ووصفا . ثم صرف بقية قصيدته فى الإشادة بممدوحه ، ولم يكد يخرج فى ذلك عما ألف العرب فى مدح السادة والقواد . وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسترعى انتباه جرير ، لولا أن الأخطل قد عرض فى نهايتها لوقعة الجحاف ببنى تغلب فى يوم البشر ، وعاتب بني مروان فى ذلك عتابا عنيفاً ، وحملهم جريرة هذا اللص الخارج

القانون ، وألزمهم ماضاع من دماء قومه ، وكاد يصفهم بأشنع مايوصم به عربى من انتهاك جواره ، ملوحا بقوة قومه بما يشبه التهديد .

فسائل بنى مروان ما بالُ ذمةٍ   وحبلٍ ضعيف ما يزال يُوَصَّل
بنزوةِ لص بعد ما مرَّ مصعب   بأشعث لا يُفْلَى ولا هو يُغْسَل
أآمرك الجحَّاف ثم أمرته   بجيرانكم وسط البيوت تُقَتَّل
لقد كان للجيران ما لو دعوتُمُ   به عاقِلَ الأَرْوَى أتتكم تَنَزَّل
فإن لا تغيرها قريش بملكها   يكُنْ عن قريش مُسْتَمَازٌ ومَرْحل
وتَعْرُرْ أناساً عَرَّةً يكرهونها   ونحيي كراماً أو نموت فنقتل

وقد نبهت هذه الأبيات الأخيرة جريراً ، فنقض عليه قصيدته ، متشمتاً بما لقى التغلبيون على يد الجحاف وقومه ، معيراً الأخطل بكائه وضعفه عن الانتصار بغير قريش ، الذين هم فى حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية ، لأنهم مضرية :

بكا دَوْبَلٌ لا يُرقِء اللهُ دمعه   ألا إنما يبكى من الذل دوبل
جزعتَ ابنَ ذات الفَلْس لما تداركت   من الحرب أنيابٌ عليك وكلكل
فإن لا تعلَّق من قريش بذمة   فليس على أسياف قيس مُعَوَّل
لنا الفضل فى الدنيا وأنفُكَ راغم   ونحن لكم يوم القيامة أفضل

ومن أمثلة ذلك أيضاً فائية الفرزدق المشهورة :

عزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزف   وأنكرتَ من حدراء ما كنت تعرف

فقد أنشأها يجيب على شاعر الأنصار ، الذى تحداه أن يقول مثل قول حسان (لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى) . وهى قصيدة طويلة تزيد على

مائة بيت ، لم يعرض فيها لجرير ، كلها فخر بنفسه وبقومه . ولكن جريراً نقضها عليه بمائيته :

ألا أيها القلب الطروب المكلَّف　　أفِقْ ربما ينأى هواك ويُسعِف

فاضطر الفرزدق أن يلحق بقصيدته أبياتا لاتزيد على العشرين ، يرد بها على جرير . ومن أمثلته كذلك رائية جرير ، التى رثى بها زوجته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار　　ولزرت قبرك والحبيب يزار

وهى اثنان وعشرون بيتاً . وقد نقضها عليه الفرزدق متشمتاً بمصيبته فى رائيته :

أعَرفْتَ بين ذُوَيْبتين وحنبل　　دِمَناً تلوح كأنها الأسطار

فاضطر جرير أن يجيبه ، وألحق رده برثائه الأول وأطال ، حتى بلغت القصيدة مائة بيت وسبعة عشر بيتاً .

والواقع أن القصد إلى الهجاء ، لم يكن هو الدافع الأول إلى إنشاء هذه المجموعة الضخمة من الشعر . فلم يكن هم الشاعر أن ينال من خصمه فحسب ، ولكن كان همه الأول أن يجيد ويبدع ويتفوق فى فنه . ولذلك فقد كان يكلف نفسه أن يجيب على خصمه بقصيدة من نفس البحر والروى ، وهو تكليف يضيق على الناقض السبيل ، ويظهره بمظهر المتحدى الذى يترك لخصمه اختيار نوع السلاح الذى يريد أن يبارز به . وهذا التنافس يعلل لنا ما نجد فى النقائض من فخر كثير بالبراعة فى الشعر ، وشدة وقعه ، وذيوعه على ألسن الناس وتكرار هذا الفخر فى كل مكان ، بأسلوب متشابه ، يضيق به القارىء فى كثير من الأحيان .

ونحن لا يستطيع أن نزعم أن الفن الهجائى فى هذه النقائض ممتاز ، يبلغ حد الرفعة الخالدة . وقد يكون من الظلم للنقائض ، وللعصر الذى أنشدت

فيه ، أن تقارن بغيرها من ألوان الهجاء فى الأمم الأخرى، أو تقارن بالشعر الهجائى العباسى ، كهجاء ابن الرومى والمتنبى والمعرى . وإنما العدل أن تقاس هذه النقائض بعصرها وظروفها التى أحاطت بها . فهى أولا شعر بدوى ، لا يتذوقه القارىء المعاصر فى سهولة ويسر ، لأنه لا يترك فى نفسه صدى ، ولم يقصد به أصحابه أن يخاطبوه ، وإنما خاطبوا به قومهم ، ممن هم على شاكلتهم فى البداوة ، وعلى طريقتهم فى الحس والذوق . فالقارىء لا يستطيع أن يحس جماله ، إلا بعد أن يتماسى كثيراً من الملل والسأم ، ويتجلد لما تضيق به نفسه فى أول الأمر ، حتى إذا أوغل فى القراءة ، ومضى فى الدراسة ، غمره جو هذا الشعر ، ونقله إلى قلب البادية ، وإلى صميم هذه الحياة البدائية الخشنة . وعند ذلك فقط ، يستطيع أن يتذوق شعرهم . فهو لا يتذوقه ، إلا بعد أن يتعرف إلى أصحابه ، ويصحبهم صحبة طويلة ، تخلق فى نفسه شيئاً من الإلف لهذه الحياة ، ولهؤلاء الشعراء .

والنقائض من ناحية أخرى محدودة الغرض ، بحكم الظروف التى أحاطت بها ، والتى دعت إلى إنشائها . فهى شعر شخصى، محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة فى أفقها الواسع العام ، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية ، يصورها فى أطوارها المختلفة ، وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وقومه ، والفخر ثقيل على القارىء ، لأنه يصور الغرور . ويهاجم لبغضه وغيظه ، والقارىء لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو . ويمدح لرغبة فى مال أو جاه ، والقارىء لا يصيب من وراء ذلك شيئاً . وكل هذه الأسباب مجتمعة ، تجعل النقائض أقرب إلى الخصوص والضيق ، بعيدة عن العموم والشمول ، فى الاستناد إلى عاطفة يستطيع القارىء أن يشارك فيها بنصيب كبير ، فيتجاوب مع الشاعر ، ويستجيب لشعره ، ويفنى فيه وقت قراءته . وكل هذه الأسباب أيضا ، توضح لنا أن هناك تبايناً كبيراً فى العصر والظروف ،

بين شعر النقائض ، وبين الشعر العباسى أو شعر الأمم الأخرى ، يبطل المقارنة أو المفاضلة ، ويجعلها جائرة غير صحيحة .

ولعل من الحق والقصد البعيد عن التحيز ، أن نقرر أن مثل هذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعرى، ممن ينشدون اللذة الفنية الخالصة ، والمتعة الروحية الرفيعة . ولكنه شعر المختصين من الدارسين للأدب ، والعلماء الذين لا يجد أحدهم حرجاً من أن ينفق عمراً طويلا فى دراسة حشرة تافهة ؛ أو صخرة مهملة . وليس معنى هذا أننا نسلب النقائض كل قيمة فنية ، فالواقع أن فيها نواحى كثيرة جميلة، فهى بعض صور الإنسانية فى طور من أطوارها ، ولكننا نقول إنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا فى الشعر نفسه لذة ، ولكنهم يجدون هذه اللذة فيما قد ينشأ حوله من دراسات ، تعتمد على التحليل والتعليل ، فتخلق فيه شيئاً من النشاط والحركة ، التى ترد إليه الحياة ، وتصله بالنفس الإنسانية ، وتقربه من قلوب المعاصرين .

ومع ذلك كله ، فللنقائض قيمتها ومكانتها عند دراسى الأدب العربى . وقيمتها ترجع إلى أسباب كثيرة . فشعراؤها الثلاثة هم أبرز الشعراء فى عصرهم بغير شك . وشعرهم يمثل عصرهم جملة ، ويمثل الناحية الأدبية فيه بنوع خاص . فقد رسم الحياة فى ذلك العصر بخيرها وشرها ، وصور القيم الأخلاقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً . وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التى عاصرته والتى سبقته ، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم . ولهذه الناحية الأخيرة ترجع معظم قيمة النقائض عند الدارسين . وقد زاد فى قيمة هذه الناحية وأعظم من قدرها ، هذا الشرح الطويل الذى ينسب لأبى عبيدة ، والذى يفصل ما عرضت له النقائض أو أشارت إليه من أيام العرب ، تفصيلا قصصيا رائعا ، يصور الحياة فى هذه العصور البائدة تصويرا قويا حيا .

وقد تباين شعراء النقائض الثلاثة فى طريقة علاجهم للهجاء . فغلب على الأخطل فنه الشعرى الرصين ، الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، فكان فى هجائه يرضى فنه الشعرى الرفيع ، بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذى يأكل نفسه . فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء . ولكن رصانة ألفاظه وجزالتها ، وما تضمنته من معانى شعرية ، أضفت على هجائه كثيرا من الوقار الذى حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيهم من الهجاء إلا النكتة المضحكة ، والسخرية البارعة المسلية . ولذلك ظل الأخطل فى هجائه — كما هو فى كل شعره — شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد .

وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه فى الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس . ولم يكن يتكلف فى شعره ما يتكلف صاحباه من العناء ، فهو يكتفى بما وهبه الله من طبع شعرى خصب ، ومن حس فنى دقيق رقيق ، ويأخذ فيض هذه المواهب ، دون أن يلح فى استنزافها ، أو استخلاص أقصى ما تحتمله من إجهاد . ولذلك بدا فى شعره عامة ، وفى هجائه خاصة ، وكأنه يتكلم فى غير قصد إلى الشعر ، فإذا هو يقول شعراً . وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا ، إذ وصفوه بأنه يغرف من بحر . وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على الإطالة ، لم يكد يجاريه فيها إلا الفرزدق ، وجعلت هجاءه أكثر ذيوعا على ألسن العامة .

أما الفرزدق فقد كان فى عامة شعره معنيا بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير . ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدها ، حتى لقد وصفه القدماء بأنه ينحت من صخر . ويزيد فى إحساس القارىء بهذا الجهد العنيف الذى يبذله فى شعره ، خشونة ألفاظه وغرابتها ، التى أغرت به أصحاب اللغة والغريب .

ولكن هذه الصفة التى وسمت معظم شعره ، لم تكن واضحة فى فنه الهجائى وضوحها فى بقية الأغراض . فهو يجارى جريرا فى تناول المعانى الهجائية من قرب ، ليستطيع أن يسايره فى الإطالة والدعابة .

وليس قصدنا هنا إلى أن نتكلم عن الخصائص الهجائية لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد أفردنا لكل منهم فصلا من الكتاب ، تناولنا فيه حياته وفنه بشىء من التفصيل . ولكن الذى يعنينا فى هذا المقام ، أن نتكلم عن الفن الهجائى فى شعر النقائض جملة ، وعن الخصائص العامة التى يشترك فيها شعراؤها الثلاثة .

فأول ما يسترعى الانتباه فى هذه الخصائص العامية والابتذال . وهو ابتذال فى المعانى وفى الألفاظ وفى الأخلاق جميعاً . أما المعانى فهى قريبة ، وهى فى كثير من الأحيان صورة من الحياة الواقعة ، لم يختزنها الحس الفنى ، ليصفيها من شوائبها ، وليضفى عليها من سحره وخياله وترفعه . فالشعر الهجائى يبدو كأنه لا يصدر عن أدنى جهد فنى .

يقول جرير فى هجاء الأخطل :

يا ابن الخبيثة ريحاً من عدلتَ بنا ... أم من جعلتَ إلى قيسٍ إذا خطروا
قيسٌ وخندف أهلُ المجد قبلكم ... لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
وما لتغلب إن عدَّتْ مساعيها ... نجمٌ يضىء ولا شمسٌ ولا قمر
والتغلبىُّ لئيمٌ حين تَجْهَرُه ... والتغلبى لئيم حين يُختَبَرَ
والتغلبى إذا تمت مروءته ... عبدٌ يسوق ركاب القوم مؤتجَرَ
ما كان يَرضى رسولُ الله دينَهم ... والطيبان أبو بكر ولا عمر
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا ... وهل يضير رسولَ الله أن كفروا

ويقول فى قصيدة أخرى :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعد ما كانت عواقبُه عليك نكالا
حمات عليك حُماة قيس خيلها شُعُثاً عوابس تحمل الأبطالا
زفرُ الرئيسُ أبو الهُذَيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الأموالا

ويقول الفرزدق :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجاز فلم يحظ فيهم ولم يحمد
وأخزيت قومك عند الحطيم وبين البقيعين والغرقد
وجَدْنا الفرزدق بالموسمين خبيثَ المَدَاخل والمشهد
نفاك الأغرُّ ابن عبد العزيز وحقُّك تَنْفَى من المسجد
تقول نَوارُ فضحتَ القيون فليت الفرزدق لم يولد
وقالت بذى حَوْمَلٍ والرماح شهِدَتْ وَلَيْتك لم تشهد

وكل هذا تقرير ساذج للواقع ، لا يقصد إلا إلى الإخبار والإفادة ؛ فهو خلو من كل ميزة فنية ، وليس للشاعر فيه إلا فضل النظم ، فهو يقدم الأخبار نظماً ، بدل أن يقدمها نثراً ، فى ثرثرة لا غناء فيها .

ويقول الفرزدق لجرير :

يا ابن المراغة أنت الأم من مشى وأذل من لَبِنَاتِه أظفار
وإذا ذكرت أباك أو أيامه أخزاك حيث تُقَبَّل الأحجار
أنتم قرارة كل مَدفَع سَوْءة ولكل دافعةٍ تسيل قَرَارُ
إنى لأشتمكم وما فى قومكم حَسَبٌ يعادلنا ولا أخطار

وهو نظم لا يتجاوز تقرير الأشياء .

ويقول فى موضع آخر :

منا الذى اختير الرجال سَماحةً وخيراً إذا هب الرياح الزعازع
ومنا الذى أعطى الرسول عطية أسارى تميم والعيونُ دوامع
ومنا الذى يعطى المئين ويشترى الـ ـغوالى ويعلو فضلهُ من يدافع

ويمضى فى ذلك إلى أربعة أبيات أخرى ، لا يتجاوز فيها هذا الأسلوب ولا يرتفع عنه .. يقول منا الذى فعل ، ومنا الذى فعل وفعل . وهو سرد قد يفيد أصحاب التاريخ ، ولكنه من الناحية الفنية ، يهبط بالشعر إلى مستوى العامية فى التعبير .

ويقول :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ويمضى فى سرد أسماء الشعراء ثمانية أبيات ، لا شىء فيها غير أسماء الشعراء منظومة فيما يشبه المتون التى وضعت فى عصور متأخرة لحفظ العلوم .

ويقول لجرير :

أتى الشامَ يرجو أن يبيع حماره وفارسه إذ لم يجد من يبادله
فجاء بعِدْلَيه اللذين هما له من اللؤم كانت أورثَتْه أوائله

وقوله (اللذين هماله) تعبير لا يخطر لشاعر يعنى بفنه أن يفسد به شعره

ويقول :

أبا مالك لابد أنى قارع لعظمك إنى للعظام قَرُوع

و (لابد) تعبير غريب على الشعر لا يصلح إلا للنثر .

ويقول :

يهتفن أين ذوو الحمية أين هم أم من يغار فلم يجدن غيورا

هذا وقد وطئت سنابك خيلنا زوجَ المراغة صاغراً مثبوراً

وربط البيتين بكلمة (هذا) ربط نثرى ، ليس من أسلوب الشعر فى شىء .

ويقول :

وليست كليب كائنين كدارم ووَدَّ جريرٌ لو عطية غالب

و (كائنين) حشو لا يصدر إلا عن المتعجل ، الذى لا يريد أن يتوقف ليسوى شعره ، ولكنه لا يبالى ما يقول ، ولا كيف يستوى له النظم ، وكأنه مدفوع إلى تحبير عدد من الصفحات فى وقت محدود ، فهو ماض إلى بلوغ أجله ، فى غير توقف أو تريث .

هذا هو ماعنينا بالعامية والابتذال فى المعانى والتعبير . أما الألفاظ فهى فى كثير من المواضع سباب عامى مبتذل ، لا يفترق كثيراً عما نسمع من شتائم الدهماء ، التى تتناول الآباء والأمهات ، ولا تعف عن استعمالها فى صيغها الشعبية المسفة .

يقول الفرزدق :

إذا أنت ياابن الكلب ألقتك نهشل ولم تك فى حِلْفٍ فما أنت صانع

ويقول فى موضع آخر :

تصاغَرْتَ ياابن الكلب لما رأيتنى مع الشمس فى صعبٍ عزيز معاقله

ويقول جرير :

أخت الفرزدق من أبيه وأمه باتَتْ وسيرتها الوجيف الأرفع

وقوله (من أبيه وأمه) توكيد عامى مأخوذ من أفواه الدهماء .

ويقول :

كانت الفرزدق شاعراً لخصيته ناك الفرزدقُ أمه من شاعر

أمسى الأخيطل للفرزدق ضُرَّةً　　فيم المراء وقد نكحتُ ضرائرى

ويقول :

إذا ما كنت ملتمساً نكاحا　　فلا تعدل بليك بنى ضرار

وإن لاقيت ضبياً فنكه　　فكل رجالهم رخو الختار

وليس يعنينا أن يخرج الفرزق أو جرير عن آداب الناس فى شتائمهم ، ويشذا عن الذوق المهذب والخلق السليم ، ولكن الذى يعنينا هذه الألفاظ العامية المبتذلة ، التى تنتقل السباب من أفواه الدهماء كما هى ، لا عمل فيه للخيال ، فتهبط بمستوى الصناعة الشعرية عما ينبغى له من ترفع فنى .

أما التبذل الأخلاقى فهو كثير يملأ النقائض ، لا يفتح القارىء فيها صفحة إلا وقع على مثال له ، وكله تفصيل بغيض للسوءات ، وأكثر مانجده فى شعر جرير ، حين يتهم جعثن أخت الفرزدق بالمنقرى ، أو ليلى جدته بعبدها جبير[1] ، ويمعن فى تفصيل مايجرى بينهم من أدق الحركات الفاضحة . والعجيب فى الأمور والمؤلم فى نفس الوقت ، أن النقائض أخصب ماتكون فنا ، وأكثر ماتكون افتناناً وتصرفاً ، حين تعرض لأمثال هذه الفضائح ، فى أسلوب قصصى ، لا يفسد روعته إلا طبيعة مواضيعه ، التى تحرمه على الدارسين أن يكون موضع تحليلهم ونقدهم .

وظاهرتان أخريان تحتلان من النقائض مكانا بارزا ، هما تكرار المعانى والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية . أما التكرار فهو نتيجة طبيعية للإكثار ، فكل واحد من الشعراء الثلاثة لا يرضى أن يسكت فيكون مغلوبا ، فليس له بد من أن يرد . وقد طال بينهم الأمر وامتد المدى ، حتى لم يعد أمامهم إلا أن يكرروا ماقالوا ، ويعيدوا ما أبدأوا . فجرير يعير الفرزدق أن أجداده كانوا يصرفون بعض عبيدهم للحدادة ، فهو من بيت صناع حدادين . ويعيره

---

(١) لتقديم مثال على ذلك تراجع ص ٣٤٩ بديوان جرير .

خبث أخلاقه ومنافاتها للدين ، فهو سكير زناء ، ويختلق على أخته صلتها بالمنقرى ، ويشنع على جدته ليلى بصلتها ببعض رقيقها الذين كانوا يستخدمونهم فى الحدادة . وهى معان محدودة ، « لا يخرج عنها فى كل هذه المجموعة من الشعر ، ولكنه يسوقها فى قصص لا يخلو من جمال كما قلنا ، لولا إمعانه فى الفحش ، ولولا ثقل التكرار على القارىء ، الذى يسمع القصة بعينها فى كل قصيدة . والفرزدق لا يعير جريرا إلا ضعف نسبة وضعة أبيه . وهو يقابل اختلاق جرير على أخته باختلاق مثله ، يشنع فيه على جرير وأبيه بصلتهم بالحمير . والقارىء يسمع القصة بعينها فى كل قصيدة .

ولكن اضطرار هؤلاء الشعراء إلى الإعادة والتكرار ، قد جعلهم يفتنون فى هذه المعانى القليلة التى بين أيديهم ، فيخرجونها فى شتى الصور ، ويولدوا منها مختلف المعانى والأخيلة ، فأحدثوا بذلك فى الهجاء لونا طريفا من القصص الهجائى ، الذى يدور على الحوار الفكه ، والدعابة المضحكة . وكان جرير أبرع الثلاثة فى هذا اللون من القصص الهجائى . ويكاد الفرزدق يجاريه فيه ولكنه يقصر عنه . أما الأخطل فقد كان أكثرهم تخلفا فى هذه الناحية . وكان شعره لذلك أقل الثلاثة رواجا عند جمهور الناس ، الذى لا يعنيه من هؤلاء المتشاتمين إلا النادرة الحلوة ، والنكتة المضحكة .

يولد جرير من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتى الصور . فهو مرة يتصور جد الفرزدق فى قبره ، وقد دفنت معه آلات الحدادة وأدواتها ، من كثيف وكلبتين ومنشار ، ثم يتصور الناس وقد انكسر لأحدهم قدر أو مرجل ، فيتذكره لأنه كان يصلحها .

سنثير قينكم ولا يُوفِى بها ... قَيْنٌ بقارعة الطريق مثار
وُجِدَ الكتيفُ ذخيرةً فى قبره ... والكلبتان جُمِعْنَ والمنشار
يَبْكى صداه إذ تهزَّم مِرجَلٌ ... أو إن تثلَّم بُرمةٌ أعشار

ومرة يتصور حدراء زوج الفرزدق ، وقد أنكرت ريحه وما علا جسمه القصير من صدأ الحديد ، ، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها إن تصلح ما فسد من الأكيار بترقيعه ، فتقول له إنها لا تجيد ذلك ولا تعرفه ، لأن أجدادها من أشراف العرب ، وليسوا كأجداده أصحاب حدادة . وهى تدعو الله أن يخلصها من هذا البلاء الذى ألقاها أهلها فيه ، مستعيذة به من شر هذا الصهر المشئوم ، ومن جوار هذا الحداد المنتن الرائحة .

حدراء أنكرت القيونَ وريحهم   والحرُّ يمنع ضيمَه الانكارُ
لما رأت صدأ الحديد بجلده   فاللون أورقُ والبنان قصار
قال الفرزدق رقعى أكيارنا   قالت وكيف ترقع الأكيار؟
رقع متاعك إن جدِىَ خالدٌ   والقينُ جدك لم تلدك نزار
وسمعتُها اتصلَتْ بذهلٍ إنهـم   ظلموا بصهرهم القيونَ وجاروا[(١)]
دَعَت المصور دعوة مسموعة   ومع الدعاء تضرع وحذار
عاذت بربك أن يكون قرينُها   قينا أحَمَّ لفـوِهِ إعصار

وهو حينا يتهم قُفَيرة أم صعصعة بعبيدها الذين يشتغلون بالحدادة .

ولدَتْ قفيرة أم صعصعة ابنها   فوق المُزنَّم بين وطَبى جازر
جعلت قفيرةُ ليلتين لهُرْمُزٍ   والزيِّبان وليلةً لقنابِر

ويتهمها أخرى بجبير عبدها .

تسوف صُنَّان القين من ربَّةٍ به   ليجعل فى ثقب المَحَالة محورا[(٢)]

---

(١) ذهل بن شيبان بطن من بطون بكر وهم قوم حدراء زوج الفرزدق .
(٢) تسوف تشم . ليجعل فى ثقب المحالة محوراً ، هو مثل ضربة لفعله بها . المحالة البكرة التى تكون فوق البئر ويدور عليها الحبل الذى يحمل الدلو . والمحور الخشبة التى تدور عليها البكرة .

تزور جبيراً مرة ويزورها ... وتترك أعمى ذا خميل مدثّرا (١)
ويخلجُ منها القينُ محيوكةَ القَرَى ... كأن بها مُحًّا من البيض أصفرا (٢)

ومرة يتهم ليلى جدة الفرزدق بجبير هذا ، فيقول إن غالبا أبا الفرزدق هو فى الحقيقة ابن جبير ، وليس ابن صعصعة .

تلقى نساء مجاشع من ريحهم ... مَرْضَى وهن إلى جبير نُزَّع
ليلى التى زفرَتْ وقالت حبذا ... عرقُ القِيانة من جبير ينبع
كلٌّ الذى غيرتُمُ أن قلتم ... هذا لعمرُ أبيك قينٌ مولَعُ !

ويقول :

تركتم جبيرا عند ليلى خليفةً ... أصعصعَ بئس القينُ قينُك صعصعا
وما حفظت ليلى ملامةَ رهطِها ... ولا حفظت سِرَّ الحَصَانِ الممنعا
أبان لكم فى غالبٍ قد علمتم ... نِجارُ جبيرٍ قبل أن يتيمَّما

ولذلك فهو يتصور جبيرا يهدى إلى غالب أبى الفرزدق بعض النصائح فى صناعة الحديد :

وأوصى جبيرٌ إلى غالب ... وصيةَ ذى الرحمِ المُجهَد
فقال ارفُقَنَّ بلَيٍّ الكتيف ... وحكٍّ المشاعب بالمبرد

وهكذا تجد الشاعر يتصرف فى المعنى الواحد ، فيخلق منه صورا فنية متعددة ، وإن كان أصلها واحدا .

---

(١) جبير عبد كان لهم يشتغل بالحدادة . الأعمى يقصد به صعصعة جد الفرزدق . الخميل القطيفة .

(٢) يخلج يجذب . القرى بفتح القاف الظهر .

أما التهديد والفخر بالمقدرة الشعرية، وتكراره فى كل مكان من النقائض فأمثلته كثيرة. يقول جرير للأخطل.

تعرضت من دون الفرزدق محلبا ... فما كنت منصورا ولا عالى الكعب
تصليت بالنار التى يصطلى بها ... فأرداكَ فيها وافتدى بك من حربى

ويقول:

ترى الشعراء من صَعِقٍ مصاب ... بصَكَّتِه وآخر مستديم[1]
لقد وجدوا رِشائى مستمراً ... ودلوى غيرَ واهيـة الأديم[2]
ومثلك قد تصدت له فأمسى ... أخا حلم وما هو بالحليم[3]
يرى حسراته ويخاف درئى ... ويغضى طرفه نَظَرَ الأميم[4]

ويقول:

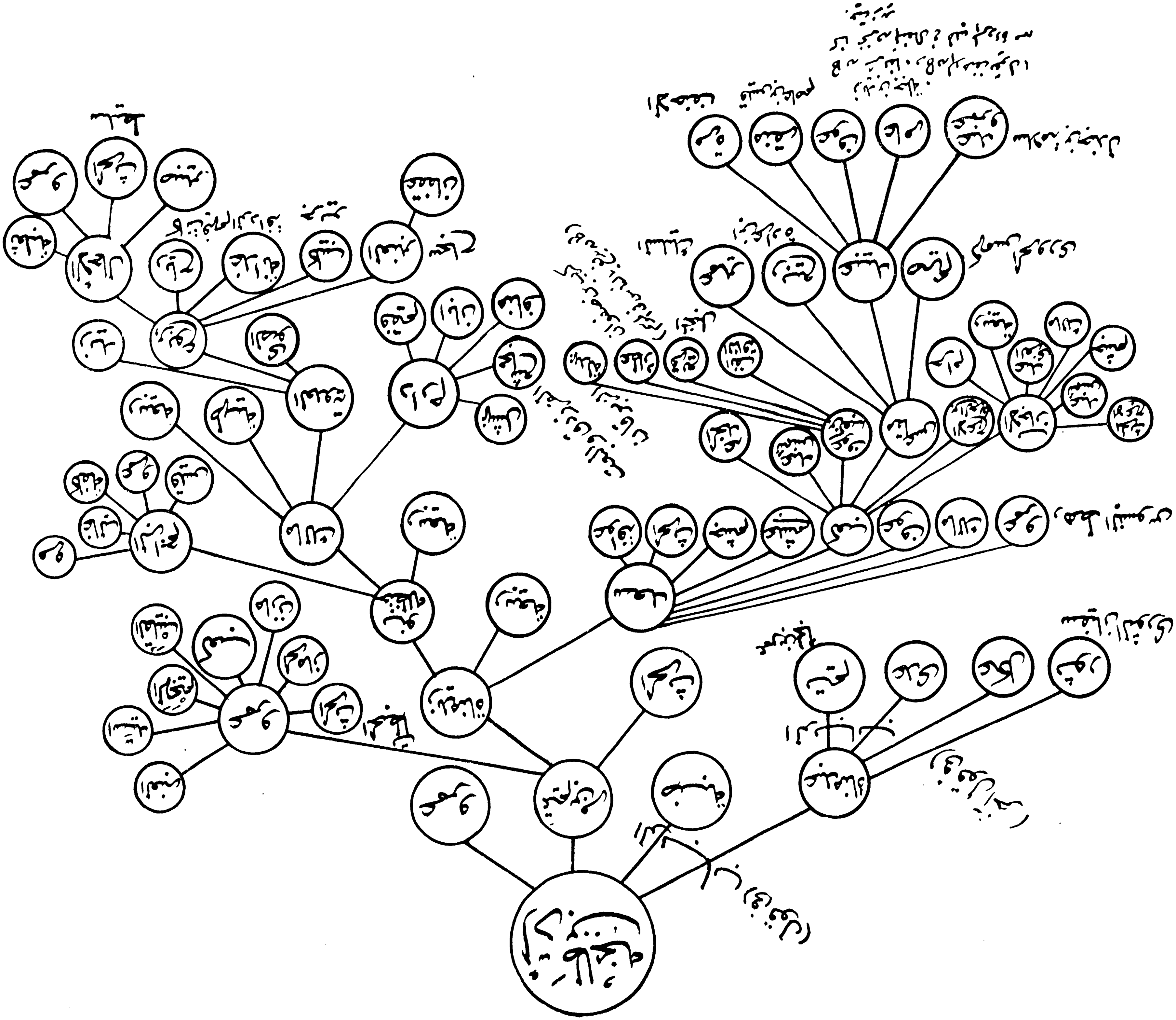
عوى الشعراء بعضهم لبعض ... علىَّ فقد أصابهـم انتقام
كأنهم الثعالب حين تلقى ... هزبرا فى العرين له انتحام
إذا أوقعتُ صاعقةً عليهم ... رأوا أخرى تحرق فاستداموا

ويقول الفرزدق:

تغنى يا جرير لغير شىء ... فقـد ذهب القصائد بالرواة
فـكيف ترد ما بعمان منهـا ... وما بجبـال مصر مشهرات

---

(١) صعق مغشى عليه. مستديم منتظر لصكة أخرى.
(٢) الرشاء الحبل الذى تربط به الدلو. يقصد طول نفسه فى الشعر، وخصب طبعه.
(٣) يقول إن خصمه يتكلف الحلم. وليس هو فى الحقيقة حليما، ولكنه ضعف عن مجاراته.
(٤) الدرء الدفع. الأميم المشجوج الرأس الذى بلغ جرحه أم الدماغ.



غلبتك بالفقىء والمعنى وبيت المحتنى والخافقات

ويقول :

تبكى المراغة بالرغام على ابنها والناهقات ينحن بالإعوال
قالوا لها احتسبى جريرا إنه أودى المزبرُ به أبو الأشبال
ألقى عليه يديه ذو قوميــة وَرْدٌ فدق مجامع الأوصال
قد كنتُ لو نفع النذير نهيتُه أن لا يكون فريسة الرئبـال

وهذا الإكثار من الفخر بالمقدرة الشعرية ، والتهديد بما سيصيب الخصم من نكال وعار ، ليس إلا مظهرا لما قدمنا من أن هذه النقائض تصور منافسة فنية ، يزعم فيها كل واحد من هؤلاء الشعراء أنه أشعر من صاحبه .

جـــرير

ينتسب شاعرنا إلى فرع من تميم اسمه يربوع ، كانت بعض بيوته على جانب من الشهرة فى الجاهلية والإسلام . فقد كانت الردافة فى بيت منهم اسمه رياح . ومن آخر اسمه العنبر ظهرت سجاح ، التى تنبأت فى حركة الردة . وقد غلب بنو يربوع فى أيام الفتنة على البصرة والكوفة وخراسان ، غلب على البصرة سلمة بن ذؤيب الرياحى ، وغلب على الكوفة مطر بن ناجية اليربوعى لابن الأشعث ، وأخرج منها عامل الحجاج ، وغلب على خرسان وكيع بن أبى سود اليربوعى ثم الغدانى ، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلى [١] . وقد افتخر جرير بذلك فى قوله: [٢]

ويوم عبيد الله خُضْنا براية وزافرةٍ تمّت إلينا تميمها[٣]

لنا ذارة عن الحفاظ وقادة مقاديم لم يذهب شَعاعاً عزيمها

عن المنبر الشرقى ذادت رماحنا وعن حرمة الأركان يُرمَى حَطِيمُها

يقصد بالمنبر الشرقى منبر البصرة وخراسان ، ويقصد بمنع الحطيم إنجاد الخوارج لابن الزبير ، حين حاصره الحجاج فى ملك يزيد ، وكان معظم الخوارج وقتذاك من تميم [٤] .

والظاهر أن بيت صاحبنا فى كليب بن يربوع لم يكن نابها ولا مشهوراً ، وإن كنا نعرف أن الخطفى جد جرير كان مثريا فيما يروى محمد بن حبيب[٥] ،

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧ .

(٢) ديوان جرير ٥٤٨ .

(٣) الزافرة الأعوان . يوم عبيد الله بن زياد وذلك حين ترك الامارة بعد موت يزيد بن معاوية .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٧ ، ابن الأثير ٣ : ٣٣٦ .

(٥) ديوان جرير ٦٠١ .

فى خبر أبياته المشهورة التى يعاتبه بها ، وهى الأبيات التى عاتب بها يزيد أباه معاوية وداعاها لنفسه ، لأن جريراً لم يكن قد اشتهر وقتذاك .

فرُدِّى جمال الحى ثم تحملى فما لكِ فيهم من مقام ولا ليا
فأنت أبى مالم تكن لى حاجة فإن عرضت أيقنتُ أن لا أباليا
وإنى لمغرورٌ أُعلَّل بالمنى ليالى أرجو أنّ مالكَ ماليا [١]
بأى سنانٍ تطعن القوم بعد ما نزعت سنانًا من قناتك ماضياً
بأى نِجادٍ تحمل السيف بعد ما قطعتَ القُوى من مُحْمِل كان باقيا [٢]
وإنى لعفٌّ الفقر مشترَك الغنى سريعٌ إذا لم أرض دارى انتقاليا [٣]
جرىءٌ الجنان لا أهاب من الردى إذا ماجعلتُ السيف قَبْضَ بنانيا
وليس لسيفى فى العظام بقية وللسَّيْفُ أشوى وقعةً من لسانيا
ألا لا تخافا نبْوَتى فى مُلِمَّةٍ وخافا المنايا أن تفوتكما بيا [٤]

وهى قصيدة طويلة ، أضاف إليها الشاعر فى وقت متأخر أبياتا فى هجاء الفرزدق . وهى تصور صاحبنا جيد الشعر فى ذلك الوقت ، وإن كان خاملا غير معروف . ومع ما يروى محمد بن حبيب من خبر جده وثروته ، فنحن نعرف أن عطية الخطفى أبا جرير كان فقيرا خاملا ، ليس فيه شىء يستطيع ولد أن يفاخر به . سأل رجل جريرا : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى

(١) يقول لجده لقد غررت نفسى حين زعمت لها أن لا فرق بين مالك ومالى .
(٢) النجاد حمائل السيف . القوى الحبال . هذا مثل ضربه له ، يقول لم يعد لك من تعتمد عليه .
(٣) يقول إنه إذا افتقر كان عفيفا ، وان أثرى أشرك الناس فى ثروته وماله .
(٤) يقول لا تخافوا قعودى عن نصرتكم حين تحتاجون إلى ، فليس يمنعنى من ذلك إلا الموت . فمهما قصرتم فى حق فسأظل مخلصا لكم حتى الموت .

أعرفك الجواب. فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ، اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته . قال : ألا ترى هذا ؟ قال: نعم . قال : أتعرفه ؟ قال :لا . قال : هذا أبى . أفتدرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به ، فغلبهم جميعاً .

وقد يكون التحديد الدقيق لمولد شاعرنا صعباً غير يسير ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه ولد فى أواخر أيام عثمان . فابن خلكان يقول فى ترجمته إنه توفى بين ١١٠ هـ ، ١١٤ هـ — على خلاف فى الروايات — وله نيف وثمانون عاماً . ومولده على هذا حوالى ٣٠ هـ . ويتفق ذلك مع ما يروى ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، من أنه عاش نيفا على ثمانين عاماً . ويؤيد ذلك ما يذكر جرير من شيبه فى أول قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ — ٨٦ هـ) ، حين أوفده الحجاج إليه ، لأن الحجاج ولى العراق ٧٥ هـ ، ووفود جرير على عبد الملك لا بد أن يتأخر عن ذلك سنوات ، لأنه ظل مدة يمدح الحجاج . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل مايروى فى النقائض (١) ، من أن شاعرنا كان تَرْعِيَةً يرعى على أبيه الغنم ، لم يقل الشعر بعد ، على عهد ملك ابن الزبير (٢).

وقد بدأ جرير حياته الشعرية بالرجز ، شأن معظم الشعراء ، فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسان السليطى ، فكانا يتبادلان السباب بالرجز ، ثم لحم بينهما التهاجى شعرا ، فلم يزالا يتناقضان ، حتى دخل بينهما البعيث . وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة فى قبيلته ، ولكنه لم يظهر فى

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ : ٤

(٢) ملك ابن الزبير من ٦٤ هـ — ٧٣ هـ .

الحياة العامة إلا فى ملك يزيد . روى صاحب الأغانى بسنده عن جرير أنه قال : وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ [١]. فاستؤذن لى عليه فى جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلى وقال : يقول لك أمير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا نعرفه ، ولا نسمع بشىء من شعره ، وما سمعنا لك بشىء فنأذن لك على بصيرة . فقلت له ، تقول لأمير المؤمنين : أنا القائل :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى   سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا

فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات . ثم خرج إلى وأذن لى . فدخلت وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة . وقال لى : لقد فارق أبى الدنيا ، وما يظن أبياتك التى توسلت بها إلى إلا لى.[٢]

ولم يلبث يزيد أن مات واضطرب أمر العراق . وظهر فى الكوفة رجل من بنى يربوع اسمه سلمة بن ذؤيب الرياحى ، يدعو لبيعة ابن الزبير ، فاجتمع عليه الناس حتى كثف جمعه . وضعف أمر عبيد الله بن زياد ، فكان يأمر بالأمر فلا ينفذ ، ويرد عليه رأيه ، ويحال بينه وبين أعوانه وطلبته . فلجأ إلى الأحنف بن قيس ، سيد تميم وشيخها فى ذلك الوقت ، وطلب إليه أن يكفف سلمة . فخف لإعانته ، ثم قعد عنه ، لما رأى قوة الداعين لابن الزبير . ولم يجد ابن زياد بدا من الهرب خوفا على نفسه[٣] ، فنزل فى حماية سيد الأزد ، مسعود ابن عمرو . واستطاع الأزد أن يستميلوا ربيعة واليمن إلى جانبهم ، فاتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة . وما زالوا يتحرشون بتميم حتى ثاروا ، وعلى رأسهم الأحنف ، ومعهم القيسية ، فقتلوا مسعود بن عمرو الأزدى . وأحرقوا دار مالك بن مسمع سيد ربيعة . واستطاع رجل آخر من بنى

---

(١) هذه الرواية تؤيد ما ذهبنا إليه من أن مولده حوالى ٣٠ هـ.

(٢) الأغانى ٨ : ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ٣ : ٣٢٠ .

يربوع اسمه عتاب بن ورقا. الرياحى، أن يخضع الخارجين على الجماعة من أهل الرى. وبذلك حفظ بنو تميم العراق لابن الزبير، حتى قدم عماله[١].

وكانت تميم فى موقفها هذا قسمين: قسم يتعصب لابن الزبير ويدعو له، يتزعمه بنو يربوع، وعلى رأسهم سلمة بن ذؤيب الرياحى. وقسم لا يحارب اليمنية والربعية إلا على الحفاظ، ولأنهم بدءوهم بالعدوان، وهؤلاء يمثلهم سعد بن زيد مناة — وهم فرع ظاهر من تميم يتميز بشرفه — وعلى رأسهم الأحنف بن قيس[٢].

من ذلك نرى بوضوح أن بعض تميم والقيسية كانوا زبيرية، واليمن وربيعة كانوا أمويين. وليس فى ديوان جرير الذى بين يدينا شعر يبين اتجاهه فى هذه الفترة، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنه كان زبيرياً، شأنه فى ذلك شأن قومه من بنى يربوع، الذين كانوا من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير. ولكن جريراً لم يكن من وجهاء قومه، وأصحاب رأيهم حتى يدخل فى ذلك. ثم هو رجل مسالم، حريص على أن يبعد بنفسه عن مواطن الشبهة، وما قد يعرضه فى غده للشر، فهو يكتفى بأن يؤيد ابن الزبير بقلبه. على أنه لم يكن معنياً بشئون الناس ومشاكل السياسة: فكل مواهبه الهجائية تتجلى فى مهاجمة الأفراد، ولا تتجاوز ذلك إلى الجماعات. وقد كان همه فى ذلك الحين أن يجيب الذين تجمعوا عليه من شعراء قومه. فالبعيث المجاشعى قد دخل بينه وبين غسان، معيناً أخواله السليطيين. ثم ثقل حمله بدخول الفرزدق، حين أفحش جرير على بنى مجاشع، وتناول أعراضهم، فحمى الفرزدق لهم، وانضم للبعيث فى مهاجمته. ومما يؤيد ما نذهب إليه، من انشغال جرير فى ذلك الوقت

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٣٢١ — ٣٢٦.

(٢) ابن الأثير، نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٣ وما بعدها.

بمهاجاة هؤلاء الشعراء ، قوله فى أول أمر الفرزدق ، مخاطباً الحرث بن ربيعة المخزومى ، والى ابن الزبير على البصرة :

أبا خالد أبليت حزما وسؤدداً وكلُّ امرىء مثنًى عليه بما يُبلى
أبا خالد لا تُشمِتن أعاديا يودون لو زلت بمهلكة نعلى

والحرث بن ربيعة المخزومى كان والياً على البصرة لابن الزبير ، بين عامى ٦٥ هـ — ٦٨ هـ ، لأن الكوفة والبصرة صمتا لمصعب عام ٤٩[1]. ويؤيد ذلك أيضاً قول جرير للبعيث ، قبل أن يدخل الفرزدق بينهما .

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرة تمت إلينا تميمها
عن المنبر الشرقى ذادت رماحنا وعن حرمة الأركان يرمى حطيمها

وهو لا يستطيع أن يفخر بذلك فى ملك الأمويين ، ولا يمكن إلا أن يكون فى ملك ابن الزبير . ومما يصور زبيرية جرير ، هذه القصة التى يرويها الأغانى فى وفوده على عبد الملك بن مروان ، وما لقى من مصاعب فى سبيل الوصول إليه[2]. فقد أوفده الحجاج مع ابنه محمد ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك فى الاستماع منه ومعاونته . فلم يزل محمد بن الحجاج يلح على عبد الملك حتى أذن له . فلما استأذن فى الإنشاد قال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج . ألست القائل :

من سَدَّ مطَّلع النفاق عليكموا أم مَنْ يصول كصولة الحجاجَ ؟

إن الله لم ينصرنى بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أولست القائل .

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

يا عاض كذا وكذا من أمه ! والله لهممت أن أطير بك طيرةً بطيئاً

---

(٤) ابن الأثير ، ٣ : ٣٥٦ ، ٣٩٧

(١) الأغانى ٨ : ٦٦

سقوطها ! اخرج عنى ! فأخرج بشر . فلما كان بعد ثلاث شفع إليه محمد بن الحجاج وقال له : يا أمير المؤمنين . أنى أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته فى جرير ، فلما أذنت له خاطبته بما أطار لبه منا وأشمت به عدوه ، ولو لم تأذن له لكان خيراً له مما سمع ، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولى فافعل . فأذن له . فاستأذن فى الإنشاد . فقال لا تنشدنى إلا فى الحجاج فإنما أنت للحجاج خاصة . فسأله أن ينشده مديحه فيه ، فأبى وأقسم أن لا ينشده إلا من قوله فى الحجاج ، فأنشده وخرج بغير جائزة . فلما أزف الرحيل ، قال جرير لمحمد بن الحجاج : إن رحلت عن أمير المؤمنين ، ولم يسمع منى ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر . ولست بارحاً بابه أو يأذن لى فى الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الأذن له . فقال جرير : ارحل أنت وأقيم أنا . فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير ، واستأذنه له ، وسأله أن يسمع منه ، وقبل يده ورجله . فأذن له . فدخل فاستأذن فى الإنشاد فأمسك عبد الملك . فقال له محمد : أنشد ويحك . فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا　　وأندى العالمين بطون راح

فلما وصل جرير فى إنشاده إلى هذا البيت اهتز عبد الملك وطرب .

ويؤيد زبيرية جرير كذلك ، تعصبه للقيسية ، وما يملأ ديوانه من ترديد أيامهم مع تغلب ، التى كانت ممالئة لبنى أمية . يقول للأخطل .

وقيسٌ أذاقوك الهوان وقوّضوا　　بيوتكم فى دار ذُلٍ ومَحْرَبِ

فوارسُنا من صلب قيسٍ كأنهم　　إذا بارزوا حربا أسنّة صُلَّبِ

ويقول مؤيدا حلف تميم لقيس .

وقد أوردت قيسٌ عليكَ وخندف فوارسَ هُدَّمن الحياضُ التى تُجْبى (١)

ويقول للفرزدق :

لنا قيسٌ عليكَ وأىُّ يومٍ إذا ما احمرَّ أجنحةُ العُقاب (٢)

ويقول له :

ولقد جهلت بشتم قيس بعد ما ذهبوا بريش جناحك المكسور

قيس وجد أبيك فى أكياره قوادِ كل كتيبةٍ جمهور (٣)

ويقول له

لقد لحق الفرزدق للنصارى لينصرهم وليس به انتصار

تخاطر من وراء حِمَاىَ قيسٌ وخِندفُ عزَّ ما حَمِى الذمار

وهنا يبدو وجه الخلاف الشديد بين جرير والفرزدق . فالفرزدق أبىّ يكرم نفسه ويعتد بحسبه . وهو يمدح الأمويين حين لا يجد بدا من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ولكنه لا يقدم عليهم ولا يزورهم . أما جرير فهو يلتمس السبيل للوصول إليهم ، ويحتمل فى سبيل ذلك المكاره ، طمعاً فى عطائهم . وهو يحتال لذلك ، فيتصل بالحجاج أول الأمر ، لأن ذلك أهون عليه ، ولأن الحجاج قيسى من ثقيف ، فهو أقرب إلى الصفح عنه . ويجهد جرير نفسه فى مدح الحجاج ، ويقول فيه أجود ماقال فى مدح إنسان ، حتى يبلغ رضاه ويستطيع أن يضمن شفاعته له عند الخليفة .

---

(١) خندف امرأة ينسب إليها بنوها . وهم مدركة بن إلياس بن مضر (جد قريش) وطابخة بن إلياس بن مضر (جد تميم) . ومضر شعبان كبيران . خندف ويشمل قريشا وتميما ، وقيس عيلان وهو يضم قبائل كثيرة مشهورة منها هوازن وسليم وثقيف وعبس وذبيان .

(٢) العقاب الراية . وإنما تحمر من الدم .

(٣) الأكيار جمع كير ، وهو المنفاخ الذى ينفخ به الحداد ليذكى النار .

كان جرير رجلا من غمار الناس ، ولم يكن بالرجل الصلب الذى يقوى على النضال والكفاح . فهو يؤثر العافية ، ويحرص على إرضاء الحكام والرؤساء . يتقرب بالمدح ، ضمانا لسلامته واطمئنانه ، وطمعا فى مالهم وعطائهم ، ويبلغ فى ذلك حد التلون والنفاق . لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بشتم ابن الزبير (أبى خبيب) ، والتعريض به فى أول قصيدة مدحه بها فيقول :

دعوتَ الملحدين أبا خُبَيب　　جِماحاً هل شُفِيتَ من الجماح (١)
فقد وجدوا الخليفة هِبْرِزِيًّا　　أَلَفَّ العِيص ليس من النواحى (٢)
فما شجراتُ عيصك فى قريش　　بعَشَّات الفروع ولا الضواحى (٣)
رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا　　وبيَّنَت المِراض من الصِحاح

ولا يكاد الحجاج يموت ، حتى يستبيح جرير لنفسه أن يعرض به عند سليمان بن عبد الملك ، أرضاء له ، لما هو معروف من تباغضهما . وهو لا يستحى أن يفعل ذلك ، مع ما سلف من مدائحه الرائعة فيه ، ومن إحسان الحجاج إليه . يقول لسليمان إنك قد أنقذت الناس من بلاء عظيم . ويصف تعذيب الحجاج للناس فى سجنه المشهور (ديماس) وتنكيله بهم . فهذا رجل مكبل فى القيود ، وذاك قتيل ، وتلك امرأة قد علقت من ثديها .

أجرتَ من المظالم كل نفس　　وأديت الذى عهد الرسول
ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْد　　وعانٍ قد أضرَّ به الكُبُول

---

(١) الجماح العناد والخلاف . الملحد المخالف . ومنه الالحاد بمعنى الكفر لانه انحراف عن الدين .

(٢) الهبرزى الخالص . الألف الملتف . العيص الشجر . هذا مثل ضربه ، يريد أنه من وسط العز ليس من نواحيه .

(٣) العشة بفتح العين وتشديد الشين الشجرة اللئيمة المنبت الدقيقة القضبان . الضواحى التى سقط ورقها فبدت عيدانها .

وما زالت معلقةً بشدى بذى الدَّيماس أو رجلٌ قتيل

فَرَجْتَ الهمَّ والحَلقاتِ عنهم فأحيي الناسُ والبلدُ المَحُول

كان جرير لا يبالى غير سلامته ، فهو لا يهجو إلا من تعرض له من الشعراء ، ولا يعرض لنقد الولاة والعمال أو مهاجمة سياستهم . وهو لا يرتزق بالهجاء ، لأن ذلك قد يعرضه للشر ، ولكنه يعول فى ذلك على المدح ، ويسوم نفسه فى سبيل المال أقبح الذل ، وأبغض الإلحاف . فهو لا ينتظر عطاء من يمدحه ، ولكنه يصرح بالسؤال مستجديا ، ويكثر من الشكوى متمسكنا ، وكأنه يستكثر بذلك من العطاء ، ويراه داعيا للزيادة .

يقول لعبد العزيز بن الوليد .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهدا من البيضاء أو زمن القَتاد

سنين مع الجراد تعرّقَتْنا فما تُبقِى السنون مع الجراد(١)

ويقول للحجاج .

ألا نشكو إليك زمان محل وشربَ الماء فى زمن الجليد

ويقول لمعاوية بن هشام (وهو هنا مداعب خفيف الروح) .

ماذا ترى فى عيال قد برمتُ بهم لم تُحصَ عِدّتهم إلا بعدّاد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيـة لولا رجاؤك قد قتّلت أولادى

ومن دعابته فى السؤال الملحف قوله لسليمان بن سعد صاحب ديوان العطاء باليمامة .

تركتُ عيالى لا فواكه عندهم وعند ابن سـعد سكر وزبيب

تَحَنّى العظام الراجفات من البِلى وليس لداء الركبتين طبيب

(١) البيضاء السنة التى لانبات فيها . وزمن القتاد حين يرعى الناس رعى القتاد فيلهبوا فيه النار لتأكل شوكه ، ثم ترعاه الأبل . تعرق العظمة وعرقها أكل ما عليها من اللحم .

كأن النساء الآسرات حنيننى … عريشاً تمشي فى الرجال دبيب
منعتَ عطائى يا ابن سعد وإنما … سبقتَ إلىَّ الموتَ وهو قريب
فإن ترجعوا رزقى إلىَّ فإنه … متاع ليال والحيـاة كذوب

ومن قبيح إلحافه، قوله فى بعض مدائحه لبنى آمية .

أشكو إليك فأشتكى ذرية … لا يشبعون وأمهم لا تشبع
كثروا علىّ فما يموت كبيرهم … حتى الحساب ولا الصغير المرضع
وإذا نظرتُ يريبنى من أمهم … عين مهجَّجَة وخد أسفع[١]
وإذا تقسمت العيال غبوقهـا … كثر الأنين وفاض منها المدمع
رِشْنِى فقد دخلت علىّ خَصاصةٌ … مما جمعتَ وكل خير تجمع[٢]

ولعل الفرزدق لم يبعد كثيرا عن الصواب حين صور شره جرير فى جمع المال ، وابتذاله نفسه فى السؤال ، مع أن قومه من تميم كانوا يستطيعون أن يغنوه ويكفوه ، حيث يقول :

يظل بأسواق اليمامة عاجزا … إذا قال بيتاً بالطعام يُكايـلُه
ولو جعلوا لابن المراغة درهما … على إسكتيها قال إنى مزاولة
لظل مكباً يبتغى بلسانه … ليخرجه إذ لم تنله أنامله
تقدَّمْ عليها يا جرير فإن تكن … رفيقاً إذا استلقت فإنك نائله
أظَنَّ بنا زوج المراغة أنه … من الفقر لاقيـة الهزال فقاتله
وقد كان فى الدنيـا مَرادٌ لقعبه … وفى هَجَرٍ تمرٌ ثقال جلائله
وكانت تميمٌ مطعميه ونابتا … بهم ريشه حتى توازَى نواصلُه

(١) المهججة الغائرة العينين . السفع سواد يعلو حمرة الخدين .
(٢) الخصاصة الفقر والحاجة .

ومع ذلك فلم يكن جرير بالمادح المجيد . فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحه ما ينبغى له من قوة وشدة أسر . وهو لا يقع على صفات الملوك والخلفاء ، ولا يعرف كيف يمدحهم ، فهو من هذه الناحية لا يقارن بشاعر كالأخطل .

يقول لسليمان بن عبد الملك ، وكأنه يمدح رجلا كريما من عامة الناس :

تُهينون المحَاضَ لكل ضيف إذا ما حُبَّ فى السنة الجميلُ (١)

ولا يوصف الناس بأنهم ضيوف الخليفة ولكنهم رعيته .

ويقول لعبد العزيز بن مروان حين رحل إليه يمدحه بمصر .

إذا ما أناخ الراغبون ببابكم مع الوفد لم ترجع عِبابُهم صفرا

وذلك أدنى ما يقال فى رجل . فلو أن هذه العباب عادت مملوءة تبنا أو ترابا لما كانت صفرا .

ويقول فى مدح يزيد بن عبد الملك إنه نزل به ضيفا فأكرمه وغطاه من فضل لحافه .

ما مَن جفانا إذا حاجاتنا نزلت كمن لنا عنده التكريم واللَّطَف

كم قد نزلت بكم ضيفا فتَلحَفُنى فضلَ اللحاف ونعم الفضلُ يُلتحَف

وليس مثل جرير ضيفا على مثل يزيد ، وإنما هو معتف يرجو فضله ويسعى لسيبه . واستعارة اللحاف هنا للفضل من أقبح الاستعارات .

ثم يقول إن له حسادا لا يغنون غناءه .

يا رب قوم وقوم حاسدين لكم ما فيهم بدَلٌ منكم ولا خلف

وهذا نزول بالخليفة إلى مستوى عامة الناس .

---

(١) الجميل الشحم المذاب . يكنى بذلك عن الجدب .

ويقول لعبد الملك .

الله طوقك الخلافة والهدى   والله ليس لما قضى تبديل

وليس يحسن استعمال التطويق فى النعمة ، فإنما يطوق الناس البلاء والمصائب . فالطوق أدنى إلى أن يصور التضييق والتنكيل .

ويقول للوليد بن عبد الملك :

وترى الجفان يمدها قمعُ الذرى   مدَّ الجداول بالأتىّ المفعم[١]

والقدر تَنْهِمُ بالمحَال وترتمى   بالزَّوْر همهمة الحِصان الأدهم[٢]

وليس يوصف الخليفة بأنه يمد للناس جفانا يعلوها شحم السنام ، وبأن قدوره تغلى بالقطع من فنار الظهر ، كأنها الحصان الأدهم حين يهمهم ويصهل . فذلك قليل جداً على الخليفة ، وإنما يمدح به عامة الناس الذين ينتابهم الفقر .

ويقول لهشام :

وكان أبوك قد علمت معد   يفرج عنهم الكرب العظاما

وقد وجدوك أكرمهم جدودا   إذا نسبوا وأثبتهم مقاما

وتحرز حين تضرب بالمعلّى   من الحسب الكواهل والسناما

وليس نسب الخليفة موضع بحث ، ولا هو مما يحتاج إلى إثبات ، أنه أفضل الناس نسباً .

ويقول له فى مديحة أخرى .

فيا ابن المطعمين إذا شتونا   ويا ابن الذائدين عن الحريم

فما الأم التى ولدت أباكم   بمُقْرِفة النجار ولا عقيم

(١) الذروة السنام . قمعة الذروة أعلى السنام . الجداول الأنهار . الأتى الجارى .
(٢) المحال فنار الظهر واحدها محالة . الزور الصدر . الهمهمة صوت دون الصهيل .

فلو أن أما ولدت شرطيا لم تكن مقرفة النجار ولا عقيما .
ويقول للعباس من الوليد :

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الذمار
وتمطر من نداك يداك فضلا إلى كرم الشمائل والنجار
وتوقد نار مكرمة وأخرى إذا ما المحل أخمد كل نار

وكأن بيت الخليفة مجهول يحتاج إلى أن توقد أمامه النار ليهتدى إليه الضيفان .

كانت السهولة الغالبة على شعر جرير صورة من طبعه السمح ، ونفسه الرقيقة المطمئنة . فقد كان جرير رجلا مؤمناً شديد ، التمسك بدينه ، يؤثر السلامة والعافية فى الآخرة كما يرجوهما فى الدنيا . كان إذا صلى الصبح جلس فى فناء منعزل أمام داره ، لا يكلم أحدا حتى تطلع الشمس ، ولا يبرح موضعه ولو تناحر الحى [١] . ولقد مرت به جنازة وهو يملى على رجل قصيدته

ودع أمامة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل

فقطع الإنشاد وجعل يبكى . ثم قال : شيبتنى هذه الجنازة [٢]. ولقى الفرزدق بمنى وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنك لاق بالمحصَّب من منى فخاراً فحدثنى بمن أنت فاخر

فلم يجبه إلا بقوله : لبيك اللهم لبيك [٣]

وهذه الرقة الغالبة على طبعه ، جعلته من أكثر شعراء عصره توفقا فى الغزل والرثاء . وبهذا كان يمتاز من زميليه الأخطل والفرزدق . لم يفرغ جرير للغزل ، ولم ينشىء فيه قصائد مستقلة ، ولكنه كان يقدم لمدائحه وأهاجيه بنسيب يسيل رقة وعذوبة . وكان جرير يعرف من نفسه هذه الرقة ، فهو

(١) النقائض ١ : ٣٢
(٢) الأغانى ٨ : ١٥
(٣) الأغانى ٨ : ٣٣

يقول : ماعشقت قط . ولو عشقت لنسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكى على مافاتها من شبابها [١] أنظر إلى قوله فى مقدمة قصيدة يهجو بها الفرزدق :

فلما التقى الحيان ألقيت بالعصى ... ومات الهوى لما أصيبت مقاتلة

لقد طال كتمانى أمامة حبها ... فهذا أوان الحب تبدو شواكله

ويوم كإبهام القطاة مزينٍ ... إلىَّ صباه غالبٍ لى باطلُه

لهوت بجنِّيٍّ عليه سُمُوطُه ... وأنس مجاليه وأنس شمائله

فلو كان هذا الحبُّ حباً سلوتُه ... ولكنه داء تعود عقابِلُهُ

هذا شعر معظم جماله فى ألفاظه السمحة الرقيقة ، التى تطرب الأذن وتستخف اللب . ولقد حق لجرير أن يصبو ويبكى ، حين قدم المدينة فاستمع إلى أشعب يغنى فى قوله .

يا أخت ناجية السلام عليكم ... قبل الفراق وقبل لوم العُذَّل

لو كنت أعلم أن آخرَ عهدِكم ... يوم الفراق فعلتُ مالم أفعل

فجعل يستعيده وهو يبكى حتى اخضلت لحيته . والذى يقرأ رثاء جرير لزوجته وولده سوادة ، لايستطيع أن ينتشل نفسه من الحزن العميق الذى أملاهما ، والرقة الباكية التى تفيضان بها . ولقد ماتت زوجة الفرزدق ، فلم يجد النادبات من شعره ماينِدبنها به ، فندبنها بقصيدة جرير هذه التى رثى بها زوجته .

هذه بعض مواهب جرير الشعرية وملكاته . وإنما كانت تتجلى هذه المواهب فى كامل قوتها وروعتها حين يهجو الأفراد . فقد كان هذا الرجل الرقيق الطبع جرو هراش كما يقول الحجاج ، يندفع فى الهجاء متدفقا لا يمل ، وكأنه يمارس أحب الهوايات إلى نفسه . وكان يعينه على ذلك هدوء طبعه

---

(١) الأغاني ٨ : ٤٣ .

وبرود أعصابه. فقد كان ينهشه ثمانون شاعراً من معاصريه، لم يستطع أحدهم أن يحفظه أو يثير غضبه، فهو يستمع إلى هجائهم فى اطمئنان، ثم يرد عليهم بهذا الاطمئنان نفسه، فيطيل مقدماته فى النسيب، متأنيا لا يستعجله الغضب، حتى إذا أرضى منه نفسه، تناول خصمه متهكماً ساخراً، مفتنا فى تهكمه وسخريته بما يضحك منهم الناس، ويثير حولهم عواصف الضحك، ويضيق عليهم الدنيا. فحيثما ذهبوا، وجدوا هجاءه فيهم قد سبق على الألسن، يتندر به فى كل مكان. يقول ابن سلام: كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجرير، وكان جرير أصبرهما. دخل رجل على الفرزدق فقال: وردت اليوم المربد قصيدة لجرير تناشدها الناس. فامتقع لون الفرزدق. فقال الرجل: ليست فيك يا أبا فراس فقال: فيمن؟ قال: فى ابن لجأ التيمى. قال: أحفظت منها شيئا؟ قال: علقت منها بيتين (1).

كان جرير ممتازاً فى حسه اللفظى، عالما بوحى الكلمات وأسرارها. فهو إذا تغزل رأيت ألفاظه تسيل رقة وعذوبة فى مثل قوله.

عوجى علينا واربعى ربة البغل ... ولا تقتلينى لا يحل لكم قتلى
ليالى إذ أهلى وأهلك جيرة ... وإذ لا تخاف الصرم إلا على وصل
وإذ أنا لا مال أريد ابتياعه ... بمالى ولا أهل أبيع بهم أهلى

وإذا رثى رأيت ألفاظه تنهار حزناً وكمداً، فى مثل قوله يرثى ولده سوادة:

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم ... كيف العزاء وقد فارقت أشبالى
فارقتنى حين كف الدهر من بصرى ... وحين صرت كعظم الرمة البالى
إن الثوىَّ بذى الزيتون. فاحتسبى. ... قد أسرع اليوم فى عقلى وفى حالى

(1) ابن سلام ١٣ .

وإذا هجا كانت ألفاظه مشحونة بالسخرية والاستهزاء ، تستعجل القارىء بالضحك ، قبل أن يفهم ماتضمنت من معنى . يقول للفرزدق :

عُدوا خضَافٍ إذاالفحول تُنجِّبَتْ   والجَيْشَلُوطِ ونُخْبَةً خوارا
وإذا فخرت بأمهات مجاشع   فافخر بقَبقَب واذكر النِّخْوارا

وتأمل اختياره لهذه الألقاب العجيبة ، وإلى غرابتها المضحكة ، فى الجيثلوط (وهو لفظ مخترع ، كأن معناه الكذاب السلاح ، مركب من جلط وجنط وسلط) وقبقب والنخوار .

ويقول له :

بئس الفوارس يانوار مجاشع   خور إذا أكلوا خزيرا ضفدعوا

وتأمل هؤلاء القوم الذين يضفدعون (أى يسلحون ويضرطون)

ويقول له :

فإن مجاشعاً فتعرَّفُوهم   بنو جَوْخَى وخَجْخَج والقِدام

وتأمل اختياره لهذة الأسماء الغريبة ، وهى أسماء بعض من كان يشتغل بالحدادة من رقيقهم ، يتهم نساء مجاشع بهم . ويقول: هؤلاء القيون هم آباؤهم

ثم انظر أخيراً إلى هذه الأبيات العجيبة ، ولا تتعب نفسك فى فهمها ، فهى تؤدى ماأريد بها بمجرد ملامستها الأذن ، وتستفز للضحك بخصائصها الصوتية وحدها :

أنت ابنُ هاتيكَ وتيكَ تيكا   أشبهتَ منها شبهاً يُخزيكا
أشبهتَ حُمرانَ وعُصْل كَيكا   أما ترى الحمرةَ فى بنيكا
يا ابن التى كانت تمشّى رحيكا   كأن بين إسكتيها ديكا
فرجٌ آستها مثل مَشقٍّ فيكا   تقول لما ملّتْ التَّوْريكا
عال أخاكَ العبدُ عن أبيكا

وقد وهب جرير مع هذا الحس اللفظى الممتاز عينا نقادة ، تقع على العيوب ووجوه النقص من أول نظرة ، وتهتدى إلى مواضع السخرية ، اهتداء المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر ، ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة خيال خصب ، وذكاء نفاذ ، يمده بالصور الغريبة فى الافتنان ، البارعة اللاذعة ، يتناقلها الناس متندرين . فمن أمثلة هذا الهجاء الذى يعتمد على الصور ، قوله يصف بنى مجاشع بالسمن والترهل ، مع قلة الغناء فى الحروب .

متى تغمز ذراع مجاشعى ... تجد لحماً وليس على عظام
فما صدق اللقاء مجاشعىٌّ ... وما جمع القناة مع اللجام
تولون الظهور إذا لقيتم ... وتدنون الصدور من الطعام

وقوله فيهم :

تلقى ضِفَنّ مجاشعٍ ذا لحية ... وله إذا وضع الإزار حِران[1]
من كل منتفخ الوريد كأنه ... بغل تقاعَسَ فوقه خُرجان

وقوله للتيم :

وتيم تُماشيها الكلاب إذا غدوا ... ولم تمش تيم فى ظلال الخوافق
وتيم بأبواب الزروب أذلة ... وما تهتدى تيم لباب السُرادق
وتمسح تيم قُصّة التيس وآسته ... ولا يمسحون الدهرَ غُرّةَ سابق

وقوله للبعيث المجاشعى :

يفيش ابن حمراء العِجان كأنه ... خِصىٌّ براذين تقاعس فى الوحل[2]

---

(١) الضفن القصير المكتنز . الحر موضع العورة من المرأة .

(٢) ابن حمراء العجان يكنى بذلك عن أن أمه أعجمية ليست بعربية . والعجان الموضع الذى بين القبل والدبر .

وقوله فى الأخطل :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حكّ اسْتَه وتمثل الأمثالا

وقوله للفرزدق :

إذا أسفرت يوماً نساء مجاشع بدت سوءةٌ مما تُجِن البراقع

مناخر شانَتْها القيونُ كأنها أنوفُ خنازير السوادِ القوابع

مُباشيم من غِبِّ الخزير كأنما تُصوِّتُ فى أعفاجهن الضفادع(١)

وقوله له :

وأوصى جُبيرٌ إلى غالب وصيةَ ذى الرحم المُجْهَد

فقال أرفقَنَّ بلِيِّ الكتيف وحكِّ المَشاعب بالمبرد(٢)

وفاز الفرزدق بالكلبتين وعدل من الجُمَم الأسود(٣)

فرقعْ لجدك أكياره وأصلح متاعك لا تفسد

وأدْنِ العلاة وأدن القدوم ووسع لكيرك فى المقعد

وهو يتهم جدة الفرزدق بعبدها جبير ، ويقول إنها ولدت ابنها غالبا (أب الفرزدق) منه . ثم هو يمر بذلك مرور من يلقى الخبر وكأنه حقيقة مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات . ومن ذلك قوله :

وجدنا جُبَيْراً أبا غالب بعيد القرابة من مَعْبَد

---

(١) الخزير والخزيرة دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه ، وقد يوضع فيه لحم . أو هو مرقة تتخذ من بلالة النخالة . الأعفاج الأمعاء . وغب كل شيء عاقبته .

(٢) الكتيف ضباب الحديد ، والواحدة كتيفة . المشاعب جمع مشعب على وزن منبر وهو المثقب الذى يثقب به .

(٣) الكلبتان ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى . العدل بفتح العين وكسرها المثل والنظير . الجمم بضم الجاء وفتح الميم الفحم .

(٤) العلاة بفتح العين السندان الذى يطرق عليه الحديد .

ومن أمثلة الهجاء الذى يعتمد على النكتة المضحكة قوله فى هجاء التيم :

ولو يُدفَن التَّيْمى ثم دعوته إلى فضل زاد جاء يسعى من القبر
وآية لؤم التيم أن لو عددتم أصابع تيمى نقصن عن العشر

وقوله فيهم :

يا تيم إن وجوهكم — فتقنعوا — طُبِعت بألأم خاتم وكتاب
قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم نُتِفَتْ شواربهم على الأبواب

وقوله فيهم :

وتيم يفخرون وضَرْبُ تَيْمٍ كضرب الزَّيْف بار على التجار

وقوله للفرزدق فى نفس المعنى ، حين طرد من الحجاز لسوء سيرته ، وإفحاشه فى شعره :

نفاكَ حجيجُ البيت عن كل مَشْعَر كما رُدَّ ذو النُمِيتَّيْن المزيَّف

وقوله للأخطل :

أنزعم ذا المناخر كان سبطا يهودياً وتزعمه أباكا

وهو بذلك يشير إلى مايروى من أن الخنزير كان من بنى إسرائيل فمسخ .

وهذا الخيال الخصب ، وهذه النكتة البارعة ،قد جعلت جريراً من أخطر الهجائين ، فى إطلاق الألقاب على خصومه ، وترويج الإشاعات الباطلة ، يكررها فى شعره ، ويفتن فى عرضها ، حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة

فهو يلقب الأخطل بدَوبل ، لأنه كان نصرانيا يأكل الخنزير. يقول له :

بكى دَوْبَلٌ لا يُرقِىء الله دمعَه ألا إنما يبكى من الذل دوبل(١)

ويقول :

فكم من خبيث الريح من رهط دوبل بدجلة لا تبكى عليه النوائح

---

(١) الدوبل الخنزير أو ذكره أو ذكر ولده .

ويقول :

فإنك يا خنزير تغلب إن تقل ربيعة وزن من تميم تكذب

ويلقب أبا الفرزدق بحوض الحمار ، لأنه كان أحدب داخل الصدر طويل االلحية .

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعرفوا منه قفا ومقلّداً وعِذارا(١)

ويقول :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعلموا عَقْدَ الأخادع وانشناجَ المِرفَق

شَرٌّ الخليقة من علمنا منهم حوضُ الحمار وشر من لم يخلق

ويلقب بنى نمير بالتيوس .

فصبراً يا تيوس بنى نمير فإن الحرب موقدة شهابا

ويسمى الفرزدق القرد لقصره ودمامة وجهه ، ويلقبه أحياناً القرد الأصلع لجمعه الصلع إلى القصر والدمامة .

إن البَلِيَّة لا بليةَ مثلَهـا قردٌ يعلِّل نفسه بالباطل

ويقول :

ولقدصككت بنى الفَدَوْكَسِ صكة فلقوا كما لقى القريد الأَصلع(٢)

ويلقب رجلا من سعد اسمه أبو كامل (ضرة الأرنب)

أخالفت سعدا وحكامها أيا ضرة الأرنب الحافل

---

(١) العذار جانبا اللحية . وهوكذلك ما سال من اللجام على خدالفرس . والمقصود هنا المعنى الأول . المقلد موضع القلادة .

(٢) الأخدع عرق فى الرقبة هو فرع من الوريد ، والأخادع جمعه : يقال لوى فلان أخدعه أى أعرض وتكبر ، وسوى أخدعة أى ترك الكبر . المرفق مفصل الذراع ، وانشناجه تقبضه .

(٣) بنو الفدوكس بيت من بيوت تغلب : وهم قوم الأخطل .

ويلقب رجلا آخر اسمه ميجاس (دودة الحشّ) .

لو كان غيرُك يا ميجاسُ يشتمنا   يا دودة الحشِّ يا ضُلَّ بن ضُلاَّل (١)

ويلقب شبة بن عقال (سلح النعامة) .

فضح الكتيبة يوم يضرط قائماً   سلحُ النعامة شَبَّةُ بن عقال

وجرير بعد هذا أمهر الناس فى اختراع الإشاعات وترويجها . يصهر الفرزدق إلى قوم من بكر حين يخطب ابنتهم حدراء ، فلا يزال جرير يشنع بهما ، حتى يمنعها أهلها منه ، كفاً لشره وهجائه . ويتهم ليلى أم غالب (جدة الفرزدق) بجبير عبدها — وكان قيناً — ويكرر ذلك حتى يشيع بين الناس .

تلقى نساء مجاشع من ريحهم   مرضى وهن إلى جُبَيْر نُزَّع

ليلى التى زفرت وقالت حبذا   عرق القِيانة من جبير ينبع

ويتهم جعثن أخت الفرزدق برجل من منقر ، ولا يزال يفتن فى تصوير اتصاله بها أفحش افتنان ، ويفصل أقذر تفصيل ، حتى تصبح جعثن سبة الفرزدق وقومه ، ولا يرى الناس قوله فيها إلا حقيقة .

كان الفرزدق يشنع بجرير ، ويختلق الإشاعات حوله وحول قومه . ولكن لم تكن له جرأة جرير وبراعته ، فهو يشنع بصلة بنى يربوع بالحمير ، وهو شىء بعيد عن المعقول ، قد يتندر به الناس ، ولكنهم لا يصدقونه . فأما جرير فهو يلتقط مادة هجائه من الواقع المشاهد ، القريب من المعقول . ومن مظاهر هذه الواقعية التى تستند إلى دقة الملاحظة ، براعته فى حكاية الأصوات والأشياء — وإن كانت هذه البراعة فاحشة فى كثير من الأحيان . يقول فى هجاء بنى عقال :

وسوداء المحاجر من عقال   تُبايعُ من دنا * خدها وهات

---

(١) الحش الكنيف .

ويقول لعمر بن لجأ التيمي متهماً أمه :

تقول والعبد مسكين يُجَرِّرها ارفق فَدَيْتُكَ أنت الناكح الذكر

ويقول فى جعثن أخت الفرزدق :

وتقول جعثن وابنُ مُرَّة جانح خَلْجاً رويداً قد نزعت طِحالى

وقد كان جرير يعالج موضوعاته معالجة الفنان الموهوب ، الذى يلمِّح ولا يصرح ، ويتناول الأشياء من أطرافها مترفقاً ، ويشير إليها ولا يلمسها .

يقول فى أعور نبهان :

وأعور من نَبْهانَ أما نهاره فأعمى وأما ليله فبصير

ويقول لعمر بن لجأ معيراً بأمه :

ما بال برزة فى المنحاة إذ نذرت صومَ المحرَّم إن لم يطلع القمر

ويقول له :

ولقد هممتُ بأن أدمِّر بارقا فرقبتُ فيهم عمَّنا إسحاقا

وهو بذلك ينفيهم عن العرب ، وينسبهم إلى بنى إسرائيل . وأبرع ما فى البيت أنه يدخر كل ما فيه من لذع للكلمة الأخيرة . فالقارىء لايرى بالبيت بأساً حتى تلقى هذه الكلمة كالقنبلة .

ويقول لتيم

ترى الأبطال قد كُلِموا وتيم صحيحو الجلد من أثر الكلوم

ويقول للفرزدق :

فإن مجاشعاً جمعوا فياشًا وأستاهًا إذا فزِعوا رِطابا

يتهمهم بالجبن ، ويقول إنهم يسلحون لفرط مابهم من فزع .

ويقول فى نساء بنى نمير .

إذا قامت — لغير صلاة وِترٍ — بُعَيد النوم أنبحَت الكلابا

ويقول لبنى مجاشع :

الطاعنون على أهواء نسوتهم والخافضون بدارٍ غيرِ محْلال

وجرير بعد كل هذا ساخر من خصمه ، متهكم به ، لاتراه غاضباً أبداً . وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لذعاً كأنه السياط . انظر إلى قوله فى تعيير بنى مجاشع بلقيط بن زرارة ، الذى قتل فى بعض الحروب .

وخورُ مجاشعٍ تركوا لَقِيطا وقالوا حِنْوَ عينِك والغرابا[1]

جعلهم يتحدثون إلى الميت ، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب .

وقوله للتيم .

وإنك لو لقيت عبيد تيم وتيما قلت أيهم العبيد

وقوله للأخطل :

أدِّ الجزَى ودع الفخار بتغلب واخسأ بمنزلة الذليل الصاغر

وقوله له :

قال الأخيطل إذ رأى راياتنا يا مار سرجس لا نريد قتالا

وقوله :

إذا ما كان خالك تغلبيا فبادِلْ إن وجدتَ له بِدالا

أبعلَ التغلبية لا تطأها فلادِيناً أصبت ولا جمَالا

(١) حنو العين عظم الحاجب المنحنى على العين : وقيل حنوها ناحيتها : يهزء به فيقول احفظ الغراب بعينك ، فان انصرفت عن مراقبته سقط عليها فأكلها :

وقوله له :

قيس وخندف إن عددت فعالهم　　خير وأكرم من أبيك فعالا

إن حرَّموك لتحرُمَنَّ على العِدا　　أو حللوك لتؤكَلَنَّ حَلالا

ويقول للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مِرْبعا　　أبشر بطول سلامة يا مربع

ويقول معيرا إياه قتل الزبير بن العوام وهو فى جوار قومه مجاشع :

فأدُّوا خواوِيَّ الرسول ورحلَه　　إلى أهله ثم افخروا بعدُ أو دَعُوا

كل هذه الخصال كفلت لشعر جرير السيرورة والذيوع ، وجعلت منه أبرع هجاء عرفه الأدب العربى فى مهاجمة الأفراد . فلم يعرف الأدب العربى شاعرا تعرض له مثل هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير ، فكان لا يمل الرد عليهم ولا يضيق به . وكأن مواهب هذا الرجل الشعرية ، لم تكن تسخو وتجود إلا على الهجاء .

الفـــــرزدق

الحديث عن جرير لا بد أن يستدعى الحديث عن الفرزدق ، فهما صنوان لا يفترقان ، ربطت بينهما الأقدار فى النشأة ، فكان مولدهما فى عامين متقاربين ، سبق إليه الفرزدق ببضع سنوات ، وربطت بينهما فى الوفاة فماتا فى عام واحد ، وربطت بينهما فى النسب فكانا من قبيلة واحدة ، وربطت بينهما بعد كل ذلك فى هذا التلاحم والتنافس ، الذى دام بينهما نحوا من أربعين عاما ، يتهاجيان بما لم يتهاج بمثله شاعران فى جاهلية أو إسلام ، كما يقول ابن سلام .

ويتفق الذين أرخوا لهما على أنهما ماتا فى عام واحد ، ثم يختلفون فى تحديده ، بما لا يسبق عام ١١٠ هـ ، ولا يتأخر عن ١٤٤ (١). ويرجح أبو الفرج أن تكون وفاتهما فى عام ١١٤ هـ ، لأن للفرزدق شعراً فى يوم كاظمة (١١٢ هـ) ، ولا بد أن تتأخر وفاته عنه . ويؤيد مايذهب إليه أبو الفرج أن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحكم والى المدينة ، وخالد هذا قد وليها عام ١١٤هـ . ويتفق المؤرخون كذلك على أنه جاوز التسعين . ويؤيد ذلك عندنا قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها عبدالله بن عبد الأعلى بن أبى عمرة الشيبانى .

سما لك شوق من نوار ودونها مَهَامِهُ غُيْرٌ آجناتُ المَنَاهِلِ (٢)
ومن بعد أن أكملت تسعين حِجَّةً وفارقت عن حلم النُهى كلَّ جاهل

وقول جرير فى رثائه :

فتى عاش يبنى المجد تسعين حجة وكان إلى الخيرات والمجد يَرْتقى

---

(١) العقد الفريد ٦ : ٢٢٢ ، ابن خلكان ٢ : ٢٦٥ ، الشعر والشعراء ١٧٦ و ١٧٩
(٢) المهامه جمع مهمه وهى الصحراء : المنهل الآجن الراكد الفاسد .

فمولد الفرزدق على ذلك حوالى عام ٢٤ هـ ، أو قبله بقليل .

ويؤيد ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ — ٩٦ هـ) ، ويفهم من جوها أنها فى أوائل عهده بالخلافة :

ألم يك جهلا بعد ستين حجة ... تذكرُ أم الفضل والرأسُ أشيب

ويؤيد ذلك أيضا قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ — ١٠٥ هـ) .

تقول أما ينهاك عن طلب الصبا ... لداتُك قدشابوا و إن كنت أكبرا

من ابن الثمانين الذى ليس واردا ... ولا جائياً من غيبة مُتَنَظَّرا

وقوله بعد ذلك فى مدح هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ) ، ولا بد أن يكون فى أول ملكه :

رمتنى بالثمانين الليالى ... وسهمُ الدهرِ أصوبُ سهمِ رامى

نستطيع إذن أن نطمئن إلى هذا التاريخ ، الذى يصور الفرزدق أسن من جرير ببضع سنوات ، وأن يرفض ما يتعارض معه من الروايات ، مثل قول صاحب الأغانى[1] « حج الفرزدق بعد ما كبر وقد أتت له سبعون سنة ، وكان هشام بن عبد الملك قد حج فى ذلك العام » . فالمعروف أن هشاماً حج عام ١٠٦ هـ . فمولد الفرزدق على هذه الرواية عام ٣٦ وهو مناقض لما يروى أبو الفرج نفسه فى موضع آخر[2] ، من أن الفرزدق كان يجيد الهجاء فى أيام عثمان (٢٣ — ٣٥ هـ) . ومناقض كذلك لما يروى فى موضع ثالث من[3] أن أباه وفد به على على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل (٣٦ هـ) ، فقال له : إن ابنى هذا من شعراء مضر فاسمع منه . فقال له : علمه القرآن .

(١) الأغانى ١٩ : ٤٠

(٢) الأغانى ١٩ : ٦

(٣) الأغانى ١٩ : ٤٠

وإذا كانت الأقدار قد ألفت بين جرير والفرزدق من وجوه، فقد خالفت بينهما من وجوه أخرى، فكانا متناقضين من نواحي كثيرة. فجرير خامل الأجداد، شديد الشعور بنقصه، ساخط على القدر الذى لم يجىء به إلى الدنيا إلا عن طريق أبيه، وهو عاق له، ضيق به. أما الفرزدق فهو عظيم الأب والجد، شديد الشعور بامتيازه وتفوقه، راض عن آبائه، شديد الفخر بهم. وجرير رقيق القلب، عميق الإيمان، ليس فى سيرته خروج على الدين أو العرف. وهو مسالم، حسن العلاقة بالولاة والحكام وبالناس. أما الفرزدق فهو فظ غليظ القلب، لم يدخل الإسلام نفسه ولم يتغلغل فيها، ففى سيرته خروج على العرف والدين. وهو جلف جاف كثير الخلاف، مولع بالمشاكسة والمراء. ولذلك ساءت علاقته بالولاة جميعاً. وكان جرير لرقته وإيثاره حياة الوداعة والهدوء لا يتكسب بالهجاء. وكان يبتذل نفسه فى السؤال، ويهينها فى سبيل المال. أما الفرزدق فكان شديد الاعتداد بشخصه، يفرض نفسه على الناس فرضاً، يسألهم فى عنف، وكأنه يرى فى مالهم حقاً له، ويهجوهم إذا امتنعوا عنه وأبوا أن يبذلوا له. وهو كذلك شديد الاعتداد بنفسه حين يسأل الخلفاء والولاة، لا يتوسل إليهم إلا بنسبه ومكانته من قبيلته. وكان جرير زبيرى الهوى قيسى النزعة، يمثل الحزب اليربوعى من تميم. أما الفرزدق فكان لا يعتد بغير قبيلته، ولا يفكر إلا فى حسبه وشرف أجداده، فهو يمثل حزب الأحنف من تميم.

وجد الفرزدق فى جرير منافساً خطيراً له حين نبغ فى الشعر، ورآه يسرع إلى المجد، وقد أوشك أن يبتلع كل من اعترض طريقه من شعراء تميم، حتى كاد يحتل من القبيلة مكان الشاعر الأول، فحسده هذا الرجل التياه بنفسه، ووقف فى طريقه، ليضع حداً لتقدم هذا الخامل، الذى يريد أن يحتل بشعره من تميم مكانا ينافسه به. وقد يتحدث الرواة عن بعض الأسباب المباشرة لتهاجى هذين الشاعرين، ولكن المدقق لقراءة شعرهما وما تبادلا من نقائض، يحس

أن التنافس على الزعامة الشعرية فى القبيلة ، والنزاع حول شرف الدفاع عنها هو الدافع الأول إلى هذه المعركة الشعرية الخطيرة ، التى لم تنته إلا بموت الفرزدق . يقول الفرزدق مخاطبا جرير :

واسأل بنا وبكم إذا وردَتْ مِنًى ... أطرافُ كل قبيلة من يُسمَع

صوتى وصوتك يخبروك من الذى ... عن كل مكرمة لخندف يدفع [1]

ويقول له :

ستعلم يا حيض المراغة أننا ... له حين يدعو من تميم قماقمُه

ألم تعوِ عن قيس بن عَيْلان باسطاً ... إليهم يَدَىْ مستطعِم لا تُطاعمُه

بأعراض قوم خِندِفيين منهم ... لؤى بن فِهْرٍ والسُعود ودارمه

ويقول له :

منعتُ تميماً منك ، إنى أنا ابنها ... وراجلُها المعروف عند المواسم

أنا ابن تميم والمحامى وراءها ... إذا أسلَمَ الجانى ذمارَ المحارم

ونلاحظ هذا التنافس كذلك حين يعرض الشاعران لذكر سعد — وهى من أشرف فروع تميم وأكبرها ، فيها الزبرقان بن بدر والأحنف بن قيس — حيث نرى أن كلا منهما يحاول أن يكسب تأييدها ، وأن يضمها إلى جانبه .

يقول جرير فى بعض نقائضه .

ولم أنس من سعد بقُصْوان مشهدا ... وبالأُدَمَى ما دامت العينُ تَطرِفُ

وسعد إذا صاح العدو بِسَرْحِهِم ... أبوا أن يُهَدُّوا للصياح فأزحفوا

ديار بنى سعد ولا سعدَ بعدَهم ... عفَتْ غيرَ أنقاء بيَبْرِين تُعرَف

إذا نزلَتْ أسلافُ سعد بلادها ... وأثقالُ سعد ظلت الأرضُ ترجُف

---

(١) خندف زوجة إلياس بن مضر . وهى الأم التى يجتمع عندها تميم وقريش .

فيجيبه الفرزدق بقولة :

تُبكِّي على سعد وسعد مقيمه ببيرين منهم من يزيد ويُضعِف
على ما وراء الردم لودُكَّ منهم لماجوا كما ماج الجرادُ وطوفوا (١)
فهم يعدِلون الأرض لولاهم استوت على الناس أو كادَتْ تسير فتُنْسَف
ولو أن سعداً أقبلت من بلادها لجاءت ببيرين الليالى تزَحَّف

كان الفرزدق عميق الإحساس بتفوقه وامتيازه . فجده صعصعة محيي الوئيدات ، الذى جعل على نفسه أن لا يسمع بموءودة إلا فداها ، فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة أو أربعمائة فيما يقول الرواة . وأبوه غالب الذى يذهب فى كرمه إلى حد الإسراف والإتلاف ، يعطى الناس ولا يسألهم فيم يسألونه . ويبلغ به جنون الكرم والحرص على التفوق فيه أن يعقر كل أبله ، وهى تتجاوز المائة ، بل تبلغ أربعمائة فيما يرى بعض الرواة ، فينهبها الناس منافسة لرجل منهم سولت له نفسه أن يجاريه ويضاهى نفسه به (٢)

وقد كان الفرزدق يحس هذا الامتياز منذ نشأته ، فهو طموح عالى الهمة ويبدو ذلك فى القطعة ، التى يظهر أنها من أول شعره ، يخاطب بها أمه وقد أرسلته فى غنم يرعاها — وكان غلاما — فأغار عليها الذئب فاختطف كبشاً ، فلما راح إليها لامته .

ولائمتى يوماً على ما أتت به صروفُ الليالى والخطوبُ القوارع
فقلت لها فيئى إليك وأقصرى فأومُ الفتى سيف بوصليه قاطع (٣)

(١) يقصد بالردم سد ذى القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف . بناه على أهل يأجوج ومأجوج ليكف أذاهم عن الناس . طوفوا خرجوا كالطوفان .
(٢) الأغانى ١٩ : ٣ — ٥
(٣) فيئى أى ارجعى . أوم الفتى ظماؤه ورغبته . يقول إنى لآتى الموت بسيف قاطع من إلحاحك فى اللوم .

تلوم على أن صبّح الذئبُ ضأنها ... فألوى بكبشٍ وهو فى الرَّعْى راتع
وقد مر حول بعد حول وأشهرٌ ... عليه ببؤسٍ وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدام حزماً وأنه ... أخو الموت من سُدَّتْ عليه المطالع
أغار على خوف وصادف غرّةً ... فلاقى التى كانتْ عليها المطامع
وما كنت مِضياعاً ولكنّ همتى ... سوى الرعى مفطوما و إذ أنا يافع
أبيت أسوم النفس كل عظيمة ... إذا وَطوَّتْ بالمُكثرِين المضاجع

ويبدو هذا الطموح الجرىء فى قصة قدومه على معاوية، مطالباً بميراث عمه الحُتات وكان قد قدم عليه وأخذ عطاءه ألف دينار، ثم لم يلبث أن مات، فرد معاوية عطاءه إلى بيت المال، فندم عليه الفرزدق ـ وكان غلاماً ـ فقال:

أبوك وعمى يا معاوى وَرّثا ... تُراثاً فيحتاز التراثَ أقاربُه
فما بالُ ميراثِ الُحتاتِ أكلته ... وميراثُ حربٍ جامدٌ لكَ ذائبُه
فلو كان هذا الأمرُ فى جاهليَّةٍ ... علمتَ منَ المَوْلى القليلُ حلايبُه[1]
ولو كان هذا الأمر فى غير مُلْككم ... لأداهُ لى أو غَصّ بالماء شاربُه
وكم من أب لى يا معاوىَ لم يكن ... أبوك الذى من عبد شمسٍ يُقاربه

وقد صادف هذا الطموح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة وجفاء. فبلغ به حد الجنون والمرض. فهو لا يرى أن قبيلته ستجد من يملأ فراغه ويحل محله إن مات:

ألا ليت شعرى ما تقول مجاشع ... إذا قال راعى النِّيب أودى الفرزدق

---

(١) الحلايب جمع حلبة بفتح الحاء وسكون اللام وهي الدفعة من الخيل فى الرهان. القليل حلايبه أى الضعيف.

ألم أك أكفيها وأحمى ذِمارها . وأبلغ أقصى ما به متعلّق

ويقول مفاخراً بتحمل غرامات قومه :

أرى كل جانٍ من تميم إذا جنى لهم حَدَثاً كانت علىّ جرائرُه

وقد علم الجانون أن ابنَ غالب لكلِ دمٍ قالوا هرقناه غارِمُه

وهو لا يدع الفخر بنفسه بين أيدى الملوك والأمراء حين يمدحهم يقول فى قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والى الحجاز :

وقوم أبوهم غالبٌ أنا مالهم وعام تمشّى بالفِراء أرامله

ومجد أذود الناسَ أن يلحقوا به وما أحدٌ أو يبلغَ الشمسَ نائلُه

أنا الِخندِفىُّ الَحنظَلى الذى به إذا جمعَتْ ركبان جمع منازُله

أرى كل قوم وَدَّ أكرمُهم أبًا إذا ما انتمى لو كان مِنّا أوائلُه

بل هو يقرن نفسه به حين يقول :

إليك ابنُ لَيْلى يا ابنَ ليلى تجوَّزَتْ فلاةً ودوايًّا دِفاناً مناهِلُه(١)

ويفد مع جرير على يزيد بن عبد الملك ، وبين يديه بمية له ، فيقول له الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهى أكرم العرب(٢).

ويقول فى قصيدة يمدح بها مسمع بن المنذر بن الجارود .

لها سَوْرةٌ كان المعَلَّى بنى لها مكارم ما كانت يدان تنالها

من الناس إلا من قريش ودارم إذا سبقَ الأيدى القصارَ طِوالُها

وقد ظل الفرزدق زمانا وهو ممتنع على خلفاء بنى أمية ، يمدحهم من بعيد ، ولا يرحل إليهم . وقد كان سليمان أول من رحل إليه من ملوكهم ،

---

(١) ليلى أم عمر بن عبدالعزيز ، واسم جدة الفرزدق لأبيه ليلى كذلك . الفلاة والداوى والدوى والدو كلها أسماء للصحراء . دفان المناهل أى مطموسة من شدة الرياح بها . فالمسافر فيها لا يجد حاجته من الماء .

(٢) الأغانى ١٩ : ٧

فهو يقول فى أول قصيدة مدحه بها :

فلو كان لى بالشام مثلَ الذى جبَتْ ثقيفٌ بأمصار العراق وأ كثرا (١)

فقيل آ أتِيهِ لم آته الدهرَ ما دعا حمامٌ على ساقٍ هديلاً فقرقرا (٢)

تركتُ بنى حربٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتيــه والمتخيَّرا

أباك . وقد كان الوليدُ أرادنى ليفعل خيراً أو ليؤْمِنَ أوْجَرا (٣)

فما كنتُ من نفسى لأرحلَ طائعاً إلى الشام حتى كنتَ أنت المؤمَّرا

فحبُّكَ أغشانى بلاداً بغيضَةً إلىَّ وروميًّا بعَمَّانَ أقشرا (٤)

وهو لا يرى لنفسه وقبيلته كفؤا إلا قريشاً . يقول :

وليس بعدل إن سبَبْتُ مُقاعِسًا بآبائى الشُّمِ الـكرامِ الخضارم

ولـكنَّ عدلاً لو سببتُ وسبَّنى بنو عبد شمس من منافٍ وهاشم

ويقول لابن الزبير ، حين احتكمت إليه النوار فحكم لها ، وتعرض الفرزدق بعد ذلك لابن الزبير بشعر أغضبه ، فقال له : يا ألأم الناس ! هل أنت وقومك إلا جالية العرب ؟ يقصد بذلك إجلاء تميم عن تهامة قبل الإسلام بمائة وخمسين عاما لوثوبهم على البيت واستلابه . فأجابه الفرزدق بأبيات بدأها بقوله (٥) :

فإن تغضَبْ قريشٌ ثم تغضَبْ فإن الأرضَ ترعاها تميم

---

(١) مثل الذى جبت ثقيف يقصد الحجاج بن يوسف لأنه من ثقيف . يقول لو كان لى فى الشام مثل ما يجبى الحجاج من مال العراق ما أتيتها . وإنما جئت من أجلك .

(٢) القرقرة صوت ترجيع الحمام وهديله .

(٣) الأوجر الخائف الوجل .

(٤) عمان من أعمال دمشق . سميت باسم عمان بن لوط عليه السلام . الأقشر الأحمر

(٥) الأغانى ٩ : ٣٢٨

بل إنه لا يعدل بقبيلته شيئا ، ولا يرى لهم كفؤا أو نظيراً . فلولاهم لضاع الإسلام والمسلمون :

وأفضل من يمشى على الأرض حيَّنا — وما ضمِنَتْ فى الذاهبين قبورُها
لنا دونَ مَن تحتَ السماء عليهم — من الناس طرا شمسُها و بدورُها
أخذنا بآفاق السماء عليهم — لنا برُّها من دونهم و بُحورُها
ولو أنّ أرضَ المسلمين يحوطُها — سوانا من الأحياء ضاعَتْ ثغورُها
لنا الجن قد دانتْ وكلُّ قبيلةٍ — يدين مُصَلُّوها لنا وكَفُورُها

ويقول :

ولو أنَّ أمَّ الناس حواء حاربَتْ — تميمَ بن مُرٍّ لم تجد من يُجيرها

وقدم على يزيد بن عمير الأسيدى — وكان على البصرة — فوقف على بابه ، فأبطأ فى الاذن له . فغضب الفرزدق وانصرف قائلا :

ألم يك من نُـكْسِ الزمان على آستِهِ — وقوفى على باب الوَقَاحِ أزاولُه
فإن يك شرطيًا فإنى ابن غالب — إذا جمعَتْ رُكْبانَ فَجّ منازلُه

وكان الفرزدق يتكلف فى حياته مظهر السادة ، فكان لا يرى إلا متقنعاً — وكان القناع من سيما الرؤساء — قال الجاحظ : والقناع من سيما الرؤساء والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يكاد يرى إلا مقنعاً (١) .

يقول له جرير :

وتقول ظبيةُ إذ رأتك مقنَّعًا — أنت الخبيثُ عِمامةً و إزارا

ويقول له :

وتقول جعثن إذ رأتك مقنعا — قُبِّحتَ من أسدٍ أبى أشبال

(١) البيان والتبيين ٣ : ٥٨

وقد كثرت الروايات واضطربت الأقوال فى ميل الفرزدق السياسى ، فبعض هذه الروايات يصوره أمويا مروانيا ، وبعضها يصوره شيعيا . ويستطيع الباحث أن يجد لكل هذه الروايات ما يؤيدها من شعره . فمما يصور زبيريته ، قوله يؤنب مالك بن مسمع بن شيبان بن شهاب لفراقه قومه — وكانوا زبيرية — وانضوائه لآل مروان :

عجبتُ لأقوام تميمٌ أبوهم وهم فى بنى سعد عِراضُ المبَارِك
وكانوا سَراةَ الحىِّ قبل مسيرهم إلى الأزد مُصفراً لِحاها ومالك
ونحن نفينا مالكا عن بلادنا ونحن فقأنا عينه بالنيازك
فما ظنكم يا ابن الحوارىِّ مُصعَبٍ إذا افترَّ من أنيابه غيرَ ضاحك
أبا حاضر إن يحصر البأس تاقنى على سابح إبزيمه بالسنابك

ومما يصور تشيعه ، القصيدة المشهورة التى تنسب إليه فى مدح على بن الحسين . وينكر بعض المؤرخين نسبتها إليه .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِلُّ والحرم

ويؤيد ذلك ما يروى عن تشيع أبيه وعمه أعين ـ أبى النوار ـ (١) أما الشعر الذى يصور مروانيته فهو كثير يملأ ديوانه . وهو فى رأينا لا يدل على شىء ، لأن كل الشعراء كانوا يمدحون الأمويين فى ذلك الوقت ، عن رغبة أو رهبة .

وإذا تتبعنا سياسته العصبية ، وجدناه يؤيد قبيلة كلب المعروفة بعصبيتها الأموية فى مثل قوله :

إذا انتَجعَتْ كلبٌ عليكم فمكِّنوا
لها الدارَ من سهلِ المبَاءةَ والشرب (٢)

---

(١) الأغانى ١٩ : ٦ ـ نقائض جرير والأخطل ٢٠٢
(٢) الانتجاع طلب الكلأ والمرعى . المباءة المنزل :

فإنهم الأحلافُ والغيثُ مرَّةً
يكون بشرقٍ من بلادٍ ومن غرب
أشدّ حبالٍ بين حيَّيْن مِرَّةً
حبالٌ أُمِرَّتْ من تميمٍ ومن كلب(١)

وقـوله :

وإنّا وكلباً إخوةٌ بيننا عُرًى ... من العَقْدِ قد شَدَّ القُوى من يُغيرها
فمن يأتنا يرجو تفرُّقَ بيننا ... يُلاق جبالا دون ذاك وُعُورها
نُجير على كلبٍ فيَمضى جوارُنا ... ويَعقِد من كلبٍ علينا مجيرُها(٢)

ويهاجم قيسا مهاجمة صريحة فى مثل قوله :

رمى اللهُ فيما بين قيسٍ وبينَنا ... على كلِّ حالٍ بالعداوة والبعد
وزادهم رَغْماً وعضَّتْ رقابَهم ... بأيدى تميم مُصلَتابٌ من الهند

ولكنه يعتز بهم ويربط بينهم وبين قومه فى مواضع أخرى فيقول :

إذا خِندفٌ بالأبطحين تغطرفَتْ ... ورائى وقيسٌ ذيَّلَتْ بالمُشرَّق
فما أحدٌ إلاّ يرانا أمامَه ... وأربابَه من فوقهِ حين نلتقى
ومن يلق بحرَيْنا إذا ما تناطحا ... بخِندفَ أو قيسِ بنِ عَيْلان يَغرَق
هما جبلا الله اللذان ذُراهما ... مع النجم فى أعلى السماء المحلِّقِ
فتحنا بإذن الله كلَّ مدينةٍ ... من الهند أو بابٍ من الروم مغلَقِ

---

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء القوة : أمر الحبل أجاد فتله : يقول إن الحلف الذى بين قومه وبين كلب قوى متين

(٢) يقول إذا أجرنا كان لجارنا حرمة عند كلب . وكذلك هى تجير علينا فننفذ ما عقدت ونحترم جوارها .

ويقـــول :

إذا زخرتْ قيسٌ وخِندِفُ والتقى صمياهما إذ طاح كلُّ صميم
وما أحدٌ من غيرهم بطريقهم من الناس إلا منهمُ بمُقيم
إذا مُضَرُ الحمراء يوماً تعطّفَتْ عليَّ وقد دَقَّ اللجامَ شَكِيمى
أبوا أن أسومَ الناسَ إلا ظُلامةً وكنتُ ابنَ ضِرغامِ العدوِّ ظَلُوم

ويهاجم اليمنية متعصبا لقيس ، حين قتل المنذر بن الجارود عمر بن يزيد الأسيدى . ويبلغ من عنفه فى ذلك ، أن يهاجم الخليفة هشام بن عبد الملك ، الذى يحمى هذا الحزب اليمنى ويتهدده .

فمَنْ مبلغٌ بالشام قيسا وخِندفا أحاديثَ ما يُشفَى ببرء سِقامُها
أحاديثَ منا نشتكيها إليهم ومُظلِمةً بغشى الوجوهَ ظلامُها
فإن من بها لم يُنكِرِ الضيم منهم فيَغضب منها كهلُها وغلامُها
يعُدْ مثلُها من مثلهم فينكاوا فيعلمَ أهلُ الجوْرِ كيف انتقامُها
بغَلباء من جمهورها مضريةٍ تُزايلُ فيها أذرعَ القوم لامُها
فغيِّرْ أميرَ المؤمنين فإنها يمانيةٌ حمقاء أنتَ هِشامُها

والواقع أن مثل هذه الروايات المتنافرة ، وهذا الشعر المتناقض ، يسهل فهمه إذا لم ننس ماقررنا من أن الفرزدق لم يكن يهب ولاءه وإخلاصه إلا لقومه من تميم . وهو بعد هذا مستقل فى تفكيره السياسى — إن جاز لنا أن نستعير هذا الاصلاح المعاصر ، لذلك العصر الغابر — فهو ينقد كل شيء ، ولا يتمسك بتأييد الدولة فى كل سياستها ، ولكنه يهاجمها حين يبدو له أن الولاة لا يسيرون سيرة عادلة ، وحين يرى أن سياسة الدولة أو الحكام ، تتعارض مع تميم .

وبينما نجد جريرا فى مدائحه يكثر من الشكوى ، ويبالغ فى وصف بؤسه وفقر أهله ، استدراراً للعطف ، واستكثاراً من العطاء ، نجد الفرزدق لا يتوسل إلى ممدوحيه إلا بكرمه ونسبه ، فهو يسألهم فى إباء وترفع . يمدح عبد الرحمن بن عبد الله بن شيبة الثقفى ـ وأمه أم الحكم إبنة أبى سفيان ـ فيقول :

وما ساقَها من حاجةٍ أجحفَتْ بها　　إليك ولا من رِقَّةٍ فى مجاشع

ولكنها اختارَتْ بلادَكَ رغبةً　　على ما سواها من ثنايا المَطَالع (١)

ويمدح الوليد بن عبد الملك ، فلا يتوسل إليه بفقره كما يفعل جرير ، ولكنه يتوسل إليه بشرفه قائلا .

أغِثْنى بكُنْهِي من نزارٍ ومُقْبِلى　　فإنى كريمُ المشرقين وشاعرُه

وهو يفرض نفسه على الناس ، فيطالبهم وكأنه يجبى ضريبة مفروضة يدفعونها اتقاء شره . كانت مية بنت الصلت بن حريث بن جابر الحنفى تعطيه فى كل سنة خمسمائة درهما ، فلم يزل يجىء إليها مطالباً بها ، حتى خرج إليه ابن أخ لها فطرده (٢) . وأتى خالد بن عبد الله القسرى ، يستحمله فى ديات حملها فقال له : إيه يافرزدق ! كأنى بك قد قلت : آتى الحائك ابن الحائك (٣) ، فآخذ من ماله إن أعطانى ، أو أذمه إن منعنى . فأنا حائك ابن حائك ولست أعطيك شيئا ، فاذممنى كيف شئت . فهجاه الفرزدق بشعر كثير منه :

ليتنى فى بَجِيلَةَ اللؤم حتى　　يُعزَلَ العاملُ الذى بالعراق (٤)

فإذا عاملُ العراقَيْن ولّى　　عُدْتُ فى أسرةِ الكرامِ العِتاق

---

(١) وما ساقها الضمير يعود إلى ناقته : الثنايا جمع ثنى بكسر الفاء وسكون اللام وهو المنعطف فى الجبل .

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩٤

(٣) الحائك بن الحائك ، لأنه يمنى واليمن تعير باحتراف الحياكة والملاحة . والعرب تحقر أصحاب الصناعات كما قدمنا :

(٤) بجيلة قبيلة يمنية ينتسب إليها خالد بن عبد الله القسرى والى العراق :

كان الفرزدق مغروراً شديد الاعتداد بنفسه . وقد جعله هذا الغرور عيابا للناس ، لا يعجبه شيء ، لأنه لا ينظر إليهم إلا مستخفا ، ولا يراهم إلا دونه . وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي شبها كبيرا . كان الفرزدق يحس امتيازه بآبائه وأجداده إلى حد الجنون ، وكان المتنبي يحس امتيازه بمواهبه ، ويغلو فى تقديرها إلى حد الهوس والخبال . وقد أسرف المتنبي فى هجاء الناس حتى قتله الهجاء ، وأسرف الفرزدق فى الهجاء فعرضه ذلك لشر متصل ، فلم يكن إلا سجينا أو فارا من السجن ، لاجئا إلى من ينقذه منه . وقد ساءت علاقته بكل ولاة العراق ، ولم يسلم من هجائه منهم أحد . هجا زياد بن أبيه ، وظل طول حياته فارا منه ، لم يستقر حتى مات . ثم هجا الحجاج من بعده ، وهجا عمر بن هبيرة ، وهجا خالد بن عبد الله القسرى بل لقد هجا الخليفة هشام بن عبد الملك ، حين حج معه فلم يعطه إلا خمسمائة درهم ، فقال فيه :

يُردِّدُنى بين المدينة والتى إليها قلوبُ الناس يَهوِى مُنيبُها
يُقلِّب عيناً لم تكن لخليفةٍ مشوَّهةً حولاء بادٍ عيوبُها(١)

وقال فيه :

لَبِئس أميرُ المؤمنين أميرُكم وبئس أميرُ المؤمنين هشام
تَنَايَكُ عيناه إذا ما لقِيتَه تبَيَّنَ فيه الشؤمُ وهو غلام

وقال لزياد حين تهدده ، لهجائه بنى فقيم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص بالحجاز :

ألا مَن مبلغ عنى زيادا بأنى قد لجأت إلى سعيد
وأنى قد فررت إليه منكم إلى ذى المجد والحسب التليد

---

(١) كان هشام بن عبدالملك أحول .

قراراً من شُتَيم الوجه وَرْدٍ ... يُفِزُّ الأسْدَ خوفًا بالوعيد(١)
فإن شئتُ انتسبتُ إلى النصارى ... وإن شئتَ انتسبت إلى اليهود
وإن شئت انتسبت إلى فُقَيْمٍ ... وناسَبَنى وناسبْتُ القرودُ(٢)
وأبغضُهم إلىّ بنو فقيم ... ولـكن سوف آتى ما أريدُ

وقال يهجو الحجاج ويتهدد الأمويين بالخروج عليهم :

إن تنصفونا يال مروانَ نقترِبْ ... إليكم وإلا فأذنوا ببعاد
فانّ لنا عنكم مَرَاحًا ومَذهبًا ... بعِيسٍ إلى ريح الفَلَاةِ صَوَادى
مُخَيَّسةٍ بُزْلٍ تخَايَلُ فى البُرَى ... سَوَارٍ على طُول الفَلَاةِ غَوادى(٣)
وفى الأرض عن ذى الجَوْر منأًى ومذهبٌ ... وكل بلادٍ أوطنَتْ كبِلادى
وماذا عسى الحجاجُ يبلغُ جهدَه ... إذا نحن جاوَزْنا حَفِيرَ زياد
فبآستِ أبى الحجاج وآستِ عجوزه ... عُتَيِّدُ بَهْمٍ ترتعى بوهادِ(٤)

وقال فى عمر بن هبيرة الفزارى ، حين ولاه يزيد بن عبد الملك وعزل أخاه مسلمة بن عبد الملك .

ولَّتْ بمَسلَمةَ الركابُ مودِّعًا ... فارعَىْ فزارة لا هَنَاكِ المَرتَعُ

---

(١) شتيم الوجه كريهه . والشتيم أيضا الأسد العابس . ورد هنا صفة بمعنى جرىء . يفز الأسد أى يفزعها .

(٢) فى هذا البيت والبيت الذى يليه إقواء وهو معدود من عيوب القافية . فالدال هنا مضمومة ، وهى فى الأبيات السابقة مكسورة .

(٣) مخيسة محبوسة لاتسرح ، تعلف وهى فى أماكنها لا تبرحها لتسمن وتشتد . البازل من النوق التى بزل نابها أى ظهر . البرة حلقة توضع فى أنف البعير إذا كان عنيفا هائجا ثم تربط إلى حبل فاذا شد به البعير انقاد ولم يستطع المقاومة . تخايل فى البرى يكنى بذلك عن قوتها وشدة نشاطها .

(٤) عتيد مصغر عتود وهو الحولى من المعز .

ولقد علمتُ لئن فزارةُ أُمِّرَتْ   أن سوف تَطْمَعُ فى الإمارة أشجَعُ
إن القيامةَ قد دنَتْ أشْراطُها   حتى أميةُ عن فزارة تُنْزَع

ثم قال فيه :

أميرَ المؤمنين وأنت والٍ   شفيقٌ لستَ بالطبع الحريص(١)
أأطعمتَ العراقَ ورافدَيْه   فزاريًّا أحَذَّ يدَ القميص(٢)
ولم يك قبلَها راعى مخاضٍ   ليأمنَه على وَرِكَىْ قَلُوص
تفَيْهَقَ بالعراق أبو المثنّى   وعلَّمَ قومه أكلَ الخبِيص(٣)
ستَحمِله الدنيئةُ عن قليلٍ   على سِيسَاء زِعْلِبةٍ قَمُوص(٤)

وقال حين ولى خالد القسرى ، مشيرا إلى هدمه منائر المساجد ، وكان قد هدمها لصعود الناس إليها ونظر الناس إلى الجيران .

ألا قطع الرحمنُ ظهرَ مطيّةٍ   أتتنا تَمطَّى من دمشق بخالد
وكيف يؤمّ المسلمين وأُمُّـه   تدين بأن الله ليس بواحد(١)
بَنَى بِيْعَةً فيها الصليب لأمه   وهدَّم من كُفْرٍ منارَ المساجدِ

---

(١) الطبع الشديد الطمع .

(٢) رافداه دجلة والفرات . أحذ يد القميص ، لم يرد القميص وإنما أراد يده . أى لص قطعت يده فى الحد .

(٣) ابو المثنى كنية يكنى بها المخنثون من الرجال . الخبيص لون من الطعام يصنع من التمر والسمن . تفيهق فى كلامه تنطع وتشدق كأنه يملأ فمه به .

(٤) الدنيئة الفعل الخسيس . السيساء منتظم فقار الظهر من الفرس والحمار . القموص الدابة التى تقمص بصاحبها ، وذلك بأن ترفع يديها وتطرحهما وتعجن برجليها . الذعلبة الناقة السريعة يقصد بذلك أن دناءته ستحمله على مركب صعب .

(٥) كانت أمه نصرانية .

وقال فيه حين حفر النهر الذى سماه المبارك .

أهلكتَ مالَ الله فى غيرِ حقّه ... على نهرِكَ المشئومِ غيرِ المُبارَك

وتضربُ أقواماً صِحاحاً ظُهورُها ... وتترك حقَّ الله فى ظَهرِ مالكِ (١)

أإنفاقَ مالِ اللهِ فى غيرِ كُنْهِهِ ... ومنعاً لحقِّ المُرمِلاتِ الضَّوائك

وقال متشفيا فى جلده ، حين غضب عليه سليمان بن عبد الملك ، فأمر به أن يجلد ، وذلك لجلده رأس الحجبة — وكان قرشيا — فأخذت سليمان الحمية له ، وغضب حتى هم بقطع يده ، لولا شفاعة يزيد بن المهلب فيه .

لعمرى لقد صابَتْ على ظهر خالد ... شآبيبُ ما استَهْلَلْنَ من سَبَلِ القَطْرِ (٢)

أتَضرِبُ فى العِصيان تزعُمُ من عصا ... وتعصِى أميرَ المؤمنين أخا قَسْرِ ؟

وأنتَ ابنُ نصرانية طال بَظْرُها ... غذتك بأولاد الخنازير والخمر

فلولا يزيدُ بنُ المهلب حلَّقَتْ ... بكفيك فتخاء إلى الفُتْخِ فى الوكْر (٣)

لعمرى لقد سار ابنُ شَيْبَةَ سيرةً ... أرَتْكَ نجومَ الليل ظاهرةً تجرى (٤)

فخُذْ بيديك الحتفَ إنك إنما ... جُزيتَ قصاصاً بالمُحَدْرَجةِ السُّمْر (٥)

أظُنُّكَ مفجوعاً برُبْعِ منافقٍ (٦) ... تَلَبَّسَ أثوابَ الخيانةِ والغدر

---

(١) يقصد مالك بن المنذر بن الجارود . وكان بعض الناس قد أدّعى عليه قرية ، فأبطل خالد حقه .

(٢) الشآبيب الدفعات من المطر ينهل مرة بعد مرة ، وشؤبوبا بعد شؤبوب . انهلت السماء بالمطر واستهلت وهو صوت المطر . أسبل المطر انهل . والسبل المطر المسبل .

(٣) الفتخاء اللينة الجناح والفتخ فراخها . يقول له لولا شفاعة يزيد لقطع الخليفة يدك فتخطفتها العقبان تطعم بها صغارها .

(٤) ابن شيبة هو الحجبى الذى ضربه خالد مائة سوط لأنه لم يفتح له الباب وتغافل .

(٥) المحدرجة المفتولة . ويقصد بالمحدرجة السمر السياط .

(٦) ربع منافق يعنى يده وكأنها ربع جسده لأن للانسان يدين ورجلين ، فاذا قطعت منها يد فقد ربع أطرافه .

وقال فيه .

سلوا خالداً لا أكرم اللهُ خالدا   متى وليَتْ قسرٌ قريشا تَدِينُها
أقبلَ رسولِ الله أم بعدَ عهده   فتلك قريشٌ قد أغثَّ سمينُها
رجونا هداه لا هدى الله خالدا   فما أُمُّه بالأم يُهدَى جنينها

وبلغ من جرأة الفرزدق على الولاة ، أنه دخل على بلال بن أبي بردة ، فأنشده قصيدته المشهورة فيهم ، التي يقول فيها .

فإن أبا موسى خليل محمد   وكفاه يمنى للهدى وشمالها

فقال ابن أبي بردة : هلكتَ والله يا أبا فراس . فارتاع الفرزدق وقال : وكيف ذلك ؟ قال : ذهب شعرك . أين مثل قولك فى سعيد وفى العباس بن الوليد . — وسمى قوما — فقال الفرزدق : جئنى بحسب مثل أحسابهم حتى أقول فيك كقولى فيهم . فغضب بلال حتى دعى له بطست فيه ماء بارد ، فوضع يده فيها حتى سكن . ثم كلمه فيه جلساؤه وقالوا : قد كفاك الشيخ نفسه ، وقلما يبقى حتى يموت . فلم يحل الحول على الفرزدق حتى مات [١] .

ولكن هذا الغرور الجنونى والكبرياء الجامحة ، كان يقابلهما ضعف شديد عن احتمال المكاره والصمود للكفاح . فقضى الفرزدق حياته خائفا ، وكان شعره مزاجا من هذين المرضين الخطيرين — شعور بالعظمة وشعور بالرهبة والخوف . وخير ما يمثل هذا اللون من الشعر ، الذى هو مزاج من الشعور بالرهبة والشعور بالعظمة ، قوله وهو فى سجن خالد القسرى ، يتوسل إلى هشام أن يطلقه ويأمر بالعفو عنه :

دعوتُ أمينَ الله فى الأرض دعوةً   ليفرُجَ عن ساقٍ خيرَ الخلائف
فيا خير أهل الأرض إنك لو ترى   بساقٍ آثار القيودِ النواسف [٢]

(١) الأغانى ١٩ : ٣٥

(٢) النواسف التى قد نسفت الجلد والشعر .

إذاً لرجوتُ العفوَ منك ورحمةً ... وعدلَ امامٍ بالرعيـةِ رائف

فإن أكُ محبوساً بغير جريرة ... فقد أخذونى آمنًا غيرَ خائف

وما سنونى غيرَ أنّى ابنُ غالب ... وأنى من الأثْرَيْن غيرِ الزعانف (١)

وأنى الذى كانت تَعُد لثغرها ... تميمٌ لأبيات العـدوِّ المقاذف

وكم من عدوٍّ دونهم قد فَرَسْتُه ... إلى الموت لم يَسْطَعْ إلى السَّيم رائفِ

وإنى لأعداء الخنادف مِدْرَهٌ ... بذَحْلٍ غنىٍّ بالنوائب كالَفِ

لجامُ شجىً بين اللهاتـيْن من يقع ... له فى فم يركَبْ سبيل المتَالف

وإن غبتُ كانوا بين واوٍ ومحتبٍ ... وبين مغيبٍ قلبُه بالشَنَائف (٢)

وبالأمس ما قد حاذروا وقع صولتى ... فصيَّفَ عنها كلُّ باغٍ وقاذف (٣)

وقد علم المقرون بى أنّ رأسَه ... سيذهَب أو يُرمَى به فى النفَانف (٤)

أرى شعراء الناس ــ غيرى ــ كأنهم ... بمكة قُطَّانُ الحمام الأوالف

ولو كنت أخشى خالداً أن يروعنى ... لطِرْتُ بوافٍ ريشُه غيرَ جادف (٥)

كما طرتُ من مصرَىْ زيادٍ وإنه ... لتَصْرِفُ لى أنيابُه بالمتَالف

وما كنت أخشى أنْ أرى فى مخيَّس ... قصيرَ الخطا أمشى كمشى الرواسف (٦)

---

(١) الأثرين جمع الأثرى وهو الكثير العدد . أصل الزعانف أجنحة السمك ثم أطلقت على الدّعى الملصق الذى ليس بصريح النسب .

(٢) يقول إنهم ــ مع سابق صنيعى ــ إن غبت كانوا بين راوٍ لهجائى أو محتب يسمع ماهجيت به أو مضمر للشحناء . والشنائف البغضاء والفعل شنف له وشنفه .

(٣) صيف وصاف أى عدل عنها .

(٤) النفنف الجبل القائم كأنه الحائط . أو هو المهوى بين جبلين .

(٥) جدفه قطعه . وجدف الطائر طار وهو مقصوص الجناحين .

(٦) التخييس التذليل والمخيس السجن لأنه يذل .

أبيت تطوف الزُّطُّ حولى بجُلْجل   علىَّ رقيبٌ منهم كالمُحَالِف[1]

وقد كان الفرزدق لا يدعى إلى وال أو أمير إلا خاف وتوقع الشر . عبث به رجلان فقالا له : أجب . الأمير يدعوك — وهما يلعبان معه — فهرب وترك رداءه معهما . ثم قال فيهما :

وما كنتُ لو فَرَّقتمانى كلاكما   بأمكما عريانتَيْن لأفرقا

ولكنما فرقتمانى بضَيغَم   اذا ما رأى قِرْناً أبَنَّ ودقدقا[2]

وكان خوفه الشديد يلجئه فى كثير من الأحيان إلى التقرب من الشرط فيمدحهم بشعر غث ضعيف استجلابا لرضاهم [3] وهو بعد هذا كثير ذكر الخوف فى شعره . وخير ما يتصوره فى ممدوحيه من الفضائل ونبيل الصفات ، أنهم يؤمنون الخائفين . ولم تكد مدحة من مدائحه تخلو من طلب الأمان أو الحماية .

يقول لبشر من قصيدة يمدحه فيها .

لو أننى كنتُ ذا نفسَيْن قدهلكَت   إحداهما كانت الأخرى لمن غبرا

إذن لجئتُ على ما كان من وَجَلٍ   وما وجدتُ حذاراً يغلب القدرا

كلُّ أمرئٍ آمنٍ للخوف أمنَهُ   بشرُ بن مروان والمذعورُ من ذُعِرَا

ويقول فى مدح الوليد بن عبد الملك .

وكم من كريم يشتكى ضعفَ عظمه   أقمتَ له ما يشتكى بالسقائف[4]

وآمنتَه مما يخاف إذا أوى   إليك فأمسى آمناً غيرَ خائف

---

(١) الزط هم السبابجة وهم قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطى) وحراس سجن . الجلجل الجرس الصغير والجلجلة التحريك وشدة الصوت

(٢) أبن أقام . دقق سمع له صوت وجلبة .

(٣) الديوان ص ٦٦١ و ٨٧٦ .

(٤) السقائف الجبائر التى يوضع فيها العضو المكسور .

ويقول فى مدح سليمان بن عبد الملك .

سليمانُ غيثُ المُمحلين ومَنْ به عن البائس المسكين حُلَّتْ سلاسله

ويقول فى مدح يزيد بن عبد الملك :

ولا جارَ بعد الله خيرٌ من الذى وضعتُ إلى أبوابه رَحْلَ خائف

إلى خيرِ جارٍ مُستَجارٍ بحبله وأوفاهُ حبلا للطريد المُشارِف(١)

ويمدح المهلب فيقول :

كان المهلبُ للعراق وقايةً وحَيا الربيعِ ومَعْقِلَ الفُرّار(٢)

ويمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بقوله :

من يأت رابيَةَ الوليد ودِفئَها من خائف لجريرةٍ لا يُضْرَرِ

ويمدح أسد بن عبد الله القسرى لإنقاذه من سجن خالد فيقول :

رمى بى إليه الخوفُ حتى أتيته وقد يَمْنَعُ الحامى إذا ما تمنّعا

به حطم اللهُ القيودَ وأُومِنَتْ مخافةُ نفسٍ طومنَتْ أن تَفَزَّعا

فما يَحْيَ لا أخش العدوَّ ولا أزَلْ على الناس أعلو فى ذُرَى المجد مَفْرَعا

وشعر الفرزدق الذى صور فيه خوفه وحاله فى السجن من أروع الشعر وأجمله . يقول للوليد بن عبد الملك مصوراً خوفه من الحجاج .

وقد خفتُ حتى لو أرى الموتَ مُقبِلاً ليأخذنى والموت يكرهُ زائرُه

لكان من الحجاج أهونَ روعةً إذا هو أغضى وهو سامٍ نَواظرُه

أدِبُّ ودونى سَيْرُ شهر كأننى أراكَ وليلٌ مستحيرٌ عساكرُه(٣)

---

(١) المشارف الذى أشرف على الهلاك .

(٢) الحيا هو المطر .

(٣) عساكره ظلمته واستحارتها ثبوتها .

ذكرت الذى بينى و بينك بعد ما رمى بى من نجدَىْ تهامة غائرُه
فأيقنتُ أنى إن نأيتُكَ لم يرِدْ بى النأىُ إلاَّ كلُّ شىءٍ أُحاذره
وأن لو ركبتُ الريحَ ثم طلبتَنى لكنت كشىءٍ أدركَتْه مقادره
فلم أر شيئاً غيرَ إقبالِ ناقتى إليكَ وأمرى قد تعَيَّتْ مصادره
وما خاف شىءٌ لم يَمُتْ من مخافةٍ كما قد أسرَّت فى فؤادى ضمائره
أخاف من الحجاج سورةَ خَدِرٍ ضواربَ بالأعناق منه خَوادِرُه

ويقول مصوراً رهبة الحجاج فى نفوس الناس .

إذا مابدا الحجاجُ للناس أطرقوا وأسكَتَ منهم كلُّ من كان ينطق
فما هو إلا بائلٌ من مخافةٍ وآخر منهم ظَلَّ بالريق يَشْرَقُ
وطارت قلوبُ الناس شرقا ومغربا فما الناس إلا مُهْجِسٌ أومُلَقْلِقُ(١)

ويقول لمالك بن الجارود مصوراً حاله فى سجن خالد ، متبرئاً من هجائه

و إذا حُمِلْتُ إلى الصلاة كأننى عِبْءٌ يميلُ بعَدْلِهِ المعدُول
يمشى الرجالُ به على أيديهم لله دَرٌّ مقيَّدٍ محمُول
إن القِرَى سُجِنَتْ معى نيرانُه عن كلِّ نازل جَنْبَةٍ ودَخيل(٢)
قد كنتُ أُطعِمُهن كلَّ سمينه للطارقين بأسرع التعجيل
يامَالِ هل لكَ فى أسيرٍ قد أتَتْ تسعون فوق يدَيْه غير قليل(٣)
فتَجُزُّ ناصيتى وتفرجُ كُرْبتى عنى وتطلق لى يداكَ كُبولى(٤)

---

(١) الهجس الصوت الخفى تسمعه ولا تفهمه . اللقلقة اضطراب الصوت .

(٢) الجنبة الضيف الذى ينزل فى ناحية من البيت . والدخيل الضيف الذى ينزل داخل البيت .

(٣) يامال يخاطب مالك بن الجارود . مال ترخيم مالك .

(٤) يطلب منه الفرزدق أن يقص شعر رأسه ويطلقه . وجز الناصية عند العرب فيه معنى الإذلال . وكذلك كانوا يفعلون بأسراهم إذا منوا عليهم باطلاقهم .

يامال هل أنا مُهلكى مالم أقُلْ ... وليُعْرَفنَّ من القصائد قيلى

ويقول له من قصيدة يمدحه بها :

وكيف بمن خمسون قيداً وحَلْقَةً ... عليه مع الليل الذى هو أدهم

أبيت أقاسى الليلَ والقومُ منهمُ ... معى ساهرٌ لى لا ينامُ ونُوَّمُ

ولو أنها صُمُّ الجبال تحمَّلَتْ ... كما حملَتْ رجلاى كادَتْ تحطَّمُ

وعلَّمَنى مَشْىَ المقيَّدِ خالدٌ ... وما كنتُ أدنى خَطْوِه أتعلَّمُ

أقول لرِجلَىَّ اللتين عليهما ... عُرَى وحديدٌ يحبِسُ الخطو أبهَم

أما فى بنى الجارود من رائح لنا ... كما راح دُفَّاعُ الفرات المثَلَّمُ

ويقول أيضا مصوراً حاله فى سجن خالد ، متبرئاً من هجائه ، حين احتقر النهر الذى سماه المبارك من قصيدة يمدحه بها .

ألا تذكرون الرحمَ أو تُقْرِضوننى ... لكم خلُقاً من واسع الحلم ماجد

يقول لى الحدَّادُ هل أنت قائم ... وهل أنا إلا مثلَ آخر قاعد(١)

كأنى حَرُورِىٌّ له فوق كعبه ... ثلاثون قيداً من قُرُوضٍ مُلاكِدِ(٢)

وراوٍ علىَّ الشعرَ ما أنا قلتُهُ ... كمعترِضٍ فى الرمح دون الطرائد(٣)

ويقول من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك :

إذا قلتُ للحراس هل ليلتى دنَتْ ... من الصبح أو كانَتْ جنوحاً نجومُها

يقولون ما يَنْزلن إلا تنزُّلاً ... بطيئاً ومسودًّا علينا أديمها

فليت مكان الأربعين التى لها ... بساقَىَّ آثارٌ مبينٌ وُشُومُها

---

(١) الحداد السجان لأنه يحد الناس والحد المنع .

(٢) الحرورية الخوارج . قروص قيد يقرص ويعض فى الرجل . الملاكد الملازم

(٣) الطرائد جمع طريدة وهى ماطردت من وحش أو غيره . يشبه نفسه بالذى يعترض دون الطريدة فيصاب بالرمح خطأ وليس هو بالمقصود .

أخا نجدةٍ عندى أخوه فجعتُه به والمنايا جانباتٌ حتُومُها(١)

فنازلنى بالسيف عنه ودونه مع السيف خِضْبُ الأرض بادٍ شَكِيمُها

كان الفرزدق أعرابياً جافياً غليظ الطبع . وتبدو هذه الغلظة وهذا الجفاء فى فنه وفى حياته على السواء . أما فنه فالخشونة بادية فى ألفاظه وفى صوره . فالكلمات تبدو فى شعره قلقة متنافرة ، وكأنه يجمعها بقوته واقتداره ، شاءت أو لم تشأ . فهو يؤلف بينها متعسفاً ، وكأنه ينحت من صخر كما كان يقول النقاد القدماء فى تصويره . وقد كان يقول : أنا أشعر الشعراء ، وقد يأتى على وقت وقلع ضرس أهون على من بيت شعر . وذلك صحيح . ولكننا نضيف إليه أن الشعراء يدعون الإنشاء فى مثل هذه الأوقات ، حتى تصفو نفوسهم وتسخو قرائحهم . وهم يجعلون الرغبة فى قول الشعر هى الذريعة إلى إنشائه ، كما كان يقول أبو تمام فى وصيته للبحترى . أما الفرزدق ، فقد كان يمضى مكابرا ويجتلب الشعر من غير وجهه ، فيبدو وكأنه يقتلعه من نفسه اقتلاعا ، أو كأنه يقلع أضراسه على حد تصويره . ولذلك كثرت المعاظلة فى شعره . انظر إلى تراكب الألفاظ فى مثل قوله حين يتبرأ مما نسب إليه فى هجاء المبارك .

فلا رفعتْ إن كنتُ قلتُ التى رَوَوا علىَّ رِدائى حينَ ألبَسهُ يَدِى

يريد أن يقول : فلا رفعت يدى ردائى حين ألبسه إن كنت قلت التى رووا على .

وفى قوله يمدح يزيد بن عبد الملك .

فلا أمَّ إلا أمُّ عيسى علمتُها كأمكَ خيراً أمهاتٍ وأمجدا

---

(١) الحتوم جمع حتم بفتح الحاء وسكون التاء وهو القضاء . الجانب الذى لا ينقاد والغريب . وجانبه مشى إلى جنبه . الخضب بكسر الخاء وسكون الضاد نوع من الحيات أو ذكرها الضخم . الشكيم الأنفة والانتصار من الظلم . يقول ليت لى مكان هذه القيود فارسا ينازلنى ثائراً لأخيه الذى قتلته ففجعته به ، ينازلنى بسيفه ، ومن دونه حية ضخمة أبدت شراستها .

وفى قوله يمدح الوليد .

إلى ابن الإمامين اللذين أبوهما إمامٌ له لولا النبوةُ يُسجد

وفى قوله يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك .

تجاوزتَ عنهم فضلَ حلمٍ كما عفا بمَسْكَنَ والهندىُّ تعلو ذكورُها

أبوكَ جنوداً بعدَ ما مرَّ مصعبٌ تَفَلَّذَ عنه وهو يَدْعو كثيرُها

وانظر إلى الارتباك الذى يبدو فى رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج ابن يوسف ، وقد ماتا فى جمعة واحدة ، على مافى الأبيات من تضمين قبيح .

لئن صبرَ الحجاجُ ما من مصيبةٍ تكون لمرزوء أجلَّ وأوجعا

من المصطفى والمصطفى من ثقاتِه خليلَيْه إذ بانَا جميعاً فودَّعا

... فلاصبر إلاَّ دونَ صبرٍ على الذى رزئتَ على يوْمٍ من البأس أشنَعا

على ابنِكَ وابنِ الأُمِّ إذ أدركتهما الـ منايا وقد أفنَيْن عَاداً وتُبَّعا

وإلى قوله فى هجاء طىء .

وماطىء إلا مَجوسٌ كأنهم بهايم تعلو الأمهاتِ فحولُها

وما تلكم إلا مَجوسٌ نساؤها بناتُهم آباؤهن بُعولُها

وانظر إلى كثرة الضمائر وتراكبها واضطرابها فى قوله :

ولكن أبوها من لؤى بن غالب مناف له منها من المجد كاهلُه

ملوكٌ وأبناء الملوك أتتْهُم من الله بالفُرقانِ منه رسائلُه

وانظر إلى الالتواء المتعب ، الذى يجعل شعره أقرب للأحاجى والألغاز فى قوله يمدح جميل بن حمران الفزارى .

أنت ابنُ أم أمرئ تَنْمِى إذا نُسِبَتْ حيث انتمت بأبيها بنتُ حسانا

نالت به الشمسَ لو كادتْ تناوَلها بالمجد إن كان مجدٌ عندها كانا

لم يوهب الفرزدق ما وهب جرير من سلامة فى الذوق ، وامتياز فى الحس اللفظى ، فألفاظه كالصخر دائما ، ولذلك كان أكثر ما يصادفه التوفيق إذا افتخر . انظر إلى قوله فى قصيدته المشهورة (عزفت بأعشاش) حين يصور كرم قومه وقت الجدب ، كيف يصف العواصف العاتية ، فيخيل إلى السامع أن العالم قد أوشك على نهايته ، وأن الأرض قد زلزلت زلزالها ، وأخرجت أثقالها . فالسماء قد اغبرت آفاقها ، والرياح الحمراء تهجم على البيوت فى عنف فتنكشف ستورها . وذعرت النوق الضخمة التى امتلأ سنامها بالشحم ، فاندفعت تتبعها صغارها ، تقطع فى طريقها الحبال التى شدت إليها البيوت . وشغل عنها راعيها فى هذا البرد القارص ، فهو يباشر النار بصدره وبكفيه ، لا يتحرف عنها ، ولا يحس لذعها وحرارتها . وظهر نجم الشعرى فى السماء ، ينذر بشتاء شديد ، وجدب يتقشر منه وجه الأرض . وبدأت الثلوج تتساقط على أسنمة الإبل ، تعلوها كأنها قطن مندوف . وأجمد البرد الكلاب ، فاندفعت إلى النار تقاتل عنها أصحابها لتربض فيها . فإذا انتهى الفرزدق من هذا التصوير الرائع لشدة البرد ، وقسوة الجدب ، قال : فى مثل هذه الأزمات ، تجدنا أكرم الناس وأكثرهم بذلاً للضيفان :

إذا اغبرّ آفاقُ السماء وكشَّفَتْ ... كسورُ بيوتِ الحيّ حمراء حَرْجَفُ (١)
وهتّكت الإطنابَ كلُّ عظيمةٍ ... لها تامِكٌ من صادق النيّ أعرَفُ (٢)
وجاء قريعُ الشَّوْل قبلَ إفالِها ... يَزِفُّ وراحَتْ خلفَه وهى زفَّفُ (٣)

(١) آفاق السماء جوانبها . الكسور جمع كسر وهو ماوقع على الأرض من الخباء . الحرجف الريح الشديدة .

(٢) الأطناب الحبال التى يشد بها الخباء . التامك السنام العظيم ، النى الشحم . أعرف مرتفع .

(٣) القريع فحل الابل . الشول الابل التى جفت ألبانها . إفالها صغارها . يزف يعدو مسرعاً .

وباشرَ راعيهـا الصلا بلَبَانه وكفَّيْه حرَّ النار ما يتحرَّف (١)
وأوقدَت الشِعرى مع الليل نارَها وأمست مُحُولاً جلدُها يتوسَّف (٢)
وأصبحَ موضوعُ الصقيع كأنه على سَرَوات النِيب قطنٌ مُندَّف (٣)
وقاتل كلبُ الحيِّ عن نار أهله ليرْبِضَ فيها والصلا متَكَنَّف (٤)
وجدتَ الثرى فينا إذا يَبِسَ الثرى ومن هو يرجو فضلَه المُتَضَيِّف (٥)

هذا التوفيق العجيب الذى يصادف الفرزدق فى الفخر ، وفى تصوير مناظر الصحراء ، وحياة البدو ، يجافيه وينحرف عنه ، حين يتغزل أو يرثى أو يعرض لما يحتاج إلى الرقة من فنون الشعر . أنظر إلى جفاء غزله ، حين يطلب إلى صاحبته أن تديه لأنها قد قتلته ، فإن لم تفعل قتلها بالسيف .

فلم أر مقتولا ولم أر قاتلا بغير سلاح مثلها حين أقصدا
فإن لا تُفادى أو تديه فلا أرى لها طالباً إلا الحسامَ المهندا

وحين يهددها بالتخليد فى جهنم ، لأنها تسفك دمه بغير جريرة .

ياويح أُختِ بنى كنانة إنها لبخيلة بشفاء من لم يجزم
فلئن سفكتِ دمًا بغير جريمة لتُخَلَّدِنَّ مع العذاب الألأم

(١) الصلا النار . اللبان الصدر . يتحرف ينحرف عن النار ويحيد .

(٢) الشعرى نجم يطلع فى أول الشتاء . وأمست يعنى الأرض . محولا من المحل وهو الجدب . يتوسف يتقشر من الجفاف وقلة المطر .

(٣) سروات النيب أسنمتها . النيب مسان الابل .

(٤) الصلا متكنف اجتمع عليه الناس وقعدوا حوله .

(٥) الفرزدق متأثر فى بعض صوره ومعانيه بطرفة حيث يقول :

إنا إذا ما الغيم أمسى كأنه سماحيق ثرب وهى حمراء حرجف
وجاءت بصراد كأن صقيمه خلال البيوت والمنازل كرسف
وجاء قريع الشول يرقص قبلها من الدفء والراعى لها متحرف
ترد العشار المنقيات شطيها إلى الحى حتى يمرع المتصيف
تبيتَ إماء الحى تطهى قدورنا ويأوى إلينا الأشعث المتجرف

ولئن حملت دمى عليكِ لتحملِنْ ثقلاً يكونُ عليك مثل يلملم (١)

وإلى سوء اختياره للألفاظ ، مع تراكب العبارات ، فى قوله يرثى الحجاج

فلم أر يومًا كان أنكى رزيّةً وأكثرَ لطًا للعيون الذوارف
من اليوم للحجاج لما غدَوا به وقد كان يحمى مضلعات المكالِف

فاختياره لكلمة (لط) هنا ، على ما فيها من ثقل ، غير موفق . وسوء اختيار الفرزدق للكلمات ، وبلادة حسه اللفظى واضح فى اختياره لأسماء أولاده ، فقد سمى أحدهم خبطة ؛ وسمى الثانى سبطة ، وسمى الثالث لبطة . ولو أن الأسماء كانت شيئا يشترى ، لقد كان له عن هذه الأسماء مندوحة ولو أن عدوالهم أراد أن يلقبهم بأثقل الألقاب ، ما اختار غير الأسماء التى سماهم بها أبوهم .

وانظر إلى خشونة التصوير ؛ حين يشبه صاحبته لفرط حيائها بمن ألح عليه النزف ؛ أو أنهكه السل .

يشبّهْنَ من فرط الحياء كأنها مِراضُ سُلالٍ أو هوالكُ نُزَّفُ

وحين يتمنى لها ولنفسه أن يكونا بعيرين أجربين ، يخاف الناس عدواهما فيتركونهما منفردين ، ليعيشا فى عزلة سعيدين .

فياليتنا كنا بعيرَيْن لا نَرِدْ على منهلٍ إلا نُشَلُّ ونُقْذَفُ
كلانا به عرٌّ يخاف قرافُه على الناس مَطْلِيُّ المساعرِ أخشف (٢)

وانظر إلى بشاعة تصويره لكرم العباس بن الوليد بن عبد الملك ، حين

---

(١) يلملم جبل .

(٢) المعر بفتح العين الجرب ، القراف المخالطة ، المساعر أصول الفخذين والا باطين وهى أول ما يصيب الجرب ، أخشف ، يابس الجلد من الجرب ، مطلى المساعر أى مطلى بالقطران ، ولكثير أبيات شبيهة بهذه حيث يقول :

ألا ليتنا ياعزُّ من غير ريبة بعيرين نرعى بالخلاء ونعذب
كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما تنفك نرمى ونضرب

يقول إن الندى والجود قد صاحباه ، وقد تحالفوا على إغراق البشر — (وهو يقصد باغراق البشر) طبعا إغداق النعم عليهم .

إن الندى صاحبَ العباس حالَفَهُ والجودَ هم أخوةٌ قد أغرقوا البشرا

وانظر إلى خشونة ذوقه ، حين يمدح يزيد بن عبد الملك ؛ فيقول له إنك فعلت ما أعيا أباك :

تناولتَ ما أعيى ابن حربٍ وقبلَه وأعيى أباكَ الحازم المُتَخَيِّرا

وإنما يمدح الخليفة بأنه كريم ابن كرام ، شجاع ابن شجعان .

وانظر إلى جفاء ذوقه ، حين يصور لذع الخمر القوية ، وشدة تأثيرها فى الشارب فيقول :

شربنا فى بنى جُشَمِ بن بكر شرابا ليس من سَقَط المتاع

شراباً يضرِط الباسورُ منه ويذهب بالمُلَيْلَة والصداع[1]

وقد كان الفرزدق لجفاء طبعه بعيدا عن التأثر العميق بالإسلام ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم يرق طبعه الوحشى الفظ . فهو يعيش بشعوره وعواطفه فى الجاهلية ، يهجم على اللذة متهتكا ، ويفتخر بذلك ، ولا يبالى أن يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر ، فى بلد إسلامى ، يتحرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة ، وينكرونها أشد الإنكار . يقول فى نديم له اسمه (ديكل)

شربتُ ونادمت الملوكَ فلم أجد على الكأس نَدْمانا لها مثلَ دَيْكَل

أقلَّ مِكاساً فى جزورٍ سمينة وأسرعَ إنضاجاً وإنزالَ مِرْجَل

فتى كريم يهتز للمجد لا ترى نداماهُ إلا كل خرْقٍ مُعَذَّل[2]

عشية نَسينْا قَبيصَة نعلَه فبات الفتى القَيسىُّ غيرَ مُنَعَّل

---

(١) المليلة وجع الظهر .

(٢) الخرق الجواد . معذل يلام على إسرافه وتبذيره .

ويقول فى هجاء جرير :

إن تك كلباً من كليب فإننى ... من الدارميين الطوال الشقاشق (١)

تظلُّ ندامى للملوك وأنتم ... تمشُّون بالأرباق ميل العوائق (٢)

وإنا لتَجرى الخمرُ بين سراتنا ... وبين أبى قابوس فوقَ النَّمارق

لدُنْ غُدوةً حتى نروحَ وتاجُه ... علينا وذاكى المسك فوق المَفارِق

ويذهب مذهب الفتاك المتعهرين من شعراء الجاهلية ، أمثال الأعشى وامرىء القيس ، فيصف نزوله عند شيخ مسن ، وتظاهره أمامه بالتقوى ، حتى اطمأن إليه وضيفة ، ثم غلبه على زوجته :

نبثتُ عند الشيخ مُهراً يبيعه ... من ال الحرُون لم تُقطَّع أباجلُه

فلما أتيتُ الشيخَ يرجُف رأسُه ... وتُرعَدُ من بعد المشيب مفاصلُه

قرأت عليه سورةَ الكهفِ واقفًا ... ليأخذَ فيه الحلمُ والجهلُ شامله

وأطرقتْ إطراق الشجاع وشمَّرتْ ... عن الساقِ تشميراً رقيقًا ذلاذله (٣)

فما زلتُ حتى قال هل أنت نازلٌ ... فإنك ممن لا تُخاف غوائلُه

فلما انبَرتْ للغىِّ والشيخُ غافل ... من الخِدْر تُخفى شخصَها وتضائله

فقلت أبَرقٌ لاح فى مدلهمة ... من الليل أم رِيمٌ لطيفٌ أناملُه

فبت لها فى مَرْصدٍ كنت أدَّرى ... به الوحش لا يُخشَى علىَّ غوائلُه (٤)

ويهجو المهلب فيقول إن قومه عن الأزد كانوا ملاحين ، فهم نبط لم يعبدوا الأصنام فى الجاهلية :

فكيف ولم يأتوا بمكة مَنْسكا ... ولم يعبدوا الأوثان عند المُحَصَّبِ

(١) الشقشقه لهاة البعير يخرجها عند هيجانه .
(٢) الأرباق العرى التى تشد إليها البهم ، الواحد ربقة بكسر الراء .
(٣) الشجاع الثعبان .
(٤) أدَّرى به الوحش أتقيه .

ولم يَدْعُ داعٍ يا صباحا فيركبوا إلى الروع إلا فى السفين المُضَبَّب (١)

ويكرر ذلك فى قصيدة أخرى يهجوه بها :

وكيف ولم يقد فرسًا أبوكم ولم يحمل بنيه إلى الدوار (٢)

ولم يعبد يغوث ولم يشاهد بِحِمْيَر ما تدين ولا نزار

وما لله تسجد أَزدُ بُصْرى ولكنْ يسجدُون بكل نار

ويفتخر بظلمه للناس ، على طريقة الجاهليين ، فى مواضع كثيرة من شعره . ومن ذلك قوله :

إِذا مضرُ الحمراء حولى تعطَّفت علىَّ وقد دقَّ اللجام شكيمى

أَبَوا أن أسوم الناس الا ظلامةً وكنتُ ابنَ مرغام العدو ظلوم

وقوله :

بِخندفَ قبل الناس بيتان فيهما عديد الحصى والمأثرات العظائم

اذا ما هبطنا بلدةً كان أهلُها بها وُلِدوا يَظعَنَّ بها كلُّ جارم (٣)

لنا العزُّ مَنْ تحلُلْ عليه بيوتُنا يمُتْ غرقًا أو يحتمل أنف راغم (٤)

وقد اقترن جفاء الفرزدق بفتكه وفجوره ، فأنتج قدرا ضخما من الشعر الممعن فى الفحش والفظاظة ومجافاة الذوق فى آن معا . انظر إلى ما يقول هذا الرجل الغليظ القلب ، فى زوجته حدراء حين ماتت :

---

(١) يقول إنهم لا يعرفون إلا ركوب السفن . ولم يركبوا الخيل قط فى قتال حين يصيح الداعى يا صباحا .

(٢) الدوار على وزن كتان بفتح الدال الكعبة واسم لصنم . وقد تضم الدال وقد تخفف الواو فلا تشدد كما هى هنا فى البيت .

(٣) الظعن الرحيل . الجارم الذى ارتكب جرما . ويقصد به هنا الشديد الجرىء على الناس .

(٤) الرغام التراب . وأرغمه ألصقه بالتراب أى أذله . يحتمل أنف راغم يعنى يعيش ذليلا .

يقولون زُرْ حدراء والترب دونها ... وكيف بشيء وصلُه قد تقطّعا
ولستُ وإن عزّتْ عليّ بزائر ... ترابا على مَرْسومةٍ قد تَضَعْضعا
وأهْوَنُ مفقودٍ إذا الموتُ ناله ... على المرءِ مِن أصحابه من تَقَنّعا
وأهونُ رُزْءٍ لامرئٍ غير عاجزٍ ... رزيّة مرتجِّ الروادف أفْرعا

وانظر إلى ما يقول هذا الرجل الفظ المفحش ، فى رثاء جارية كانت قد حملت منه ، ثم لم تلبث أن ماتت :

وغمدِ سلاح قد رُزِئتُ فلم أنح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفى جوفه من دارم ذو حفيظةٍ ... لو انّ الليالى أنسأته لياليا
ولكن رأيتُ الدهر يعثُرُ بالفتى ... ولا يستطيع ردّ ما كان جائيا
وكم مِثْله فى مثلها قد وضعتُه ... وقد كنتُ وثّابا أجرُ الدواهيا
ولكن وقانى ذو الجلال بقُدْرَةٍ ... شرورَ زوانى الناسِ إذ كنتُ زانيا

والفحش شىء أصيل فى طبع الفرزدق . فهو ولوع بالتفصيل العارى عن الاحتشام ، وكأنه يجد لذة فى استعادة تجاربه ، وجر الناس إلى المشاركة فى التمتع بعرضها . يقول من قصيدة يمدح بها هشاما ، ويختم الغزل فيها بقوله:

مشَيْنَ إلىّ لم يُطْمَثْن قبلى ... وهُنَّ أصحّ من بَيْض النعام(١)
فبِتْنَ بجانبىَّ مُصرَّعات ... وبتُّ أفض أغلاقَ الختام

وليس الفحش وحده هو الذى يسترعى النظر فى مثل هذا الشعر ، ولكنا نلاحظ فيه أيضا أنه يذهب فيه مذهب الفتك والهجوم على اللذة .

يمدح يزيد بن عبد الملك ، فيقدم لمدحه بمقدمة طويلة تستغرق ثلاثين بيتا ، وهى من أفحش الغزل تفصيلا ، وأكثره إمعانا فى التدقيق العارى

(١) الطمث افتضاض البكارة .

المتحلل من كل القيود الأخلاقية . يبدأها بقوله :

وآلفةٍ بَرْدَ الحجال احتَوَيتها وقد نام من يُخشى عليها وأصحرا[1]

بل هو يحض الناس على الفجور ويدلهم على سبيله فى قوله :

عليكَ الدَوّ إن بمستواه نساء الجنّ فى البلد الرقاق[2]

فتنكح ما اشتهيتَ بغير مَهْرٍ ولا عَدْوَى عليكَ ولا صَداق

وبينما نجد جريرا يبكى حين تمر به جنازةوهو يملى بعض شعره ، فيقطع الإملاء وقد أخذته رهبة الموت ، نجد الفرزدق يقول للحسن البصرى ، وقد اجتمع به فى جنازة فسأله : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فيجيبه : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة . وقد كان يبدوللفرزدق فى بعض الأحيان أن يتكلف النسك ، ويحمل نفسه على طريق الصالحين من أهل العبادة ، فيقول فى ذلك شيئاً من الشعر . ولكن قارىء هذا الشعر لا يجد فيه أثرا لخشوع أو إيمان ، بل هو يكاد يستفزه للضحك ، وكأن فيه شيئاً يشبه التهاون الساخر ـ وإن كان غير مقصود ـ يقول يوم لقيه الحسن البصرى فى الجنازة .

لقد خاب من أولاد دارم من مشى إلى النار مشدودَ الخناقةِ أزرقا

إذا جاءنى يومَ القيامةِ قائدٌ عنيفٌ وسوّاقٌ يسوق الفرزدقا

أخاف وراء القبر إن لم يُعافنى أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا

إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم يذوبون من حر الصديد تمزُّقا

هذا شعر مضحك بقافيته القافية ، وبهذه القافات التى يستكثر منها فى ثنايا البيت ، فتجعله كقحقحة الدجاج الذى يتهيأ للبيض ، وبهذهالصورة التى يتخيل فيها الفرزدق ألوان العذاب ، من شد الخناق ، والقائد العنيف ، والسواق الذى (يسوق الفرزدقا) ، إلى آخر هذه الأخيلة . التى تصور رجلا يتكلف الخشوع ويحمل نفسه عليه حملا .

---

(١) الديوان ص ٤٢٧–٣٢١

(٢) الدَّوّ : الصحراء ،

وانظر بعد هذا إلى قصيدته التى يهجو فيها إبليس ويبدأها بقوله :

أطعتُك يا ابليس سبعين حِجَّةً فلما انتهى شيبي وتَمَّ تَمامى
فررتُ إلى ربى وأيقنت أننى مُلاَقٍ لأيام المَنون حِمامى

فهى أبعد الأشياء عن مجانه . وكأنه كان ينطق فيها بلسانه ، كما قال له الحسن البصرى حين ذهب إليه فقال له إنى هجوت إبليس فاسمع . قال — لا حاجة لنا بما تقول . قال — لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس . قال له الحسن اسكت فإنه بلسانه تنطق[١] .

وبعد ، فقد كان الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذى استطاع أن يصمد لجرير من بين كل معاصريه ، وأن يكيل له بمثل كيله . وهو وإن لم يستطع أن يبلغ مبلغه فى هدوء الأعصاب ، وامتلاك النفس ، وذكاء القلب ، فقد استطاع أن يدانيه من وجوه كثيرة . فمن ذلك براعته فى خلق الصور وابتكارها ، والتمادى فى توليدها والكشف عن أجزائها ، حتى تبدوا واضحة مشرقة من كل نواحيها . يقول لجرير معيرا ذلة عماته وخالاته ، وابتذالهن فى رعى الغنم ، ويتهمهن بعبد من الرعاة اسمه يسار :

كم عمّةٍ لك يا جريرُ وخالةٍ فَدْعاءَ قد حلبَتْ علىَّ عِشارى[٢]
كنا نُحاذِرُ أن تَضيع لِقاحُنا وَلَهًا إذا سمعَتْ دعاءَ يسار[٣]
شغَّارةٍ تَقِذُ الفصيلَ برجلها فَطّارةٍ لقوادِمِ الأبْكارِ

(١) الأغانى ١٩ : ١٤ والديوان ص ٧٧٠

(٢) الفدع خروج مفصل الابهام مع ميل فى القدم قليل، يعيره بأنها راعية لأن الرعى فى الرجال خاصة .

(٣) يسار اسم راع ، يقول إذا سمعت هذه المرأه دعاء الراعى تركت الابل وذهبت اليه .

(٤) الشغارة التى تشغر الفصيل برجلها إذ دنا من أمه ليرضع ، الفطارة من الفطر وهو الحلب بالسبابة والوسطى مع الاستعانة بطرف الابهام ، والقوادم جميع القادمين وهما خلف الضرع ، ويقال إن الابكار تحلب فطراً لأنه لا يمكن حلبها ضبا لقصر الخلف والضب الحلب بأربع أصابع مع الاستعانة بالابهام ، أو الحلب باليدين جميعاً .

كانت تُراوحُ عاتقَيْها عُلْبَةً   خلفَ اللقاح سريعةَ الإدرار[1]

ويقول فى قوم من بنى يربوع نزل بهم فلم يعطوه إلا فصيلا .

ألا قَبَح اللهُ القلوصَ التى سرَتْ   برجلى إلى خصيىْ عِدَان المُمَهَّل

تجمَّعتُم لى فى فصيلٍ كأنما   تجمعتُمُ لى فى أغرَّ مُحجَّل

ويقول لمالك بن الجارود :

لعمرك ما أشبهتَ جدَّكَ مالكاً   ولا جدَّكَ الجارودَ ياعَصَبَ الكاب

وما مالكٌ إلا عجوزٌ كبيرةٌ   مُضَبَّبَةُ الأسنان تَزحَفُ فى الرَّكْب

ويقول لرجل من جيرانه :

قُعودُكَ فى الشَّرْب الكرام بَلِيَّةٌ   ورأسُكَ فى الإكليلِ إحدى الكبائر

فما نطفَتْ كأسٌ ولا طاب طعمُها   ضرَبْتَ على حافاتِها بالمَشَافِر

ومن الهجاء الذى يعتمد على السخرية قوله فى هجاء طىء :

ولو أنّ عصفوراً يمدُّ جناحَه   على طىء فى دارها لاستظلّت

وقوله فى هجاء رجل اسمه صالح بن كدير ؛ وقد دخل عليه فوجد بين يديه دراهم منثورة ، فسأله إياها ، فتنق له صنارها :

يقولون صَبِّحْ صالحًا فاستغِثْ به   وما صالحٌ ريحُ الخُروءِ بصالحِ !

وقوله يهجو محمد بن جرير بن عبد الله البجلى :

تَنَحَّ أهانَ اللهُ مَثْواكَ خاسئاً   عن اسمِ نَبِيٍّ المسلمين محمَّدِ

وقوله فى هجاء رجل من بنى نهشل :

فمِعْزَاكَ أَصلِحْها التِّلادَ فإنهما   سناؤكَ فيها أن تَنِبَّ وترضعا

---

(١) العلبة قدح ضخم من جلود الابل أو من الخشب يحلب فيها ،

سيأتى ابنَ مسعودٍ على نأى داره ثناءٌ إذا غـنّى به الركب أقذعا(١)

وقوله فى هجاء رجل من قومه أقرضه مائة درهم ، ثم ألح فى طلبها حتى دفعها إليه ، وبراعة السخرية هنا تستند إلى الواقعية التى تحكى أسلوب عامة الناس فى مألوف حديثهم .

أفى مائةٍ أقرضتَها ذا قرابةٍ على كلّ بابٍ ماءُ عينِك يَدْمَعُ ؟

تسيلُ مآقيكَ الصَّديدَ تلومنى وأنت أمرؤٌ قَحْمُ العِذارَيْنِ أصلعُ

فدونَـكها إنى أخالُكَ لم تزَلْ لدُنْ خرجَتْ من باب بيتِكَ تلْمَعُ

تنادى وتدعو اللهَ فيهـا كأنما رُزِئت ابن أُمٍّ لم يكن يتضعضع

وقريب من هذا الأسلوب ، قوله يتهكم بالأنصار ، حين تحداه رجل منهم أن يقول مثل شعر حسان :

وبالله لولا أن تقولوا تكاثرتْ علينا تميمٌ ظالمين وأسرفوا

لما تركتْ كفٌّ تشير بإصبعٍ ولاتركتْ عينٌ على الأرض تطرف

والفرزدق إن كان ينصرعن جرير فى الهجاء الشخصى ، فهو يتفوق عليه تفوقا ظاهراً فى الهجاء الاجتماعى ، الذى يبدو فيه أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً فالدارس للحياة الاجتماعيه فى ذلك العصر ، يستطيع أن يجد صورة منها فى شعر الفرزدق ، هى أوضح بكثير مما يستطيع استخلاصه من شعر جرير . فقد استطاع الفرزدق أن يصور فساد الحكم وتجبر الولاة ، وظلم الجباة ، وانتشار الرشوة . وتأثر الحكام بالعصبية القبلية . وقدم لنا صورا واضحة للسجون فى ذلك العصر ، فبينما كانت عين جرير النقادة لاتقع إلا على الأفراد من الناس ، كان الفرزدق يقف من عصره موقف الرقيب ، الذى يفتح عينه على كل ماحوله من أحداث ، لينهال بسوطه على المنحرفين عن جادة الصواب

---

(١) نبيب التيس صياحه عند الفساد ، يسخر به قائلا سيأتيك ثناء ولكنه ثناء مقذع

الموالى والهجـــاء

عرفت الدولة الأموية بتعصبها لعنصر العرب ولـكل ماهو عربى ، والاستخفاف بمن عداهم من سائر الأجناس . وبينما كان العرب ينظرون إلى هذا السيل من الموالى ، الذى يتدفق عليهم مع الفتوحات ، أسرى من الرجال والولدان ، وسبايا من الجوارى والإماء ، نظر الغالب إلى المغلوب ، كان هؤلاء الموالى ينظرون إليهم فى شىء من الحقد والاستخفاف . فالعرب من ناحيتهم لا يؤمنون إلا بالقوة . عليها وحدها كانت تدور حياتهم ، وفيها وحدها تركزت كل مثلهم وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية ، فهم لا يرون هذا الخليط من الأسرى والإماء إلا عبيدا أرقاء . قد أباحهم السيف لهم ليسخروا فى لذاتهم ولهوهم . والموالى - ومعظمهم من الفرس - لا يرون العرب إلا بدوا جفاة قد أتاهم الملك عفوا ليس فى قديمهم ما يؤهلهم لسيادة أو تدبير سياسة : وإنما هو الحظ ومحض الصدفة قد أسعدهم ، فقضى لهم الغلبة ، ونكب هذه الأمم العريقة ، فقضى عليها الذل والاستعباد .

ولم يكن بد لهذه الجيوش الجرارة من الموالى من أن تعيش وتلتمس طريقها للحياة ، وتستر هذه الحسرة اللاذعة ، وهذا الحقد الدفين بستار من الرياء . فاتخذ بعضهم صناعة الغناء ، وكسب مكانه بالزلفى والملبة على قلوب هؤلاء البدو ، الذين بهرتهم الألحان الجديدة المتقنة ، وما يصاحبها من آلات موسيقية لا عهد لهم بمثلها . ولم تكن فتنتهم بهذه الطائفة نفسها من مغنين ومغنيات ، بأقل من فتنتهم بألحانهم الجديدة وموسيقاهم . فقد كانت هذه الطائفة تنشر البدع الجديدة فى أساليب الحياة الاجتماعية ، فى نفس الوقت الذى تفتن فيه الناس بهذا البدع الجديد من ضروب الغناء .

فهذا هو ابن سريج يخفى صلعه بُجمَّة مركبة ، ويخضب أطراف أصابعه

بالحناء ، ويلبس الثياب المصبغة ، ويسير فى الطرقات عابثا ، يجر وراءه جرادة قد شد رجلها بخيط ، يطيرها ويجذبها كلما تخلفت عنه . وهو يصحب طبقة المترفين من أشراف العرب فى مواسم الحج ، يتعرضون للنساء فى طوافهن . يحج مرة مع عمر بن أبى ربيعة على نجيبين ، رحالتا هما ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيبين . ويحج معه مرة أخرى ، وقد ركب عمر نجيباً مخضوبا بالحناء مشهر الرحل بقراب مذهب ، وركب ابن سريج بغلة شقراء ، ومعه غلام له يقود فرساً أدهم أغر محجلا ، فى عنقه طوق ذهب ، ومع عمر جماعة من حشمه وغلمانه ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية ، وعلى ابن سريج ثوبان هراويان مرتفعان(١) .

وهذا هو حنين الحيرى ، يتخذ الأزياء الفارسية الزاهية الألوان ، فيغنى عند بشر بن مروان وعوده فى حجره ، وعليه قباء زاهى اللون ، وجبة واسعة من الفرو الأحمر طويلة الكم تتذبذب يداها ، وخفان موشيان(٢) . وهذا هو الغريض ، يُصنّع نفسه ويُبرّقها ــ كما يقول صاحب الأغانى(٣) ــ حين يغنى ، فيضرب بالعود ، وينقر بالدف ، ويوقع بالقضيب ، فيفتن الناس بغنائه وبوضاءة وجهه وحسن زيه .

افتتن العرب بهذه الطبقة من الموالى التى اتخذت الغناء ، حتى لقد وقف ابن عائشة يغنى فى الموسم ، فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكادت الفتنه أن تقع ، فجىء به إلى هشام بن عبد الملك فقال له ، ياعدو الله ! أردت أن تفتن الناس ؟ فأمسك ابن عائشة عنه ، وكان تَيَّاها . فقال له هشام: أرفق بتيهك ! فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياها . فضحك وخلى سبيله(٤) . ولم يسلم الفقهاء ورجال الدين

---

(١) الأغانى ١ : ٤٤٩ — ٢٧٤
(٢) الأغانى ٢ : ٣٥٠
(٣) الأغانى ٢ : ٣٦٠
(٤) الأغاني ٢ : ٢٠٨

ـ وهم أكثر الناس تحرجا ـ من هذه الفتنة . روى صاحب الأغانى أن الأوقص المخزومى ولى قضاء مكة، فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله . فأنه لنائم ليلة فى جناح له ، إذ مر به سكران يتغنى .

عوجى علينا ربة الهودج

فأشرف عليه فقال : ياهذا ، شربت حراما ، وأيقظت نياما ، وغنيت خطأ . خذه عنى . . . . ثم أصلحه له . وبلغ من فتنة الناس بهم أنهم كانوا يحتفلون بمقدمهم ! فيجتمعون لاستقبالهم بما لا يجتمع لمثله خلق فى استقبال أمير أو خليفة . قدم حنين الحيرى على الحجاز ، حين دعاه إليها مغنوها الثلاثة المشهورون ـ ابن سريج والغريض ومعبد ـ فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره ، فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوما كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . ودخلوا منزل سكينة بنت الحسين ، فلما دخلوا إليها أذنت للناس أذانا عاما ، فضاقت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح فسقط الرواق على من تحته . ومات حنين تحت الردم[١] .

هذه طائفة من الموالى ، قد ابتغت الوسيلة للظهور والثراء بالغناء ، وانتقمت بسلاح المستضعف الذى يغزو القلوب والجيوب ، حين يعجز عن مواجهة الخصم . ويمكننا أن نضيف إلى هذه الطائفة أشعب وأضرابه من المهرجين ، الذى يكسبون مكانتهم بحركاتهم الجسمية ونوادرهم البارعة . فقد مرن أشعب على ألوان من الحركات العجيبة ، فكان يغضّن وجهه ويشنجه ، حتى يصير عرضه أكثر من طوله ، ويصير فى هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم يرسل وجهه ويطوله ، حتى يكاد ذقنه أن يجوز صدره ، ثم ينزع ثيابه ويتحادب فيصير فى ظهره حدبة كسنام البعير ، ويصير طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم يقوم فيتطاول ، حتى يصير أطول مايكون من الرجال[٢] . وكان مع هذا من أكثر الناس نادرة ، وأحسنهم فكاهة ، وأجودهم أداء للغناء .

(١) الأغانى ٢ : ٣٥٥ (٢) الأغانى ١٧ : ٩٥

وطائفة أخرى من الموالى قد انصرفت للدين ودراسة القرآن والفقه، كالحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعة الرأى وابن جريح[١]. وهؤلاء قد انصرفوا للعبادة، فأذهب الإسلام غيظ قلوبهم، وبرأهم مما اتسم به جنسهم من الحقد على العرب والكيد لهم.

وطائفة ثالثة اتخذت الشعر وبرعت فيه، فأتاح لهم نبوغهم شيئا من النفوذ. احترف بعضهم السياسة. فتعصب لهذا الفريق أو ذاك من الأحزاب العربية، كالذى يروى من تعصب سديف لبنى هاشم، وتعصب شبيب لبنى أمية[٢] ومناصرة أبى العباس الأعمى للأمويين[٣] وانقطاع اسمعيل ابن يسار لآل الزبير.[٤] وكان هؤلاء الشعراء فى معظمهم منافقين، لم يعتنقوا هذا المذهب أو ذاك عن عقيدة أو إيمان، فالعرب عندهم سواء لا يحملون لهم إلا البغض والازدراء، ولكنهم يلتمسون السبيل للظهور، بما يتكلفون من تصنع الولاء والإخلاص لأصحاب النفوذ. وخير ما يصور علاقتهم بهذه الأحزاب العربية، ما يروى صاحب الأغانى من قدوم إسمعيل بن يسار على الغمر بن يزيد بن عبد الملك — وكان قد تحول إلى الأمويين بعد قتل ابن الزبير وإفضاء الملك إليهم — استأذن اسماعيل على الغمر فحجبه ساعة، ثم أذن له، فدخل يبكى، فقال له الغمر — مالك يا أبا فائد تبكى؟ قال وكيف لا أبكى، وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أحجب عنك؟ فجعل الغمر يعتذر إليه، وهو يبكى، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر. وخرج من عنده، فلحقه رجل فقال له: أخبرنى ويلك يا إسمعيل، أى مروانية لك ولأبيك؟ قال — بغضنا إياهم. امرأته طالق، إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له قل لا إله إلا الله، فقال لعن الله مروان،

---

(١) ضحى الاسلام ١ : ٢٧

(٢) الأغانى ١٤ : ١٦٢

(٣) الأغانى ١٥ : ٥٩

(٤) الأغانى ٤ : ٤٠٨

تقربا إلى الله تعالى وإبدالا له من التوحيد ، وإقامة له مقامة [١] وقد كان اسمعيل هذا شعوبيا شديد التعصب على العرب ، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا . وكذلك كان ابنه إبراهيم . [٢] دخل إسمعيل على هشام بن عبد الملك في خلافته ، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصر ، فاستنشده — وهو يرى أنه سينشده مديحا له — فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم .

يا ربع مية بالعلياء من ريم   هل ترجعن إذا حييت تسليمى

إلى أن انتهى إلى قوله .

إنى وجدك ما عودى بذى خور   عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به   ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب   من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجح سادة بلج مرازبة   جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معاً   والهرمزان لفخرٍ أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا   وهم أذلوا ملوك الفرس والروم
يمشون في الحلق الماذى سابغة   مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألى تنبى بأن لنا   جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام وقال : يا عاض بظر أمه ، أعلى تفخر ؟ وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطوه في الماء ! فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج . ثم أمر بإخراجه وهو بشر حال ، ونفاه من وقته ، فأخرج عن الرصافة منفيا إلى الحجاز [٣] . ومما يصور نفاق هذه الطائفة من الموالى في

---

(١) الأغانى ٤ : ٤١٠   (٢) الأغانى ٤ : ٤١١ و ٤٢٧
(٣) الأغانى ٤ : ٤٢٢

علاقتهم بسادتهم، ما يروى الطبرى، من أن الوليد بن يزيد لما اشتد به الضيق واخذه الثوار من كل مكان، قال - من جاء برأس فله خمسمائة. فجاء قوم بأرؤس، فقال الوليد : اكتبوا أسماءهم، فقال رجل من موالية ممن جاء برأس : يا أمير المؤمنين، ليس هذا بيوم يعمل فيه بنسيئة [1].

وآثر بعض الشعراء من الموالى أن يبتعد عن السياسة ومغامراتها، وما تجر على محترفيها من مكاره، فكسبوا مكانتهم بهجاء الناس. وهؤلاء كثير، منهم الحزين الكنانى، وفيه يقول أبو الفرج : كان هجاء خبيث اللسان ساقطا يرضيه اليسير، ويتكسب بالشر وهجاء الناس. [2] ومنهم ابن الخياط، كان ما جنا خليعا هجاء خبيث اللسان. [3] ومنهم ابن ميادة، كان عريضا للشر يطلب مهاجاة الشعراء ومسابة الناس. وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول :

اعرَنْزِمى ميَّادُ للقوافى ــ واستمعيهن ولا تخافى ـ ستجدين ابنك ذا قِذَافِ [4]

ومنهم أبو عطاء السندى [5]. ومنهم زياد الأعجم [6]. ومنهم يزيد بن مفرغ الذى اشتهر بأهاجيه فى آل زياد، وصلابته فى احتمال أذاهم، وصبره على اضطهادهم [7].

وقد كان كثير من هؤلاء الشعراء لا يكتمون تعصبهم لقومهم، وتهكمهم بكل ما هو عربى، حتى لقد غلب عليهم الاستهتار، وروى عن بعضهم ما يصور الاستخفاف بالإسلام، وكأنهم لم يروه إلا مذهبا سياسيا، قد أتاح للعرب هذا النفوذ العريض، الذى قوض دولتهم، وجعلهم فى هذا المكان من الذل والاستعباد.

فمثال تعصبهم قول ابن ميَّادة، وكان بن أم ولد - [8].

---

(١) الطبرى ٥ : ٥٥٦
(٢) الأغانى ١٤ : ٧٦
(٣) الأغانى ١٨ : ٩٤
(٤) الأغانى ٢ : ٢٦٣
(٥) الأغانى ١٦ : ٨١
(٦) الأغانى ١٤ : ١٠٢
(٧) الأغانى ١٧ : ٥١
(٨) الأغانى ٢ : ٢٦٢

أنا ابن أبي سلمى وجدي ظالم ... وأمي حصان أخلصتها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم ... بأكرم من نيطت عليه التمائم

وقوله:

لنا الملك إلا أن شيئاً تعده ... قريش ولو شئنا لداخت رقابها
وإن غضبت من ذا قريش فقل لها ... معاذ الإله أن أكون أهابها

وقوله:

فضلنا قريشا غير رهط محمد ... وغير بني مروان أهل الفضائل

وقد لقيه إبراهيم بن إسمعيل فقال له ـ أنت فضلت قريشا ؟ وجرده وضربه أسواطاً [١].

ومن أمثلة هذا التعصب كذلك ما يروى من أن زيادا الأعجم كان يخرج وعلية قباء ديباج تشبها بالأعاجم ، حتى لقد مر به يزيد بن المهلب ذات يوم وهو على حاله تلك ، فأمر به فقنع أسواطا ومزق ثيابه قائلا . والترك تتشبه لا أم لك ؟ [٢].

أما استهتارهم ومجافاتهم للإسلام فالأمثلة عليه كثيرة . كان زياد الاعجم عند عمر بن عبد الله بن معمر بفارس . وقدم عليه غزال بن محمد الفقيه من مصر ، فكان غزال يحدثه بحديث الفقهاء ، فقال زياد :

يحدثنا أن القيامة قد أتت ... وجاء غزال يبتغي المال من مصر
فكم بين باب الترك إن كنت صادقاً
وإيوان كسرى من فلاة ومن قصر

ومر به يزيد بن حبناء الضبي وهو ينشد هجاء مفحشا ، فقال له : ألم يأن

---

(١) الأغاني ٢ : ٢٩٤ و ٣٣٠ (٢) الأغاني ١٤ : ١٠٤

لك أن ترعوى وتترك تمزيق أعراض الناس ؟ ويحك حتى متى تتمادى فى الضلال ؟ كأنك بالموت قد صبحك أو مساك . فهجاه زياد بقوله : (١) .

يحذرنى الموتَ ابنُ حبناء والفتى إلى الموت يغدو جاهداً ويروح
وكل امرىء لا بد للموت صائر وإن عاش دهراً فى البلاد يسيح
فقل ليزيد ياابن حبناء لا تعظ أخاك وعظ نفساً فأنت جَنُوح
تركت التقى والدين دين محمد لأهل التقى والمسلمين يلوح
وتابعت مُرَّاقَ العراقين سادرا وأنت غليظ القُصْرَيَيْن صحيح (٢)

وروى الزبير بن بكار أن أباه ولى الحجاز ، فألزم ابن الخياط حضور الصلاة مع الجماعة ، فجاء ابن الخياط وأنشده :

قل للأمير يا كريم الجنس يا خير من بالغور أو بالجلس
وعدُّتى لولدى ونفسى شغلتنى بالصلوات الخمس

فقال له ـ ويحك . أتريد أن أستعفيه لك من الصلاة ؟ والله لا يعفيك وإن ذلك ليبعثه على اللجاج فى أمرك ثم يضرك عنده . فمضى وقال ـ نصبر إذن حتى يفرج الله تعالى ! (٣) وقد حد ابن الخياط فى الخمر ، جلده مالك ابن أنس . فلما ولى ابن سعيد القضاء بالمدينة قال فيه . (٤)

بَكَّتَنِى الناسُ لأنْ جُلدتْ وسْطَ الرَّحبَةْ
وأننى أزنى وقد غنيت فى المحتسِبَة (٥)
أعزف فيهم بعصا ابـ ن مالك المقتَضَبَة

(١) الأغانى ١٤ : ١٠٧
(٢) السادر المتحير والذى لا يبالى ما صنع . القصريان ضلعان يليان الترقوتين .
(٣) الأغانى ١٨ : ٩٧ (٤) الأغانى ١٨ : ٩٩
(٥) المحتسبة طائفة من الشرطة يمشون فى الطرقات لمراقبة الناس وأخذ المستهترين والمخالفين .

فقلت لما أكثروا عليّ فيم الجلبة
ذا ابنُ سعيدٍ قد قضى وحالُنا مقترِبة
لا بل له الفضيل فيما لم أنَلْ والغلبة
بحسنِ صوت مطرب وزوجةٍ مُعتصبَة

وكان الحزين الكنانى مدمنا للشراب فاسد الدين . وفد على عبدالله بن عبد الملك فقال له : أى الرقيق أعجب إليك ؟ قال : ليخترلى الأمير . فاختار له عبدالله أحدهم وقال : قد رضيت لك هذا ، فإنى رأيته حسن الصلاح . فقال الحزين : لا حاجة لى به فأعطنى أخاه . فأعطاه إياه (١) .

وكان بعض هؤلاء الشعراء - على مكانتهم فى الشعر - لا يفصحون ولا يحسنون النطق بالعربية . كان أبو عطاء السندى يجمع بين لثغة ولكنه فلا يكاد يفهم كلامه . كان يقول (مرهبا مرهبا هيا كم الله) يقصد : مرحبا مرحبا حيا كم الله . وكان يقول (زز) يعنى زُجّ . و (زرادة) يعنى : جرادة . ويقول (أزن) يعنى : أظن . ويقول (بنو سيطان) يعنى : بنو شيطان . وكان الناس يسمعونه فيكتمون الضحك ولا يجسرون على إظهاره خوفاً من شره (٢) . أتى سليمان ابن سليم فأنشده :

أعوزَتْنى الرُّواةُ يا ابن سُلَيم وأبى أن يُقيمَ شعرى لسانى
وغلا بالذى أُجَمجِمُ صدرى وجفانى لعجمتى سلطانى
وازدرتنى العيون إذ كان لونى حالكاً مُجتوًى من الألوان
فضربت الأمور ظهراً لبطنٍ كيف أحتال حيلة للسانى
وتمنيت أننى كنت بالشعـ ـر فصيحاً وبان بعض بيانى

(١) الأغانى ١٤ : ٧٩ (٢) الأغانى ١٦ : ٨٣ و ٨٧

فأكفنى ما يضيق عنه لسانى   بفصيح من صالح الغلمان

يفهم الناس ما أقول من الشعـ   ـر فإن البيان قد أعيانى

فأمر له سليمان بوصيف بربرى فصيح ، فسماه عطاء ، وتكنى به ، ورواه الشعر ، فكان إذا مدح من يجتديه أو ينتجعه أمره بإنشاده ما قاله .[1]

وكان زياد الأعجم لا يحسن النطق بالعربية على ما أتيح له من التقدم فى الشعر . وقد ضرب أبو الفرج مثلا لعجمته بقوله لغلام له دعاه فأبطأ عليه (منذ لدن د أو تك إلى أن قلت لى ما كنت تسنأ ؟) يقصد : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لى ما كنت تصنع ؟ .

وقد حقق الهجاء لهذه الطائفة ما طمحوا إليه من مكانة ، فكان سلاحا مرهوباً يخشاه الناس ، ويتقونه بإكرامهم ومداراتهم . روى رجل أنه كان جالسا عند المهلب ، فأقبل عليه رجل طويل مضطرب ؛ فلما رآه المهلب قال اللهم إنى أعوذ بك من شره . فجاء فقال : أصلح الله الأمير . إنى قد مدحتك ببيت صفده مائة ألف درهم . فسكت المهلب . فأعاد عليه القول . فقال : أنشدنيه . فأنشده :

فتى زاده السلطان فى الخير رغبة   إذا غَيَّرَ السلطانُ كلَّ خليل

فقال له المهلب : يا أبا أمامه ، مائة ألف ! فوالله ما هى عندنا . ولكن ثلاثون ألفاً فيها عروض[3]. فالمهلب لم يدفع الثلاثين ألفا ثمنا لهذا البيت التافه من الشعر ، فهو لا يساوى شيئا . وإنما دفعها اتقاء هجائه ، واشترى بها عرضه . ولقد بلغ من رهبة هؤلاء الموالى عند الناس ، وجرأتهم عليهم ، أن زيادا

(١) الأغانى ١٦ : ٨١

(٢) العروض جمع عرض بفتح العين وسكون الراء وهو المتاع وكل شىء سوى النقد . يريد المهلب أن يعطيه بعض المبلغ نقداً وبعضه متاعاً .

(٣) الأغانى ١٤ : ١٠٧

هذا شرب يوما مع حبيب بن المهلب ، فسجعت حمامة على شجرة ، فقال لها زياد.

تَغَنَّىْ أنتِ فى ذِمَمى وعهدى   وذمة والدى إن لم تُطَارى
فإِمَّا يقتلوك طلبتُ ثأراً   له نبأ لأنكِ فى جوارى

فتحداه ابن المهلب فأصاب الحمامة بسهم تهكما به ، فانطلق زياد إلى المهلب ابن أبى صفرة شاكياً ، فألزم ابنه دية الحمامة ألف دينار لأنها جارته[1]. وإنما فعل ذلك خوفاً من شره . وحج عبدالله بن عبدالملك بن مروان ، فقال أبوه : سيأتيك الحزين الكنانى الشاعر بالمدينة ، وهو ذرب اللسان ، فإياك أن تحتجب عنه ، وأرضه . ووصفه له ، فقال إنه أشعر ذو بطن عظيم الأنف . فلما قدم عبدالله المدينة وصفه لحاجبه ، وقال له : إياك أن ترده[2]. بل لقد بلغ من جرأة الحزين الكنانى ، أنه كان يفرض الضرائب على أشراف الناس وعلى القرشيين أنفسهم .

روى صاحب الأغانى أنه ضرب على كل رجل من قريش درهمين فى كل شهر ، منهم ابن أبى عتيق ، فجاء يوما لأخذ درهميه وهو على حمار أعجف ، وكان كثير الشاعر جالساً مع ابن أبى عتيق . فدعا ابن أبى عتيق للحزين بدرهمين. فقال له الحزين : من هذا الذى معك ؟ قال : هذا أبو صخر كثير — وكان قصيراً دميما — فقال له الحزين : أتأذن لى أن أهجوه ببيت ؟ قال : لا لعمرى لا آذن لك أن تهجو جليسى ، ولكن أشترى عرضه منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأصغى ثم قال : لابد من هجائه ببيت . قال : أو أشترى ذلك منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأخذهما وقال : ما أنا بتاركه حتى أهجوه . قال : أو أشترى منك ذلك بدرهمين آخرين . فقال له كثير : ائذن له وما عسى أن يقول فى ؟ فأذن له ابن أبى عتيق فقال :

(١) الأغانى ١٤ : ١٠٣   (٢) الأغانى ١٤ : ٧٧

قصيرُ القميص فاحشٌ عند بيته ... يَعَضُّ القُرادُ بأسته وهو قائم

فوثب كثير إليه فوكزه فسقط هو والحمار ، وخلص ابن أبي عتيق بينهما[١] .

وقد كان معظم هجاء هذه الطبقة غثاً تافهاً إذا وزن بموازين الشعر . وكان شطر كبير منه مرتجلا ينشئه الشاعر لساعته . كان الحزين الكناني يمدح محمد بن مروان ويهجو عمرو بن عمرو بن الزبير . ثم إن ابن مروان سأله أن يكف عن عمرو فأبى ، وقال : لا والله ولا بحمر النعم وسودها ، لو أعطيتها ما كففت عنه ، لأنه ما علمت كثير الشر ، قليل الخير ، متسلط على صديقه فظ على أهله . (وخير ابن عمرو بالثريا معلق) فقال له محمد بن مروان : هذا شعر ؟ فقال : بعد ساعة يصير شعراً ، ولو شئت لعجلته ، ثم قال[٢] :

شَرُّ ابن عمرو حاضر لصديقه ... وخير ابن عمرو بالثريا معلق

ووجه ابن عمرو باسِرٌ إن طلبته ... نوالا إذا جاء الكريم الموفق

فنفس الفتى عمرو بن عمرو إذا غدت ... كتائب هيجاءِ المنية تبرق[٣]

فلا زال عمرو للبلايا رَدِيَّةً ... تباكره حتى يموت وتَطْرُق[٤]

يَهِرُّ هريرَ الكلب عمرو إذا رأى ... طعاماً فما ينفك يبكي ويشهق

وهذا شعر تافه كما هو بين . ولكن أمثال هؤلاء الهجائيين كانوا من الضعة وضياع الحسب بحيث يكبر على الأشراف ما يقولون لهم وإن كان تافهاً . ثم هم لا يبالون أن يهجوهم الناس . ولذلك كانوا أكثر ما يتعرضون للسادة والوجهاء . ولم يكونوا يتعرضون للذين لا يبالون أن يجيبوهم ؛ ويظهرون عدم الاكتراث بشعرهم . هجا ابن الخياط موسى ابن طلحة ابن بلال التيمي فقال :

---

(١) الأغاني ١٤ : ٧٦ ... (٢) الأغاني ١٤ : ٨٣

(٣) برق كطرب تحير ... (٤) ردية أي هدف وغرض

عجب الناس للعجيب المحال ‏ حاض موسى بن طلحة بن بلال

زعموه يحيض فى كل شهر ‏ ويرى صُفْرَةً لكل هلال

فلقيه موسى فقال : يا هذا ، وأى شىء عليك ؟ نعم حضت وحملت وولدت وأرضعت . فقال له ابن الخياط : أنشدك الله أن لا يسمع هذا منك أحد فيجترىء على شعرى الناس فلا يكون شيئاً ، ولن يبلغك منى ما تكره بعد الآن(١)

وقد غلب على هجاء هذه الطبقة الاقتضاب والقصر ، فكان ذلك أدعى لذيوعه وخفته على الألسن ، وأشد للذعة ونكايته . كان عبيد الله بن زياد يقول : ما هجيت بشىء أشد على من قول ابن مفرغ :

فكِّرْ ففى ذاك إن فكرت معْتَبَرٌ ‏ هل نلتَ مكرمةً إلا بتأمير

عاشت سُمَيَّةُ ما تدرى وقد عُمِرَتْ ‏ أن ابنها من قريش فى الجماهير

وقال فى هجاء زياد بن أبى سفيان :

فأقسم ما زياد من قريش ‏ ولا كانت سمية من تميم

ولكن نسلُ عبدٍ من بَغِيٍّ ‏ عريق الأصل فى النسب اللئيم

وقال فيه :

إن زيادا ونافعا وأبا بكـ ‏ ـرة عندى من أعجب العجب

إن رجالا ثلاثة خلقوا ‏ فى رحم أنثى ما كلهم لأب

ذا قرشِيٌّ كما يقول وذا ‏ مولى وهذا بزعمه عربى

ويقول زياد الأعجم لكعب الأشقرى الشاعر حين هجاه :

قُبَيِّلة ‏ خيرها شرها ‏ وأصدقها الكاذب الآثم

---

(١) الأغانى ١٨ : ٩٥

وضيفهم وسْطَ أبياتهم وإن لم يكن صائماً صائم

ويقول له :

إذا عذَّبَ اللهُ الرجال بشعرهم أمنتُ لكعبٍ أن يُعَذَّبَ بالشعر

وقال لرجل من جرم :

قضى الله خلق الناس ثم خلقتم بقية خلق الله آخرَ آخرِ

فلم تُسمَعُوا إلا بما كان قبلكم ولم تُدْرَكوا إلا بدق الحوافر

فلو رَدَّ أهلُ الحق من مات منكم إلى حقه لم يدفنوا فى المقابر

هذه طبقة من المستضعفين المغلوبين على أمرهم ، فرضت عليهم القوة والذل ، وقضى عليهم التعصب المتطرف أن يعيشوا مستعبدين مهضومى الحقوق ، فتسلح بعضهم بالرياء يستر به حقده الكامن ، وتسلح فريق منهم بالهجاء ، ودفع اليأس فريقاً ثالثاً إلى الزهد ، يلتمسون فى نعيم الآخرة المقيم عوضاً من جاه الدنيا الحائل . ولكنهم فى جملتهم ظلوا يكيدون للعرب ، وينشرون حضارتهم الفارسية فى بطء وتصميم ، حتى أتيح لهم الظفر الكامل ، فقوضوا ملك الأمويين ، وأقاموا على أنقاضه دولة عربية المظهر ، فارسية الروح والصميم .

[انتهى القسم الثانى فى العصر الاسلامى]

المراجــــع

نصوص :

ديوان جرير	ط : الصاوى
» الفرزدق	ط . الصاوى
» الأخطل	ط . اليسوعيين
» أعشى همدان	ط . أوروبا
نقائض جرير والفرزدق	ط . أوروبا
نقائض جرير والأخطل	ط . اليسوعيين
وقعة صفين	ط . هارون
المفضليات	ط . هارون ١٣٦١ هـ
حماسة أبى تمام	ط . مصر
شرح حماسة أبى تمام	ط . مصطفى محمد
جمهرة أشعار العرب	ط . مصر ١٣٤٥ هـ
شعراء النصرانية	ط . اليسوعيين

نقـــد :

العمدة لابن رشيق	ط . مصطفى محمد
الموازنة للآمدى	ط . صبيح
ديوان المعانى للعسكرى	ط . مصر ١٣٥٢ هـ
الصناعتين للعسكرى	ط . الأستانة ١٣١٩ هـ
الوساطة للجرجانى	ط . مصر ١٣٦٤ هـ
الموشح للمرزبانى	ط . مصر ١٣٤٣ هـ
نقد الشعر لقدامة	ط . مصر ١٩٣٤ م
نقد النثر لقدامة	ط . الجامعة المصرية

أدب :

نهاية الأرب للنويرى	ط . دار الكتب
العقد الفريد	ط . العريان ١٩٤٠ م
البيان والتبيين	ط . السندوبى ١٩٢٦ م
الكامل للمبرد	ط . مصطفى محمد
الأمالى للقالى	ط . دار الكتب
المعارف لابن قتيبة	ط . الصاوى ١٩٣٤ م

تراجم وطبقات :

الأغانى	ط . دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى . وبولاق فيما يليها
وفيات الأعيان	ط . بولاق ، مصر (فريد رفاعى)
الشعر والشعراء لابن قتيبة	ط . مصر (السقا) ١٩٣٢ م
طبقات الشعراء لابن سلام	ط . مصر (السعادة)
خزانة الأدب للبغدادى	ط . مصر (الحلبى) ١٩٣٠ م
الفهرست لابن النديم	ط . مصر ١٣٤٨ ﻫ
معجم الشعراء للمرزبانى	ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ ﻫ
المؤتلف والمختلف للآمدى	ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ ﻫ
الطبقات الكبرى لابن سعد	ط . أوروبا
معجم الأدباء لياقوت	ط . مصر (فريد رفاعى)

تاريخ :

تاريخ الطبرى	ط . مصر ١٩٣٩ م (مصطفى محمد)
تاريخ ابن الأثير	ط . مصر ١٣٤٨ ﻫ (المنيرية)
مروج الذهب للمسعودى	ط . ١٣٤٦ ﻫ
معجم البلدان لياقوت	ط . مصر

نسب عدنان وقحطان للمبرد ط . مصر (لجنة التأليف)
الإنباه على قبائل الرواه لابن عبد البر ط . مصر (السعادة) ١٣٥٠ ﻫ
شرح نقائض جرير والفرزدق ط . أوروبا
مقدمة ابن خلدون ط . مصر ١٩٣١ م
فتوح البلدان للبلاذرى ط . مصر ١٩٣٢ م
الخراج لأبى يوسف ط . مصر (السلفية)
الخراج للقرشى ط . مصر (شاكر)
التنبيه والإشراف للمسعودى ط . ١٩٣٨ م
مختصر الفرق بين الفرق ط . مصر ١٩٢٤ م (الهلال)
التبصير فى الدين للاسفراييني ط . مصر ١٩٤٠ م
النزاع والتخاصم بين بنى أمية ط . مصر
وبنى هاشم للمقريزى

معاجم :

لسان العرب لابن منظور
القاموس المحيط للفيروزبادى
أساس البلاغة للزمخشرى
مجمع الأمثال للميدانى
شرح القاموس للزبيدي
المعرب للجواليقى

كتب حديثة :

بلوغ الأرب للألوسى
تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان
تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان
تاريخ آداب العرب للرافعى
النصرانية وآدابها لشيخو
الروائع للبستانى
فجر الإسلام لأحمد أمين
ضحى الإسلام لأحمد أمين
حديث الأربعاء لطه حسين

فهرس

نشأة الأحزاب السياسية

الهجاء السياسى

على تشجيع الشعراء وتألف الناس بالمال — عودة الشعر للظهور بعد أن خفت صوته منذ وفاة النبى — اعتماد الزعماء والملوك على الشعراء فى تهيئة الناس لمشاريعهم والترويج لها فى الدفاع عنهم ومهاجمة خصومهم — السياسة الحزبية حرفة يتكسب بها الشعراء — استفحال الهجاء السياسى — الهجاء بدع العصر — المربد فى العراق يحتل مكان عكاظ فى الجاهلية — اختلاف صور الهجاء السياسى وتعدد مذاهبه — بعضه جاهلى الأسلوب يقوم على العصبية ، و بعضه يهاجم أصحاب الدعوة والمطالبين بالملك ، وبعضه يهاجم الولاة ، و بعضه يصور سخطا على جميع المتنافسين فى الملك من قريش يصفهم بالطمع والجشع — شعر العصبية امتداد لشعر الحروب فى الجاهلية لم يتأثر بالمثل الاسلامية ـ الفتن الاسلامية منفذ للحزازات القديمة التى تلمست طريقها للظهور عن طريق الزعماء المتقاتلين على الحكم ـ ظهور لون جديد من الهجاء العصبى هو هجاء الاقليم ـ عصبية الشام وعصبية العراق — الشعر الذى يتصل بأصحاب الدعوة ويهاجم المطالبين بالملك يتميز بادراكه للحياة الجديدة وتأثره بمثل الاسلام وأسلوب القرآن ـ بعضه ينصب على نظام الحكم وبعضه ينصب على أشخاص الحكام ـ غلبة الحزن على شعر العلويين وغلبة الفدائية على شعر الخوارج — الشعر الذى يعارض الولاة و ينقد سياستهم من أمتع ألوان الشعر السياسى، وأكثرها دقة ووضوحا فى تصوير المجتمع والكشف عن معايبه — تدفق الأموال على الناس — تميز طائفة الحكام — الحجاب — تأثر الخلفاء والولاة بالعصبية — عنف الولاة وتجبرهم لاعادة الناس إلى احترام القانون — كثرة شكوى شعراء العراق من ظلم العمال فى جباية الاموال .

الأخطل

(ص ٥٨ ـ ٩٦)

طفولته ـ حرمانه وتمرده ـ تعرضه لكعب بن جعيل التماسا للشهرة ـ هجاء

الأنصار واتصاله بيزيد ـ دخوله فى السياسة ودفاعه عن الدولة ومهاجمة أعدائها حظوته عند الأمويين وعلو شأنه فى قبيلته ـ الأخطل شاعر القبيلة وزعيمها ـ سعيه فى الإصلاح بين قومه وجمع كلمتهم ـ ربطه بين قبيلته وبين الأمويين ـ أثره فى موقف تغلب أيام الفتنة الثانية ـ اشتباك قيس بتغلب وموقف الأخطل — قسوته وبشاعة تصويره لمناظر القتال ـ الأخطل فى قمة مجده السياسى ـ تيهه وإدلاله على عبد الملك ـ الأخطل لسان الحكومة الذى يعبر عن رأيها واتجاهاتها هجاء القيسية فى النقائض ـ (خف القطين) مثال رائع للشعر السياسى ـ الغلظة القاسية طابع الأخطل فى أهاجيه ـ ألفاظه بدوية خشنة ـ تأييده لسياسة الولاة وتبرير مسلكهم فى عنفهم وشدتهم ـ حق الأمويين فى الملك ـ القوى الغالب هو صاحب الحق لأن الله لا ينصر الظالمين ـ المثل الجاهلية التى تعتمد على القوة تلبس ثوب الحق الإلهى على يد الأخطل ـ الأخطل بدوى يعيش على المثل الجاهلية فى حياته وفى فنه ـ كثرة الوشايات حول الأخطل وضعف نفوذه فى البلاط الأموى ـ عدى بن الرقاع يحتل مكان الأخطل عند الوليد .

الهجاء الشخصى

(ص ٩٧ ـ ١٢٥)

الهجاء الشخصى من أظهر فنون الشعر فى العصر الأموى ـ العراق بنوع خاص موضع هذا الفن ـ الشعراء يصطنعون أسلوب الحطيئة فى التكسب بالهجاء خوف الأشراف والوجهاء من الهجائين ـ المتهتكون من الهجائين المحترفين ـ الحكم بن عبدل ، الأقيشر ـ الهجاء القصير اللاذع ـ فن النقائض ـ محور هذا الفن شعراء العصر الثلاثة ، كثرة عدد الشعراء الذين دخلوا بينهم وانشغال الناس بأمرهم ، العداوة وحدها ليست هى الدافع للهجاء ، المناقضة منافسة فنية ومباراة

أدبية ، الارتجال فى النقائض ، الشعراء يتربصون بخصومهم ، مهارة الهجاء تتركز فى إدراكه لوجه النقص البارز فى خصمه وقدرته على الافتنان والتصرف فيه ، الإجابة من نفس البحر والروى مظهر للتنافس الفنى ، الشاعر يستكمل قصيدته بإضافة الأبيات بعد سماع نقيضة خصمه . الشاعر يقابل نقيضته بقصيدة خصمه فى الأسلوب والمعانى والأغراض . الأسلوب القصصى فى الهجاء ، الواقعية العارية ـ الهجاء والعقد النفسية ، أمثلة من جرير والفرزدق والأخطل والأقيشر والمغيرة ابن حبناء والحكم بن عبدل وشعراء الموالى .

نقائض جرير والفرزق والأخطل

(ص ١٢٦ – ١٤٣)

النقائض ليست هجاء خالصاً فهى خليط من فنون الشعر التى عرفها العرب لم يكن الهجاء هو الغرض الأساسى فى كل النقائض . النقائض منافسة فنية . التزام نفس البحر والروى فى النقيضة مظهر للتحدى الفنى . كثرة فخر المتناقضين بالبراعة الشعرية ـ من الظلم للنقائض أن تقارن بغيرها من فنون الشعر المتأخرة أو شعر الأمم الأخرى والإنصاف يقتضى أن تقاس بعصرها و بيئتها ، النقائض محدودة الغرض فهى شعر شخصى محوره الفرد لا يكاد يسمو إلى الحياة فى أفقها الواسع ، النقائض على قيمتها التاريخية والعلمية بعيدة عن أذواق المعاصرين ، النقائض تصور عصرها جملة وتصور الناحية الأدبية فيه خاصة . النقائض سجل لكثير من الأحداث التاريخية التى عاصرتها والتى سبقتها منذ وعى العرب تاريخهم — تباين شعراء النقائض الثلاثة فى أسلوبهم الفنى — الأخطل يرضى فنه — جزالة ألفاظه تضعف هجاءه وتحرمه روح الدعابة — الأخطل شاعر خاصة — جرير مرح مداعب ، جرير لا يجهد نفسه فى الشعر — ذيوع شعره وغلبته على قلوب الناس — الفرزدق معنى

بفنه ولكنه ليس موهوبا كجرير — الفرزدق يجارى جريرا فى تناول المعانى الهجائية من قرب — الخصائص العامة للنقائض : العامية والابتذال فى المعانى والألفاظ والأخلاق ، تكرار المعانى والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية ، القصص الهجائى ، جرير أكثرهم تفوقا فى هذا المذهب والأخطل أكثرهم تخلفا .

جــــرير

(ص ١٤٤ - ١٦٨)

بنو يربوع - غلبتهم على البصرة والكوفة وخراسان فى أيام الفتنة الثانية - ثروة الخطفى جد جرير وخمول عطية أبيه - مولده فى أواخر أيام عثمان حوالى ٣٠ هجرية اشتباكه بغسان السليطى - وفوده على يزيد - بنو يربوع يدعون لابن الزبير - تميم فى موقفها من الفتنة حزبان يتزعم أحدهما سلمة بن ذؤيب الرياحى ويتزعم الاخر الأحنف بن قيس - خلو شعر جرير مما يدل على لونه السياسى فى هذه الفترة وتعليل ذلك - زبيرية جرير وتعصبه للقيسية - ضعف جرير ونفاقه وصلابة الفرزدق وأنفته - جرير يعول فى التكسب على المدح ولا يهجو إلا من هاجمه - إلحافه فى سؤال ممدوحيه - شعر جرير رقيق سهل - عدم أصابته المدح - رقة شعر جرير صورة من طبعه السمح ونفسه المطمئنة - إجادته فى الغزل والرثاء - مواهب جرير الشعرية تبدوا كاملة حين يهاجم الأفراد - هدوء طبعه وبرود أعصابه - تهكمه وسخريته - امتياز حسه اللفظى - عينه نقادة تقع على العيوب وتهتدى إلى مواضع السخرية - خياله الخصب وذكاؤه النفاذ يمده بالصور الغريبة فى الافتنان وبالنكت البارعة اللاذعة - جرير من أخطر الهجائين فى اطلاق الالقاب على خصومه وترويج الاشاعات الباطلة عنهم - هجاء جرير واقعى يستند إلى دقة الملاحظة وبراعة الحكاية للأصوات والأشياء .

الفـــرزدق

(ص ١٩٦ - ٢٠٤)

بين جرير والفرزدق - مولد الفرزدق حوالى ٢٤ هـ - الفت الظروف بين جرير والفرزدق من وجوه وخالفت بينهما من وجوه . ضعة جرير وشرف الفرزدق رقة جرير وغلظة الفرزدق ، جرير رقيق يؤسر السلام والفرزدق عنيف يحيا حياة نضال ، جرير زبيرى قيسى والفرزدق لا يعتد إلا بقبيلته ; جرير ينافس الفرزدق على زعامة تميم فى الشعر — الفرزدق يحاول أن يضع حداً لتقدم جرير وشهرته — التنافس على الزعامة الشعرية للقبيلة هو الدافع الاول لتهاجيهما — الفرزدق طموح شديد الاحساس بالتفوق والامتياز إلى حد الجنون والمرض — والفرزدق لا يرحل إلى الخلفاء — الفرزدق يتكلف فى حياته مظهر السادة — اضطراب الروايات وتناقض الآراء فى مذهبه السياسى - الفرزدق مستقل فى تفكيره السياسى لا يصدر فى شعره وتصرفاته إلا عن مصلحة قبيلته — الفرزدق لا يستجدى ممدوحيه كجرير ولكنه يسألهم فى أنفة وترفع — الفرزدق هجاء لانه مغرور بنفسه لا ينظر إلى الناس إلا مستخفا هازئا — تشابه الفرزدق والمتنبى — سوء علاقة الفرزدق بالولاة وهجاؤه لهم وجرأته عليهم — الفرزدق يجمع بين نقيضتين فهو مجنون بالغرور والكبرياء ولكنه شديد الضعف فى احتمال المكاره والصمود للكفاح — شعر الفرزدق مزاج من الشعور بالعظمة والشعور بالرهبة والخوف — شعر الفرزدق رائع فى وصف السجون وتصوير خوفه — الفرزدق جاف غليظ الطبع فى فنه وفى حياته — الفرزدق ينحت من صخر — تراكب الالفاظ واضطرب الضمائر والتعسف فى التراكيب — ملاءمة طبعه الشعرى للفخر ولوصف المظاهر العنيفة وتصوير حياة الصحراء والبادية — فشله فى الغزل والمدح —

الفرزدق لجفاء طبعه بعيد عن الإيمان العميق والإسلام الصحيح — مثله جاهلية تدور حول القوة — يذهب مذهب الفتاك المتهورين كامرىء القيس والأعشى — يفتخر بالزنا وشرب الخمر ويجهر بذلك فى شعره — اقتران جفائه بفتكه وفجوره قد أنتج قدرا ضخما من الشعر الممعن فى الفحش — الفرزدق ولوع بالتصوير العارى يجد فى ذلك لذة حسية — الفرزدق يبدو مضحكا حين يتكلف النسك والخشوع — الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذى استطاع أن يصمد لجرير — موازنة أخيرة بينه وبين جرير فى الفن الهجائى — تفوق جرير فى الهجاء الشخصى ونبوغ الفرزدق فى الهجاء الاجتماعى .

الهجاء والموالى

(ص ٢٠٥ — ٢١٨)

العرب يرون الموالى عبيدا أرقاء والموالى لايرون العرب إلا بدوا جفاة — الموالى يسترون حقدهم بستار من الرياء — بعض الموالى يحترفون الغناء ويتغلغلون فى البيوت العربية الكبيرة ويفتنونهم بموسيقاهم وبأزيائهم وبما ينشرون من ألوان الحضارة والبدع — فريق آخر من الموالى ينصرف إلى الدراسات الدينية فيذهب تعصبهم — فريق ثالث يتخذ الشعر صناعه — بعضهم يحترف السياسة وبعضهم يكسب عيشه ومكانته بهجاء الناس — رقة دين معظم هؤلاء الموالى صورة لاستخفافهم بكل ماهو عربى — بعض شعراء الموالى لايحسنون النطق بالعربية — الهجاء يحقق لشعراء الموالى مكانة وجاها — خوف الناس من شعرهم على تفاهته من الناحية الفنية — غلبة المقطوعات القصيرة على هجائهم — الموالى ثلاث فرق فريق منافق يستر حقده مداهنا ، وفريق يدفع عن نفسه بالهجاء ، وفريق دفعه يأسه إلى الزهد والانصراف عن الدنيا — ولكنهم فى مجموعهم يكيدون للعرب حتى يتحقق لهم الظفر بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية .

فهرست الأخطاء المهمة

الصفحة	السطر	الصواب
٦	٧	بن خويلد
٧	٢	فأبصرا
٧	٢	والدافع إليها
٨	١١	يجرف فى طريقه
١١	١٥	على فتية
١٥	١٩	بالأرض الفضاء
٢٠	٧	أنَّا سنرضى
٢١	١٢	يتجالدون بالسيوف
٢٧	١٠	والحكام من مُضَر
٢٩	٥	إلا تهدُّدا
٣٣	٢	رميناهُمُ
٣٣	١١	المتخلف الرجعى
٤٢	٥	يخوض الناس فيه
٤٥	٦	سَبْرَة بن الجَعْد
٤٥	٦	سمير الحجاج
٤٥	١٠	يجُرُ الخزَّ
٤٦	٧	عند التَّهايجُ
٤٨	٤	فشِبْه الفتاة
٤٩	١٦	ذلك المنتن

الصفحة	السطر	الصواب
٦٥ هامش	٢	النضار (بالهامش)
٦٦	٩	وغالَتْ مالكا
٦٧	٤	أغليْتَ حين
٦٧	١٢	تُؤْ وكِلَتْ أعناقُها
٦٨	١٢	عند قبيلته من جهة، وعند البيت الحاكم ..
٧٠	٤	فى تصوير
٧١	١٨	وكنتم بنى العَجْلان
٧٢	١	ترى كعبها
٧٣	٧	تَنُوشه
٧٤	١٠	من بَكْر
٨٠	١	من بنى أمية
٨٢	١	العِقْبان
٩٠	٩	وعتـــاد
٩٥	١٥	طريد القتل
٩٦	١	من أنوائه
٩٩	٥	تعين على
١٠٠	١١	إلا ذلك

الصفحة	السطر	الموضوع
١٠٣	١٥	رأت بعد عهد . . .
١٠٨	٣	المحتبى
١١٢	٣	عن سبالكم
١٢١	١٧	مِدْرار
١٢٧	١	على القانون
١٣٢	١٦	لستم إليهم
١٣٣	١٢	شهدْتَ
١٣٤	١٦	أوائله
١٣٥	٢٢	كان الفرزدق
١٣٧	١١	و يولدون
١٣٩	٢	محبوكة القرَى
١٤٠	٨	قصدت له
١٤٥	٢	وادعاها لنفسه
١٥٤	١	عريشاً
١٥٥	٩	عيايهم صفرا
١٥٩	١٥	لا نخاف
١٦٦	٢	أنت
١٦٨	٧	حوارى الرسول
١٦٩	٩	١١٤ هـ
١٦٩	١٥	غُبْرٌ
١٧٧	١٣	رُكبانَ فجٍ
١٨٠	١٨	الأصطلاح
١٨٢	١٣	مُنيبها
١٨٧	٣	وما سجنونى
١٨٧	٨	و بين مغيبِ
١٨٩	١١	وقد يَمنَع
١٩٠	٦	سَورة مُخْدرِ
١٩٣	٤	والهندىُّ
١٩٤	١٦	كُسورَ . . . حمراء
١٩٦	٥	ونعزب (هامش)
٢٠٢	٧	فانك بلسانه . . .
٢٠٢	١٧	لقعوادِ الأبكار
٢٠٥	٢١	بجمّةٍ مركّبة
٢٠٩	١٢	والمرمزانِ